الشيخ عبد الرحمن بن سعدي

وجهوده في توضيح العقيدة

بقلم
عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد

مكتبة الرشد
الرياض


الشيخ عبد الرحمن بن سعدي
وجهوده في توضيح العقيدة



بقلم

عبد الرزاق بن عبد المحسن العبَّاد

مكتبة الرشد

الرياض

الطبعة الأولى

١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م

الطبعة الثانية

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م

الناشر

مكتبة الرشد للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض - طريق الحجاز

ص.ب : ١٧٥٢٢ الرياض : ١١٤٩٤ هاتف : ٤٥٨٣٧١٢



تلكس : ٤٠٥٧٩٨ فاكس ملي : ٤٥٧٣٣٨١

فرع القصيم بريدة حي الصفراء

ص ب : ٢٣٧٦ هاتف وفاكس ملي ٣٨١٨٩١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾[1] **﴿ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيباً﴾**[2].

﴿ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾[3].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.[4]

وبعد: فإن عقيدة التوحيد، وإفراد الله وحده بالعبادة هي أجل المسائل وأعظمها على الإطلاق، فمن أجلها خلق الله الخلق وأنزل الكتب وبعث الرسل، فجميع الأنبياء الذين بعثهم الله، إنما بعثهم للدعوة إلى عقيدة التوحيد وإفرادِه وحده بالعبادة.

قال تعالى: **﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾**.[5].

وقال تعالى **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾**[6].

---

(١) سورة آل عمران / الآية ١٠٢.

(٢) سورة النساء / الآية ١.

(٣) سورة الأحزاب / الآيتان ٧٠، ٧١.

(٤) هذه الخطبة تسمى (خطبة الحاجة) وهي تشرع بين يدى كل حاجة، وقد أفرد فيها العلامة الألباني رسالة خاصة جمع فيها الأحاديث الواردة فيها وطرقها، فلتراجع.

(٥) سورة النحل / الآية ٣٦.

(٦) سورة الأنبياء / الآية ٢٥.

وقال تعالى: ﴿**ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون**﴾[1].

وقد ختمهم الله سبحانه بمحمد ﷺ، البشير النذير، والداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير، فعمل على ما كان عليه إخوانه المرسلون من العناية بعقيدة التوحيد فأخذ ينادي بهذه العقيدة في أرجاء قومه، الذين عكفوا على أصنام لهم متخذينها آلهة، يدعونها ويذبحون لها ويتوسلون بها ويقدمون لها أنواعاً كثيرة من العبادة، مع أنها حجارة لا تضر ولا تنفع، ولا تملك لنفسها ضراً ولا رشداً، فضلاً عن أن تملك لغيرها شيئاً.

فأخذ ينادي بينهم بهذه العقيدة، ويصدع بينهم بقوله: «قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»[2].

فما كان منهم إلا أن أنكروا دعوته، وردوا مقالته، فقالوا له متعجبين ولدعوته مستنكرين: ﴿**أجعل الآلهة إلهًا واحداً إن هذا لشيء عجاب**﴾[3].

فما استكان ولا توانى بل استمر ﷺ يدعو إلى هذه العقيدة، فدعا إليها ثلاثة عشر عاما في مكة، وواصل ذلك في المدينة بعد أن هاجر إليها.

فنفع الله بدعوته، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن عبادة الأوثان إلى عبادة الواحد الديان. وفتح الله به أعيناً عمياً وقلوباً غلفاً وآذاناً صماً.

قال تعالى: ﴿**قد أنزل الله إليكم ذِكْراً رسولاً يتلوا عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور**﴾[4].

وقال تعالى: ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم**

---

(١) سورة النحل / الآية ٢.

(٢) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد / ٢٧ وابن حبان (موارد الظمآن: ١٦٨٣) والدارقطني ٣/٤٥ واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤/٧٦٠، والبيهقي ١/٧٦، ٢١٦، والحاكم ٢/٦١٢ عن طارق بن عبدالله المحاربي رضى الله عنه. ويروى عن غيره من الصحابة، قال الحاكم صحيح الاسناد ووافقه الذهبي وقال المحدث أبو الطيب أبادي في التعليق المغني على سنن الدارقطني (رواته كلهم ثقات). أ.هـ

(٣) سورة صٓ / الآية ٥.

(٤) سورة الطلاق / الآيتان ١٠، ١١.

ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[1].

ولم يمت ﷺ حتى أتم الله به الدين وأكمله، حيث أدى رسالة ربه وافية كاملة ممتثلاً بذلك أمر ربه حيث يقول: ﴿يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾[2].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ باسم الرسالة، وآمراً له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به. وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك، وقام به أتم قيام»[3].

ثم ساق ما أخرجه البخاري في «صحيحه» عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت:

«من حدثك أن محمداً كتم شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب، وهو يقول: ﴿يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾[4]»[5].

وقد أنزل الله في كتابه ـ تبييناً وتنصيصاً على أن الرسول ﷺ ما مات حتى أتم الله الدين وأكمله ـ قولَه:

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾[6].

وهذا الإنعام أعظم نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الأنس والجن فلا حلال إلا ما أحله ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه. وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق، لا كذب فيه ولا خلف كما قال تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾[7] أي صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأوامر والنواهي. فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾[6] أي

---

(١) سورة الجمعة / الآية ٢.

(٢) سورة المائدة / ٦٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٧٧.

(٤) سورة المائدة / الآية ٦٧.

(٥) البخاري / ٥/١٨٨.

(٦) سورة المائدة / الآية ٣.

(٧) سورة الانعام / ١١٥.

فارضوه أنتم لأنفسكم فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام، وأنزل به أشرف الكتب[1].

ثم بعد موته ﷺ خلفه في الدعوة إلى هذا الدين، وفي نشر هذه العقيدة الصافية، ورثته من بعده وهم العلماء المصلحون الصحابه ومن اقتفى أثرهم وسار على نهجهم وترسَّم خطاهم، فالأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم.

كما في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (.... إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)[2].

قال تعالى: ﴿**ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا**...﴾[3] الآية فأهل العلم لهم جهد كبير، وأثر عظيم في نقل هذا الدين، وإيصاله إلى الناس صافياً نقياً. ولهم جهد في الذود عن حمى هذا الدين من دسائس المبطلين وتحريف الغالين من الملاحدة والزنادقة والمبتدعة وغيرهم.

قال إمام أهل السنة أحمد بن حنبل ـ رحمه الله تعالى ـ في رسالة بعثها إلى مُسَدَّد بن مُسَرْهَد عندما سأله عن أمر الفتنة وما وقع فيه الناس من الاختلاف في القدر والرفض والاعتزال وخلق القرآن والإرجاء. قال: (... الحمد لله الذي جعل في كل زمان بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، وينهون عن الردى، يحيون بكتاب الله الموتى، وبسنة النبي أهل الجهالة والردى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه. وكم من ضال قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس ينفون عن دين الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين الذين عقدوا ألوية البدع، وأطلقوا أعنَّة الفتنة. مختلفين في الكتاب يقولون على الله وفي الله. تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وفي كتابه بغير علم، فنعوذ بالله من كل فتنة مضله...)[4].

فعلى مر العصور واختلاف الأيام، يقيض الله لهذا الدين العلماء الأعلام، فيقومون بإرشاد الناس إلى الدين، ويهدونهم إلى الطريق المستقيم عن طريق الخطب، والمواعظ والدروس والمؤلفات النافعة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/١٢.

(٢) أخرجه أحمد ٥/١٩٦، والترمذي ٥/٤٩ وابن ماجه ١/٨١، وأبوداود ٣/٣١٧، والدارمي ١/٩٨. وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ١/٤٣.

(٣) سورة فاطر / الآية ٣٢.

(٤) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي / ٢١٧، وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١/٣٤٢. وانظر لزاماً درء التعارض لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/٢٢١.

فيحيون ما اندرس من السنن، ويردون ما جد من الحوادث والبدع، ويكونون أئمة خير يهدون الناس بأمر الله إلى كل خير، وبهم يكون صلاح الدين والدنيا وبفقدهم فلا خير في الدنيا، بل هي سواهم وسوى ذكر الله ملعونة ملعون ما فيها.

كما ورد في الحديث «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالماً أو متعلماً»[1].

وإن من هؤلاء الهداة الأعلام المبرزين في القرن الرابع عشر المنصرم، الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله آل سعدي المتوفى في عام ١٣٧٦هـ رحمه الله تعالى.

فقد بذل رحمه الله حياته، ونذر أوقاته لخدمة العلم، وقد عرف منذ حداثة سنة برغبته القوية، وحرصه الشديد على تحصيل العلم، فكان لا يصرفه عنه صارف، ولا يشغله عنه أي أمر من الأمور باذلاً له حياته صارفا فيه أوقاته، زاهداً في كل ما يشغله عن العلم والتعلم. فحفظ القرآن عن ظهر قلب في الحادية عشره من عمره، ثم أقبل على العلماء يواظب على دروسهم، وأكب على كتب أهل العلم يقرأها وينهل من معينها فانقطع رحمه الله للعلم وتحصيله حفظاً وفهماً ودراسة ومراجعة واستذكارا وتطبيقاً، حتى نال في وقت مبكر من عمره علوماً كثيرة وفنوناً مختلفة.

وقد بارك الله فيه وفي أوقاته ونفع به، فاستفاد منه خلق كثير في حياته، ولا يزالون ينتفعون من مؤلفاته بعد وفاته، فله رحمه الله مؤلفات كثيرة تربو على أربعين مؤلفاً في سائر فنون الشريعة فله مؤلفات عديدة في العقيدة الإسلامية وفي التفسير وعلومه وفي الفقه وأصوله وفي محاسن الدين وآدابه وغير ذلك، وهي سهلة الأسلوب قريبة المأخذ، واضحة المعاني، جامعة شاملة.

وقد كان له رحمه الله عناية بالغة بالعقيدة الإسلامية، كشأن علماء أهل السنة والجماعة. وقد خصها بمؤلفات عديدة أفردها لبيان العقيدة وتوضيحها وللرد على من خالفها، ومؤلفاته التي أفردها في العقيدة تربو على عشرة مؤلفات، ثم إنه يُعنى في العقيدة في سائر مؤلفاته، وكتابه «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» يعد مرجعاً هاماً في بيان العقيدة وتوضيحها والرد على من خالفها، وكذلك خلاصة هذا التفسير المسمى بـ «تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن». وغيرهما من مؤلفاته.

---

(١) أخرجه الترمذي ٤/٥٦١ وابن ماجه ٢/١٣٧٧، وحسنه الألباني، انظر صحيح الجامع ٣/١٥٢.

فكان رحمه الله يُعنىٰ بأمر العقيدة ويرى أنه أعظم المسائل وأكبرها وأهمها وأجدرها بالتوضيح والبيان.

وقد استفاد كثيراً من كتب من سبقه من علماء الإسلام المتقدمين، ولا سيما من كتب العالمين الجليلين شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن قيم الجوزية اللَّذَين ظهر تأثره بهما في مؤلفاته، فقد نهج رحمه الله نهجهما في تأصيل القواعد وتقريرها وفي الردود على المخالفين لهذه العقيدة، كما اعتنىٰ رحمه الله بمؤلفاتهما شرحاً وتوضيحاً وتبييناً.

ولما كان على كل طالب في الدراسات العليا أن يقدم بحثاً علمياً في مجال تخصصه فقد رأيت أن أقوم بدراسة علمية لجهود هذا العالم الجليل في توضيح العقيدة، واستخرت الله في ذلك وشاورت بعض أهل العلم من تلاميذه وغيرهم فوجدت التأييد التام ممن سألته، فعزمت أمرى وتوكلت على الله، وباشرت الكتابه في هذا الموضوع وجعلته بعنوان: **(الشيخ عبدالرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة)** وجعلته في مقدمةٍ وبابين وخاتمة:

أما المقدمة: فهي هذه وقد جعلتها تمهيدًا لهذا البحث وبينت فيها أهميته، والخطة التي سرت عليها فيه.

وأما الباب الأول: فقد خصصته للحديث عن حياة الشيخ عبدالرحمن بن سعدى، وقسمته إلى فصلين:

الفصل الأول: عن حياته الشخصية وقسمته إلى ثمانية مباحث.

تحدثت فيها عن نسبه، ومولده، ووفاة والديه، ونشأته، وصفاته الخَلقية والخُلقية وأعماله ومرضه، ووفاته، ورثائه.

والفصل الثاني: عن حياته العلمية وقسمته أيضا إلى ثمانية مباحث.

تحدثت فيها عن طلبه للعلم وحرصه عليه، وشيوخه، وعنايته بكتب شيخ الإسلام ابن تيميه وتلميذه ابن القيم وتأثره بهما، وجلوسه للتدريس، وطريقته فيه، وتلاميذه، وعقيدته، وتنوع ثقافته، ومؤلفاته، وثناء العلماء عليه.

وأما الباب الثاني: فخصصته للحديث عن جهوده في توضيح العقيدة وقسمته إلى أربعة فصول:

الفصل الأول: عن جهوده في توضيح الإيمان بالله وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

المبحث الأول : عن توحيد الربوبية.
والمبحث الثاني : عن توحيد الأسماء والصفات.
والمبحث الثالث : عن توحيد الألوهية.

والفصل الثاني: عن جهوده في توضيح الإيمان بالنبوات وضمنته الحديث عن الإيمان بالملائكة والكتب.

والفصل الثالث: عن جهوده في توضيح الإيمان باليوم الآخر وفيه تمهيد وخمسة مباحث:

المبحث الأول : الإيمان بأشراط الساعة.
المبحث الثاني : الإيمان بفتنة القبر وعذابه ونعيمه.
المبحث الثالث : الإيمان بالنفخ في الصور.
المبحث الرابع : الإيمان بالبعث والنشور.
المبحث الخامس : الإيمان باليوم الآخر بعد البعث.

والفصل الرابع: عن جهوده في توضيح تعريف الإيمان وما يتعلق به من مسائل كالاستثناء في الإيمان وزيادة الإيمان ونقصانه، وحكم مرتكب الكبيرة وغير ذلك.

وأما الخاتمة: فقد عرضت فيها ملخصاً موجزاً للنقاط الهامة في هذا البحث.

هذا وقد بذلت جهدى في هذا البحث، فاستقصيت جميع مؤلفات الشيخ بعد أسفار متعددة إلى عنيزة والرياض، واتصلت بعدد من تلاميذه، وعكفت على كتبه وقرأت منها ما يتعلق بالعقيدة، ثم سطرت هذه الرسالة. مستفرغاً فيها وُسعي باذلاً فيها طاقتي، وهيْ في الحقيقة بضاعة متواضعة من شخص مقل، حسبه فيها أنه قدم جهده، وتوخى أن تصل إلى درجة مرضية.

وإتماماً للفائدة من هذه الرسالة قمت بعزو الآيات القرآنية إلى أماكنها، وتخريج الأحاديث النبوية باختصار، ووثقت النقول بذكر مصادرها، وأما ما أهملت توثيقه من أقوال بعض المعاصرين فلأني أخذته منهم مشافهة.

ثم إني في ختام هذه المقدمة لا يفوتني أن أتقدم بجزيل شكري وتقديري - بعد شكر الله تعالى على وافر نعمه وعظيم مننه - إلى جميع من أسهم معي في إخراج هذا البحث.

وأخص بالذكر والدي الكريم الشيخ عبدالمحسن العباد حفظه الله ورعاه، وشيخي الفاضل علي بن ناصر فقيهي المشرف على إعداد هذه الرسالة، والشيخين

الكـريمـين اللذين قاما بمناقشة وتقويم هذه الرسالة وهما: فضيلة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان، وفضيلة الشيخ عبدالله بن محمد الغنيمان، فقد استفدت منهم فوائد جمة، فأسأل الله الكريم أن يجزي الجميع عني خيراً.

وأسأله سبحانه أن يتقبل هذا الجهد بقبول حسن، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، فهو حسبي ونعم الوكيل.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه

عبدالرزاق بن عبدالمحسن العباد

المدينة النبوية في ٢١ رمضان ١٤٠٧هـ

البَاب الأول

حَياة الشيخ عبْد الرحمٰن بن سَعدي

وفيه فصلان:

الفصل الأول : حياته الشخصية.

الفصل الثاني: حياته العلمية.

الفَصل الأول
حياته الشخصيّة

وفيه ثمانية مباحث :ـ

أولا : نسبه .
ثانيا : مولده ووفاة والديه .
ثالثا : نشأته .
رابعا : صفاته الخَلقية .
خامسا : صفاته الخُلقيه (أخلاقه) .
سادسا : أعماله .
سابعا : مرضه ووفاته .
ثامنا : رثاؤه .

حياته الشخصية(*)

أولا: نسبه:

هو العلامة الورع الزاهد، الفقيه الأصولي المحقق المدقق الشيخ عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله بن ناصر بن حمد آل سـ ـي. من نواصر بني تميم، من بني عمرو أحد

(*) مصادر ترجمة الشيخ ابن سعدى:-

(١) روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين للشيخ محمد بن عثمان القاضى ١/٢١٩.

(٢) علماء نجد خلال ستة قرون للشيخ عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢/٤٢٢.

(٣) مشاهير علماء نجد وغيرهم للشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ ٣٩٢.

(٤) علماء آل سليم وتلامذتهم للشيخ صالح بن سليمان بن محمد العمرى ٢/٢٩٥.

(٥) ترجمة في آخر كتاب المختارات الجلية لابن سعدى، طبعة المدني بقلم الشيخ سليمان بن عبدالكريم السناني.

(٦) ترجمة في آخر المختارات الجلية لابن سعدى، طبعة السعيدية بقلم أحد تلاميذ الشيخ، وهي حرفية أو شبه حرفية من مشاهير علماء نجد لآل الشيخ.

(٧) مقدمة كتاب الرياض الناضرة لابن سعدى بقلم أحد تلاميذ الشيخ.

(٨) سيرة الشيخ عبدالرحمن السعدى جمع وتقديم محمد حامد الفقي. وهي جملة من المقالات لابن الشيخ المترجم له ولأحد تلاميذه ولغيرهما قام بجمعها الشيخ محمد حامد الفقي.

(٩) الاعلام لخير الدين زركلي ٣/٣٤٠.

(١٠) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٣/٣٩٦.

(١١) مجلة الجامعة الإسلامية س: ١١، ع: ٤، ص٢٠٥. مقال للدكتور عبدالرحمن العدوي.

(١٢) مجلة العرب س: ٧ عدد ربيع الأول سنة ١٣٩٣هـ، ص٦٩٠ بعنوان: معجم المطبوعات العربية تحدث فيه عن مؤلفات ابن سعدى.

(١٣) مجلة الحج الحجازية س: ١١، ع١، سنة ١٣٧٦هـ، ص: ١٢٥.

(١٤) مقدمة كتاب شرح القصيدة التائية بقلم عبدالغني عبدالخالق.

البطون الكبار من قبيلة بني تميم الشهيرة[1].

المكنى بأبي عبدالله، الشهير بعلامة القصيم. نزح جدهم من قفار قرب حائل[2]، وقيل من المستجدة وهي قريبة من حائل أيضا[3] إلى عنيزه حوالي عام ١١٢٠هـ[4].

أما نسبه من قبل أمه، فأمه من آل عثيمين ابنة سليمان العثيمين، وآل عثيمين من آل مقبل من آل زاخر من الوهبه من بني تميم، وهم من شقراء، نزح جدهم منها إلى عنيزة وطاب له السكنى فيها[5].

ثانيا: مولده، ووفاة والديه:

ولد في عنيزة في القصيم، وذلك بتاريخ ١٢ المحرم سنة ألف وثلاثمائة وسبع من الهجرة النبوية.

وتوفيت أمه سنة ١٣١٠هـ وله أربع سنوات، وتوفي والده سنة ١٣١٣هـ وله سبع سنوات. فعاش يتيم الأبوين[6].

ثالثا: نشأته:

كان والد الشيخ عبدالرحمن، من طلبة العلم الحريصين على الطلب، الملازمين

---

(١) روضة الناظرين للقاضي ٢/٢١٩، وعلماء نجد للبسام ٢/٤٢٢ وغيرهما.

(٢) روضة الناظرين للقاضي ١/٣١٩.

(٣) علماء نجد للبسام ٢/٤٣٣.

(٤) المصدران المتقدمان وغيرهما.

(٥) المصدران المتقدمان.

(٦) آخر كتاب المختارات الجلية طبعة المدني بقلم السناني ص: أ، مقدمة كتاب الرياض الناضرة بقلم أحد تلاميذ الشيخ، وغيرهما.
وفي آخر كتاب المختارات الجلية طبعة السعيدية ترجمة للشيخ بقلم أحد تلاميذه /٤١٠، ذكر فيها أن والده توفي وله ثمان سنوات، وفي مشاهير علماء نجد لآل الشيخ /٣٩٢ ذكر أن والده توفي وله اثنتا عشرة سنة وهو خطأ؛ لأن جميع من ترجم له يذكر أن والده توفي وله سبع سنوات، وكذا ابنه عبدالله ذكر ذلك في ترجمته لوالده. انظر سيرة عبدالرحمن السعدى، جمع محمد الفقي /١٨.

على العبادة المحافظين على الديانة بأنواعها، وكان إمامًا في مسجد المسوكف بعنيزة[1] فعني بابنه عبدالرحمن وسعى في تربيته تربية صالحة.

فلمّا توفاه الله عطفت عليه زوجة والده وكفلته وأحبته أكثر من حبها لأولادها وصار عندها موضع العناية والرعاية، فلما شب صار في بيت أخيه الأكبر حمد بن ناصر، فنشأ نشأة صالحة كريمة[2].

وكان والده قد أوصى به إلى ابنه الأكبر حمد فقام برعايته وتربيته خير قيام، وكان حمد رجلاً صالحاً ومن حملة القرآن ومن المعمرين[3].

هذا وإن الشيخ عبدالرحمن كان منذ نشأته صالحاً مثاراً للإعجاب محافظاً على الصلوات الخمس مع الجماعة، واشتهر منذ حداثته بفطنته وذكائه ورغبته الشديدة في طلب العلم وتحصيله[4].

فتوفرت له البيئة الصالحة، والرغبة الشديدة في طلب العلم، فاجتهد في طلب العلم وجد فيه وسهر الليالي وواصل الأيام ومضى في طريقه قُدُماً لا يلوي على شيء غير العلم ولا يريد شيئاً غير تحصيل العلم. فلا يكاد الواصفون يصفون شدة حرصه وإقباله على العلم والتعلم، وهكذا حتى نال حظاً وافراً في العلوم الشرعية[5].

رابعاً: صفاته الخَلقية:

كان ذا قامة متوسطة، شعره كثيف، ووجهه مستدير ممتلىء طلق، ولحيته كثيفة، ولونه أبيض مشرب بالحُمرة، وكان شعره في شبيبته في غاية السواد. وفي شيخوخته في غاية البياض يتلألأ كأنه فضة، ووجهه حسن عليه نور في غاية الحسن وصفاوة اللون[6].

---

(١) آخر المختارات الجلية، طبعة المدني بقلم سليمان السناني ص أ، وروضة الناظرين للقاضي ٣١٩/١.

(٢) علماء نجد للبسام ٤٣٣/٢، ومشاهير علماء نجد لآل الشيخ / ٣٩٢.

(٣) روضة الناظرين للقاضي ٣١٩/١.

(٤) روضة الناظرين للقاضي ٣١٩/١، سيرة السعدى جمع الفقي بقلم أحد تلاميذ الشيخ / ٩.

(٥) سيرة السعدى جمع الفقي بقلم أحد تلاميذ الشيخ / ١٠، وآخر كتاب المختارات الجلية بقلم السناني / أ.

(٦) روضة الناظرين للقاضي ٢٢٥/١. وآخر كتاب المختارات الجليلة، طبعة المدني، بقلم السناني، ص هـ.

خامسا: صفاته الخُلقيه (أخلاقه):

أ- (لـه أخـلاق أرق من النسيم وأعذب من السلسبيل لا يعاتِب على الهفوة ولا يؤاخِـذ بالجفـوة، يتـودد ويتحبب إلى البعيد والقـريب، يقابل بالبشاشة، ويُحيِّي بالطلاقة، ويعاشر بالحسنى ويجالس بالمنادمة، ويجاذب أطراف أحاديث الأنس والود، ويعطف على الفقير والصغير ويبذل طاقته ووسعه، ويساعد بماله وجاهه وعلمه ورأيه ومشورته ونصحه بلسان صادق، وقلب خالص، وسر مكتوم، ومهما أردت أن أعدد فضائله ومحاسنه في مجال الأخلاق الكريمة والشيم الحميدة التي يتحلى بها فإني مقصر وقلمي عاجز، ولا يدرك هذا إلا من عاشره وجالسه؛ لذا فإن الله سبحانه أعطاه محبة في القلوب وثقة في النفوس، فأجمعت البلاد على وده، واتفقت على تقديمه، فصار له زعامة شعبية، فإشارته نافذة وكلمته مسموعة وأمره مطاع). هكذا وصفه تلميذه عبدالله البسام[1].

ب- وكان رحمه الله ذا دعابة يتحبب إلى الخلق بحسن خلقه مرحاً للجليس لا يرى الغضب في وجهه طلق الوجه، كريم المحيا، وكان يكثر الحج ويصوم البيض وغيرها ويتكلم مع كل فرد بما يناسب حاله[2] ويعاشر الخلق معاشرة تامة كل بحسب حاله من يعرف ومن لا يعرف الصغير والكبير والخاص والعام، والرجال والنساء، محباً للخير مُقْدِماً عليه[3].

جـ- ولم يُرَ قط إلا مبتسماً أو بادية أسارير وجهه، ولم يقابله أي شخص إلا بادره بالسلام واللطافة الصغير والكبير، ومن يعرف ومن لا يعرف، وقل من يراه إلا ويعرفه، ويباسط كل أحد بحسب حاله مباسطة تؤلف القلوب وتمكن الموده[4].

د- وكان على جانب كبير من التواضع ولين الجانب يندر مثله، تحس إذا جالسته كأنك من أقرب الناس إليه. متواضعاً للصغير والكبير والغني والفقير[5]، وكان لا ينقطع عن زيارتهم في بيوتهم ومشاركتهم في مجتمعاتهم[6] يجيب دعوتهم ويزور مريضهم ويشيع جنائزهم[7].

---

(١) علماء نجد ٢/٤٢٩.

(٢) روضة الناظرين للقاضي ١/٣٣٤.

(٣) آخر كتاب المختارات الجلية، طبعة المدني، بقلم السناني ص: د.

(٤) آخر كتاب المختارات الجلية، طبعة المدني بقمل السناني، ص: د.

(٥) مقدمة الرياض الناضرة لأحد تلاميذ الشيخ / ٦، وعلماء آل سليم للعمري ٢/٢٩٥.

(٦) علماء نجد للبسام ٢/٤٢٤.

(٧) روضة الناظرين للقاضي ١/٢٢٣.

هـ ـ وكان على جانب كبير من الأدب والعفة والنزاهة والحزم في كل أعماله، زاهداً متعففاً عزيز النفس على قلة ذات يده[١]، ذا شفقة على الفقراء والمساكين والغرباء، ماداً يد المساعدة لهم بحسب قدرته. ويستعطف لهم المحسنين ممن يعرف عنهم حب الخير في المناسبات[٢]، ويدفع للفقراء من الطلبة الأموال ليتجردوا عن الانشغال بوسائل المعيشة[٣].

و ـ وكان محباً لإصلاح ذات البين. فما من مشكلة تعرض عليه إلا ويحلها برضا الطرفين، لما ألقى الله في قلوب الخلق من مودته والانقياد لمشورته والإصغاء لقوله مهما كانت الحال، ولا يكاد يوجد من يرى مخالفته في أي حال من الأحوال[٤].

ز ـ وكان ملبسه متوسط الحسن مجانباً للشهرة، لا يرغب ملابس الشهرة، فملابسه حسنة طيبة بعيدة عن الشهرة[٥].

سادسا: أعماله:

وأعني بأعماله، ما قام به الشيخ من مشاريع خيرية، أو ما تولاه من أعمال دينية.

وقد كان رحمه الله محباً للمشاريع الخيرية العامة والخاصة آمراً بها، مساعداً عليها، وله أفعال كثيرة حسنة جهرية وسرية، لم يظهر بعضها إلا بعد وفاته وهي كثيرة جداً[٦].

وفيما يلي أعرض بعض المشاريع التي قام بها، والأعمال التي تولاها:

أ ـ كان مرجع بلاده وعمدتهم في جميع أحوالهم وشئونهم، فهو مدرس الطلاب وواعظ العامة وإمام الجامع وخطيبه، ومفتي البلاد وكاتب الوثائق ومحرر الأوقاف والوصايا وعاقد الأنكحة ومستشارهم في كل ما يهمهم[٧]. كل ذلك خدمة لوجه الله.

---

(١) مقدمة الرياض الناضرة لأحد تلاميذ الشيخ / ٦، وروضة الناظرين للقاضى ١/٢٢٣.

(٢) مقدمة الرياض الناضرة لأحد تلاميذ الشيخ / ٦.

(٣) روضة الناظرين للقاضى ١/٢٢٤.

(٤) آخر كتاب المختارات الجلية، طبعة المدني، بقلم السناني، ص: د وسيرة السعدى، جمع الفقي / ١٣.

(٥) آخر كتاب المختارات الجلية، طبعة المدني، بقلم السناني ص: هـ.

(٦) المصدر المتقدم ص: د.

(٧) علماء نجد للبسام ٢/٤٢٤.

ب ـ قام في سنة ١٣٦٠هـ بتأسيس المكتبة الشهيرة بالوطنية في عنيزة على نفقة الوزير ابن حمدان، وجلب لها آلاف الكتب في شتى الفنون، وصارت هذه المكتبة مجمعاً لطلاب العلم يقرؤون عليه فيها، وكانت المراجع متوفرة فيها[1].

جـ ـ رشح لقضاء عنيزة عام ١٣٦٠هـ وامتنع منه تورعاً[2]، ولم يدخل في أي وظيفة لا قضاء ولا غيره. وعرض عليه القضاء أكثر من مرة ولكن سهل الله له الفكاك منه[3].

د ـ عين إماماً وخطيباً للجامع الكبير بعنيزه في رمضان عام ١٣٦١هـ بأمر الشيخ عبدالرحمن بن عودان، وهي حسنه من حسناته أحبه الناس عليها وحفظوها له[4].

هـ ـ قام في سنة ١٣٦٣هـ، بجمعية خيرية لعمارة مقدم الجامع الكبير، بعنيزة وانتهت بعمارة محكمة مع توسعة[5].

و ـ وقام في سنة ١٣٧٣هـ بجمعية أخرى خيرية لعمارة مؤخر المسجد وانتهت على ما يرام بمساعيه المشكوره[6].

ز ـ عين مشرفاً على المعهد العلمي بعنيزه سنة ١٣٧٣هـ، يقول الشيخ عبدالرحمن العدوى ـ أحد المدرسين في المعهد إذ ذاك بعد أن ذكر خبر تعيينه مدرساً هناك ـ .(وفي نفس الوقت بلغنا أن الشيخ عبدالرحمن السعدي قد عين مشرفاً على المعهد من الناحية العلمية، وكان تعيينه براتب شهرى قدره ألف ريال. ولكن الشيخ رحمه الله تعالى أرسل إلى رئاسة المعاهد العلمية أنه على استعداد للإشراف على المعهد حسبة لوجه الله تعالى، وأنه لا يريد أن يكون له على ذلك أجر مادي وقبلت الرئاسة شاكرة له هذا الصنيع الذي لا يصدر إلا من عالم زاهد يبتغي وجه الله)[7].

ثم قال: (كان رحمه الله يأتي إلى المعهد بانتظام يوم الثلاثاء من كل أسبوع، ثم

---

(١) روضة الناظرين ١/٢٢٣.

(٢) روضة الناظرين ١/٢٢١.

(٣) آخر كتاب المختارات الجلية، طبعة المدني، بقلم السناني، ص:ج.

(٤) روضة الناظرين للقاضى ١/٢٢٣. وعبدالرحمن بن عودان هو قاضى عنيزة إذ ذاك.

(٥) روضة الناظرين، للقاضى ١/٢٢٣.

(٦) روضة الناظرين، للقاضى ١/٢٢٣.

(٧) مجلة الجامعة الإسلامية، سنة: ١١، ع:٤ ، ص:٢٠٥.

يدخل إلى آخر صف ويجلس فيه كأنه أحد طلاب هذا الفصل. ويكرر هذا العمل في أكثر من فصل ويستمع إلى أكثر من مدرس ولم يكن في المعهد من المدرسين المصريين إلا أنا وزميل آخر، أما بقية المدرسين فكانوا من أبناء الشيخ علمهم في المسجد الجامع إلى درجة تسمح لهم بالقيام بتدريس المواد التي تعلموها على يديه)[1].

حـ - هو أول من أدخل مكبر الصوت في عنيزة، وله خطبة في منافعه قالها حين وضعه في المسجد واستنكره بعض الناس قال فيها: (وكذلك إيصال الأصوات والمقالات النافعة إلى الأمكنة البعيدة من برقيات وتلفونات وغيرهما، داخل في أمر الله ورسوله بتبليغ الحق إلى الخلق، فإن إيصال الحق والكلام النافع بالوسائل المتنوعة من نعم الله، وترقية الصنائع والمخترعات لتحصيل المصالح الدينية والدنيوية من الجهاد في سبيل الله)[2].

ط - وله أعمال خيرية سرية كثيرة عرف بعضها بعد وفاته:

منها: أن امرأة أرملة لها بيت، أصبحت مدينة بمال كثير، فرهنت بيتها، وليس لها عمل تقتات به، فأحس بذلك الشيخ فصار يتعهدها ويعطيها أرسالاً مما يأتيه من أهل الخير، فكانت تدفع أكثر ما يصلها إلى صاحب الدين وتبقي قليلاً من المال تقتات به. فبقيت على تلك الحال مدة من الزمن فخلص الدين بأجمعه وذلك قبل وفاة الشيخ بأشهر، فلما توفي - رحمه الله - ظهر الخبر من المرأة، وكانت دائماً تذكره وتدعو له، وأمثالها في ذلك كثير فرحمه الله رحمة واسعة[3].

سابعا: مرضه ووفاته:

أصيب عام ١٣٧١هـ أي قبل وفاته بخمس سنوات بمرض ضغط الدم، وتصلب الشرايين فكان يعتريه مرة بعد مرة وهو صابر عليه، وكانت أعراض المرض تبدو عليه بعض الساعات في الكلام فيقف ولو كان يقرأ القرآن ثم يتكلم[4].

---

(١) المصدر السابق / ٢٠٦، بتصرف.

(٢) الخطب المنبرية / ٨١.

وانظر مجلة الجامعة الإسلامية سنة ١١ ، ع: ٤ ، ص: ٢٠٧ فيها ذكر سبب إدخال مكبر الصوت.

(٣) آخر كتاب المختارات الجلية، طبعة المدني، بقلم السناني، ص: هـ.

(٤) علماء نجد للبسام ٢ / ٤٢٩، ومشاهير علماء نجد لآل الشيخ / ٣٩٦ وغيرهما.

. فاهتمت به الحكومة، حيث أرسل له الملك سعود رحمه الله طائرة خاصة، وفيها طبيبان، قررا بعد الكشف عليه سفره للعلاج في لبنان وصحباه في السفر[1].

فسافر إلى بيروت في عام ١٣٧٣هـ وبقي هناك شهرا، يعالج حتى شفاه الله، ونصحه الأطباء بالراحة وقلة التفكير والاجهاد[2]. واجتمع في سفره هذا بعدد من العلماء، وتعرف بجملة من الفضلاء[3]، منهم الشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني كما حدثني بذلك.

ثم رجع إلى عنيزة فباشر فيها أعماله، ولم يصبر على ترك العلم فقام فيها تعليماً وإمامةً وخطابةً وتأليفاً وبحثاً؛ لأن هوايته العلم وكان يقول إن راحتي في مزاولة عملي[4].

فصار المرض يعاوده ثم يشفى، ولا يصده عن الخروج، ويحدث معه رعده وسكه لا يقدر معها على الكلام وتبقى دقيقة واحدة ثم تزول بدون تألم سوى برد يتلوه عرق[5].

وفي شهر جمادي الآخرة سنة ١٣٧٦هـ اشتد عليه المرض أكثر مما كان وصار معه مثل البرد والقشعرية.

وفي ليلة الأربعاء ٢٢ من الشهر المذكور، وبعد فراغه من الدرس اليومي المعتاد، وبعد فراغه من صلاة العشاء، أحس بثقل وضعف في الحركة فأشار إلى أحد تلاميذه بأن يمسكه ويذهب معه إلى البيت ففعل وهرع معه أناس من الحاضرين، فلم يصل إلى البيت إلا وقد أغمي عليه، ثم أفاق بعد ذلك فحمد الله وأثنى عليه، وتكلم مع أهله والحاضرين بكلام حسن طيب، ثم عاوده الإغماء مرة أخرى فلم يتكلم بعد ذلك.

فلما أصبحوا صباح الأربعاء دعوا الطبيب فقرر أن معه نزيفاً في المخ، وإن لم يتدارك فوراً فإنه يموت.

فأبرقوا لابنه وللملك فيصل ـ لما كان وليا للعهد ـ فأصدر أمره الكريم عاجلاً

---

(١) روضة الناظرين للقاضى ٢٢٥/١، وآخر كتاب المختارات الجلية، طبعة المدني ص: ز.

(٢) علماء نجد للبسام ٤٢٩٢/٢، وروضة الناظرين للقاضى ٢٢٥/١ وغيرهما.

(٣) آخر كتاب المختارات الجلية طبعة المدني، ص: ز.

(٤) علماء نجد للبسام ٤٣٩/٢، روضة الناظرين للقاضى ٢٢٥/١، مشاهير علماء نجد لآل الشيخ / ٣٩٦. وغيرها.

(٥) روضة الناظرين للقاضى ٢٢٥/١.

بكل ما يلزم فقامت طائرة خاصة وفيها طبيب مخ ومهرة من الأطباء والعلاجات إلى مدينة عنيزة وكان فيها ابنه عبدالله.

ولكن الجو كان ملبداً بالغيوم والرعد والبرق والعواصف الشديدة، وفيه أمطار قد تتابعت أكثر من شهر، تهدمت منها البيوت ونزلت أخشاب سطوح المساجد، فلم يساعد الجو على هبوط الطائرة. فتلقت المكالمة وهي في الجو بوفاته فرجعت من حيث أتت.

حيث إنه توفي رحمه الله قبل طلوع فجر يوم الخميس الموافق **٢٣** جمادي الآخرة سنة **١٣٧٦**هـ، عن تسع وستين سنة[١].

وصُلي عليه بعد صلاة الظهر في الجامع الكبير، ودفن في مقابر الشهوانية شمال عنيزة[٢] وأخروا الصلاة عليه إلى الظهر لعل أحد أبنائه يدركه، فلم يدركه أحد منهم، وصلى عليه الشيخ عبدالعزيز بن محمد البسام. في حشد كبير لم يشهد له مثيل جمع أهل البلد قاطبه والقرى والمدن المجاورة[٣].

والحقيقة أن عنيزة منذ تأسست لم تصب عامة مثل مصيبتها به، وظهر ذلك في البكاء والحزن الشديد من كل المواطنين، كما ظهر في الازدحام الشديد على الجنازة التي لم يبق كبير ولا صغير لم يشهدها.

وبموته فقدت البلدة أعز وأغلى شخص يعيش فيها وأحس المواطنون بفراغ واسع بفقده، وحتى الآن وذكره في الألسن، ومحبته في القلوب وأحاديثه وارشاداته وفتاويه هي حديث المجالس وأنس المحافل رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته[٤].

وخلَّف ـ رحمه الله ـ ثلاثة أبناء وهم عبدالله ومحمد وأحمد، وهم يشتغلون بالتجارة بالرياض والدمام وعبدالله هو أكبرهم سناً وله يد في طلب العلم، وقد اعتنى بطبع بعض مؤلفات والده وتوزيعها مجاناً[٥]، وقد توفي عبدالله في **١٤٠٥/٤/٢٤**هـ في حادث سيارة غفر الله له ولوالديه و والدينا وجميع المسلمين.

ثامنا: رثاؤه:

وقد رثاه ـ رحمه الله ـ كثير من العلماء والأدباء بمراث عديدة نظماً ونثراً.

---

(١) روضة الناظرين للقاضي ٢٢٦/١، ومشاهير علماء نجد لآل الشيخ / ٣٩٦، ٣٩٧ وغيرهما.

(٢) علماء نجد للبسام ٤٢٩/٢.

(٣) روضة الناظرين للقاضي ٢٢٧/١.

(٤) علماء نجد للبسام ٤٢٩/٢، ٤٣٠.

(٥) علماء نجد للبسام ٤٣٠/٢.

أ - فمن القصائد التي قيلت في رثائه قصيدة طويلة للدكتور عبدالله بن صالح العثيمين منها:

مهج تذوب وأنفس تتحسر ... ولظى على شغف القلوب تسعر
الحزن أضرم في الجوانح والأسى ... يصلي المشاعر بالجحيم ويصهر
ملأ الضمائر حسرة وكآبة ... لا شيء يبرئها ولا هي تجبر
اليوم ودعنا أباً ومهذباً ... والحزن يغلي في الدماء ويزخر
كل امرىء في الكون غايته الردى ... والموت حتم للنفوس مقدر
لكن من اتخذ الصلاح شعاره ... تفنى الخليقه وهو حي يذكر
ما مات من نشر الفضيلة والتقى ... وأقام صرحا أسه لا يكسر
ما مات من غمر الأنام بعلمه ... الكتب تشهد والصحائف تخبر
يا زاهدا عرف الحياة فما هوى ... في المغريات ولا سباه المظهر
نم في جنان الخلد ياعلم التقى ... وانعم بظل وارف لا يحسر[1]

ب - ومن هذه القصائد، قصيدة للشيخ صالح بن عبدالعزيز العثيمين منها:

رزء عظيم أثار الحزن والأسفا ... فالدمع فيه على الخدين قد وكفا
اليوم حقا فقدنا للهدى علما ... اليوم حقا فقدنا الزهد والشرفا
بقت عنيزة دهراً وهي رافعة ... لواء فخر له كل الورى عرفا
ظلت به العرب دهراً وهي فاخرة ... واليوم أضحت تعزى فيه وأسفا
فذى تصانيفه قد قام قائمها ... يدعو العباد عليها الكل قد عكفا
لهفي بذا العالم قد حق العزاء لنا ... في فادح لو أصاب الطود لارتجفا
فالله يلهمنا صبرا فقد عظمت ... مصيبة أثقلت في حملها الكتفا
والله يجزيه عن احسانه حسنا ... والله يسكنه من جنة غرفا[2]

جـ - وقد رثى رحمه الله بقصائد أخرى منها مرثيه للشيخ محمد بن عثمان القاضي، ومرثيه للشيخ صالح بن عبدالله الشبل، وقصيده في الثناء عليه لمزيد الخطيب وغيرهم.[3]

---

(١) روضة الناظرين للقاضي ١/٢٢٧، وعلماء نجد للبسام ٢/٢٩٩.

(٢) روضة الناظرين للقاضي ١/٢٢٨، سيرة الشيخ السعدى جمع محمد حامد الفقي / ٢٩.

(٣) روضة الناظرين للقاضي ١/٢٢٧، وسيرة الشيخ عبدالرحمن السعدى جمع محمد حامد الفقي / ٢٦.

د ـ قال الشيخ القاضي في روضة الناظرين: (ولقد حدثني من أثق به بأن الشيخ سليمان المشعلي وكان عالماً جليلاً وقاضياً مسدداً لما علم بوفاة الشيخ، قال مات اليوم عالم نجد، وقد طاب الموت بعد هذه الشخصية الفذة، فانصدع ومات في ١٢ من رجب بعد وفاة السعدي بتسعة عشر يوماً وكان من خواصه).[1]

---

(١) روضة الناظرين ١/٢٢٧.

الفصل الثاني
حياته العلمية

وفيه ثمانية مباحث:

أولا : طلبه للعلم وحرصه عليه.

ثانيا : شيوخه.

ثالثا : عنايته بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم وتأثره بهما.

رابعا : جلوسه للتدريس، وطريقته فيه.

خامسا : تلاميذه.

سادسا : عقيدته وتنوع ثقافته.

سابعا : مؤلفاته.

ثامنا : ثناء العلماء عليه.

أولاً: طلبه للعلم وحرصه عليه:

كان ابن سعدى ـ رحمه الله ـ قد استرعى أنظار الناس منذ حداثة سنه بذكائه القوي، ورغبته الشديدة في طلب العلم وتحصيله، فأوقف لذلك حياته في طلب العلم، فكان لا يشغله عنه شاغل ولا يصرفه عنه صارف، فكان همه في حياته الاستفادة العلمية وحفظ الأوقات في ذلك[1].

لقد أجمع أمره على أن يقف حياته على طلب العلم، وأن يعطي نفسه أمناً وطمأنينه وسكينة خاصة، تصل برباطها الوثيق بينه وبين الأمر الذي أوقف حياته عليه.

فتراه إذ ذاك في وادٍ، وأغلب ناشئه عصره من زملائه وأترابه في واد آخر. إنه ارتضى العلم والمعرفة خدينا وأليفا، ولم يرق في نظره من رجال زمنه سوى طبقة العلماء. فلازمهم ملازمة الظل. وأكب على الاغتراف من معين علمهم وفضلهم وأخلاقهم، فتغذى أطيب غذاء، وروى أكرم ري[2].

وأول ما قام به من طلب العلم، مبادرته لحفظ كتاب الله، فبدأ بحفظ القرآن من سن مبكره، حتى أتقنه وأتمه وحفظه عن ظهر قلب في الحادية عشره من عمره، في مدرسة الشيخ سليمان بن دامغ لتحفيظ القرآن بأم خمار، ثم شرع بعد ذلك في تحصيل سائر العلوم الشرعية[3].

فأخذ في طلب العلم وتحصيله وتلقيه عن علماء بلده وغيرهم ممن قدم إليه، وشغل أوقاته في ذلك، ورحل إلى العلماء المجاورين لبلده، وانقطع للعلم وتحصيله حفظاً وفهماً ودراسة ومراجعة واستذكاراً وتطبيقاً.

وكان يواظب على دروس العلماء، وعلى من يشعر أنه له منه أدنى فائدة طارحاً التحيز والترفع، وواصل وثابر، وبذل جهده في سبيل ذلك حتى نال في صباه ما لا يناله غيره في زمن طويل، من علوم كثيرة وفنون مختلفة[4].

---

(١) مقدمة كتاب الرياض الناصرة بقلم أحد تلاميذ الشيخ / ٤.

(٢) سيرة الشيخ عبدالرحمن السعدى، جمع الفقي، بقلم أحد تلاميذ الشيخ / ٧.

(٣) روضة الناظرين للقاضى ١/٢٢٠، وسيرة الشيخ السعدى جمع الفقي، بقلم عبدالله السعدى (ابن المترجم له) / ١٨.

(٤) علماء نجد للبسام ٢/٤٢٣، ومقدمة الرياض الناصرة بقلم أحد تلاميذ الشيخ / ٤، وآخر المختارات الجلية طبعة المدني بقلم السناني / أ.

ولم يقتصر في طلبه للعلم على فن واحد، بل قرأ في فنون كثيرة فقرأ في الحديث والتفسير والعقائد والفقه والأصول والمصطلح وعلوم اللغة وغيرها وهذا سيظهر لنا عند ذكر شيوخه، وما تلقاه عنهم.

ثانيا: شيوخه:

لقد تلقى الشيخ أنواع العلوم على كثير من العلماء، بعضهم من عنيزة وبعضهم من الوافدين إليها، وبعضهم ذهب إليهم في بلادهم.

وذكرهم جميعهم يصعب، ولكن فيما يلي أذكر جملة منهم مع إعطاء نبذة بسيطة عنهم[1]، وعن نوع استفادته من كل واحد منهم، وتجدر الإشارة إلى أنه كان رحمه الله محل إعجاب مشائخه كلهم بفرط ذكائه ونبله واستقامته[2].

فمن شيوخه:

١ - الشيخ إبراهيم بن حمد بن محمد بن جاسر، ولد في بريدة سنة **١٢٤١**هـ، وتوفي في الكويت سنة ١٣٣٨هـ[3].

وهو أول من قرأ عليه الشيخ وأخذ عنه التفسير والحديث وأصولهما[4]. وكان ابن سعدى يصف شيخه بحفظ الحديث والورع والزهد ومحبة الفقراء ومواساتهم[5].

٢ - والشيخ محمد بن عبدالكريم بن إبراهيم بن صالح الشبل. ولد في عنيزة سنة: **١٢٥٧**هـ، وتوفى سنة **١٣٤٣**هـ[6]، وأخذ عنه الفقه وأصوله وعلوم اللغة العربية[7].

---

(١) ومن رغب الاستزادة في معرفة هؤلاء الأعلام فليراجع المصادر المحال إليها في الحاشية عند كل علم مترجم له.

(٢) روضة الناظرين للقاضى ١/ ٢٢٠.

(٣) علماء نجد للبسام ١/١٠٢، وروضة الناظرين للقاضى ١/ ٤١، وعلماء آل سليم للعمري ٢/ ٢٠٣.

(٤) علماء نجد للبسام ٢/٤٢٥، ومشاهير علماء نجد لآل الشيخ / ٣٩٢،

(٥) مقدمة الرياض الناضرة بقلم أحد تلاميذ الشيخ / ٥.

(٦) علماء نجد للبسام ٣/٨٤٣، وروضة الناظرين للقاضى ٢/ ٢٢٧، وعلماء آل سليم للعمري ٢/ ٤٦٩.

(٧) علماء نجد للبسام ٢/ ٤٣٥.

٣ - والشيخ عبدالله بن عائض العويضي الحربي، ولد في عنيزة سنة: ١٢٤٩هـ، وتوفى سنة ١٣٢٢هـ[١].
وأخذ عنه الفقه وأصوله وعلوم اللغة[٢].

٤ - والشيخ صالح بن عثمان بن حمد بن إبراهيم القاضى، ولد في عنيزة سنة: ١٢٨٢هـ. وتوفى سنة: ١٣٥١هـ[٣].
أخذ عنه التوحيد والتفسير والفقه أصوله وفروعه وعلوم العربية، وهو أكثر من قرأ عليه الشيخ ولازمه ملازمة تامة حتى توفاه الله[٤].
وكان هو الذي يقرأ على الشيخ في الدرس والشيخ يقرر على قراءته، بدأ القراءة على الشيخ بعد وفاة عبدالعزيز الغرير، الذي كان يقرأ على الشيخ، وكان ابن سعدى له صوت حسن رخيم لا يمله سامعه[٥].

٥ - والشيخ محمد بن عبدالله بن حمد بن محمد بن سليم، ولد في بريدة، سنة: ١٢٤٠هـ وتوفى فيها سنة ١٣٢٣هـ[٦].
رحل له الشيخ في بريدة وأخذ عنه التوحيد وغيره[٧].

٦ - والشيخ على بن ناصر بن محمد أبو وادى، ولد في عنيزة سنة: ١٢٧٣هـ، وتوفى سنة: ١٣٦١هـ[٨].
وأخذ عنه الحديث، الأمهات الست وغيرها، وأجازه في ذلك. وأخذ عنه التفسير وأصوله، وأصول الحديث[٩].

---

(١) علماء نجد للبسام ٢/٥٦١، ومقدمة الرياض الناضرة بقلم أحد تلاميذ الشيخ / ٥،
(٢) علماء نجد للبسام ٢/٤٢٥، وروضة الناظرين للقاضى ١/٢٢٠.
(٣) علماء نجد للبسام ٢/٣٦٧، وروضة الناظرين للقاضى ١/١٥٢، وعلماء آل سليم للعمري ٢/٢٦٥، ومشاهير علماء نجد لآل الشيخ / ٣٣١.
(٤) سيرة الشيخ عبدالرحمن السعدى جمع الفقي بقلم ابن الشيخ / ١٩، وملحق النعت الأكمل للعامري / ٤٢٨.
(٥) روضة الناظرين للقاضى ١/٢٢٠.
(٦) علماء نجد للبسام ٣/٨٧٢، وروضة الناظرين للقاضى ٢/٢١١.
(٧) علماء نجد للبسام ٢/٢٣٥، وعلماء آل سليم وتلامذتهم للعمري ٢/٢٩٥.
(٨) علماء نجد للبسام ٣/٧٣٨، وروضة الناظرين للقاضى ٢/١١٤، وعلماء آل سليم للعمري ٢/٤١٩.
(٩) علماء نجد للبسام ٢/٤٢٥، وسيرة عبدالرحمن السعدى جمع الفقي بقلم ابن الشيخ / ١٩. ومقدمة الرياض الناضرة بقلم أحد تلاميذ الشيخ / ٦.

٧ - والشيخ إبراهيم بن صالح بن إبراهيم بن محمد بن عيسى القحطاني ولد في عنيزة سنة: ١٢٧٠هـ وتوفى بالرياض سنة: **١٣٤٣**هـ[١].
وأخذ عنه أصول الدين[٢].

٨ - والشيخ محمد بن عبدالعزيز بن محمد بن عبدالله بن مانع.
ولد في عنيزة سنة: **١٣٠٠**هـ، وتوفى في بيروت سنة: **١٣٨٥**هـ ونقل جثمانه إلى قطر وصلى عليه ودفن فيها[٣].
وأخذ عنه علوم اللغة العربية[٤].

٩ - والشيخ صعب بن عبدالله بن صعب التويجرى، ولد في بريدة سنة: **١٢٥٣**هـ، وتوفى سنة: **١٣٣٩**هـ[٥].
أخذ عنه الفقه وأصوله[٦]، عندما رحل من بريدة إلى عنيزة وجلس فيها للتدريس[٧].

١٠ - والشيخ على بن محمد بن إبراهيم بن محمد السناني، ولد في عنيزة سنة: **١٢٦٦**هـ، وتوفى سنة: **١٣٣٩**هـ[٨].
وأخذ عنه أصول الدين[٩].

١١ - والشيخ محمد الأمين محمود الشنقيطي، ولد في مدينة شنقيط في موريتانيا سنة: **١٢٨٩**هـ. وتوفي في الزبير في صباح الجمعة **١٤** جمادي الثانية، سنة: **١٣٥١**هـ[١٠].

---

(١) علماء نجد للبسام ١/١١٧، وروضة الناظرين ١/٤٤، ومشاهير علماء نجد لآل الشيخ / ٢٨٥.
(٢) روضة الناظرين للقاضى ١/٢٢٠.
(٣) علماء نجد للبسام ٣/٨٢٧، وعلماء آل سليم للعمرى ٢/٤٥٩.
(٤) علماء نجد للبسام ٢/٤٢٥، وروضة الناظرين للقاضى ١/٢٢٠.
(٥) علماء نجد للبسام ٢/٣٧٩، وروضة الناظرين للقاضى ١/١٥٠، وعلماء آل سليم للعمرى ٢/٢٧٦.
(٦) علماء نجد للبسام ٢/٤٢٥.
(٧) علماء آل سليم للعمري ٢/٢٩٥.
(٨) علماء نجد للبسام ٣/٧٣٣، وروضة الناظرين للقاضى ٢/١٠٩، وعلماء آل سليم للعمرى ٢/٤٠٤.
(٩) علماء نجد للبسام ٢/٤٢٥، وروضة الناظرين للقاضى ١/٢٢٠.
(١٠) انظر ترجمته في كتاب «من أعلام الفكر الإسلامي في البصرة، الشيخ محمد أمين الشنقيطي» لعبد اللطيف التليشي الخالدي، ط ـ مؤسسة المطبوعات العربية، بيروت.

قرأ عليه الشيخ ابن سعدى لما قدم إلى عنيزة وجلس فيها للتدريس سنة: ١٣٣٠هـ. وأخذ عنه التفسير والحديث ومصطلح الحديث وعلوم العربية كالنحو والصرف وغيرهما[١]. وأخذ عنه إجازه بالرواية[٢].

ثالثا: عنايته بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية وتأثره بهما:

لقد عني الشيخ ابن سعدى بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وكتب تلميذه ابن القيم عناية بالغة، فأكب عليها مطالعة واستذكاراً وحفظاً وفهماً وتلخيصاً وشرحاً. وكان أعظم اشتغاله بها، ولازمها ملازمة تامة طيلة حياته، فتتلمذ بذلك على كتبهما، وحصل له بسبب ذلك انتفاعٌ كبيرٌ، وخيرٌ عظيمٌ.

ولكي يبرز لنا مقصود هذا البحث أقول: إن تأثر الشيخ ابن سعدى بشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم يظهر من نواح متعددة:

أ- اجمع كل من ترجم له من تلاميذه وغيرهم على عنايته بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وحثه الدائم لتلاميذه بالعناية بها.

يقول الشيخ محمد بن عثمان القاضي: (ولقد أكب بالمطالعة على كتب الفقه والحديث طيلة حياته خصوصا على كتب الشيخين، فقد كانت له صبوحا وغبوقا)[٣].

ويقول ابن الشيخ المترجم له عبدالله: (وكان أعظم اشتغاله وانتفاعه بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وحصل له خير كثير بسببها في علم الأصول والتوحيد والتفسير والفقه وغيرها من العلوم النافعة)[٤].

ويقول أحد تلاميذ الشيخ: (وكان يتعلم ويعلم ويقضي أوقاته في ذلك، وفي الإكباب على مطالعة مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ومؤلفات تلميذه ابن القيم بتمعن وتفهم فانتفع بهذه المؤلفات غاية الانتفاع)[٥] والنقول في ذلك كثيرة.

---

(١) مقدمة الرياض الناضرة بقلم أحد تلاميذ الشيخ / ٦. ومشاهير علماء نجد لآل الشيخ / ٣٩٢.

(٢) آخر المختارات الجلية - طبعة المدني، بقلم السناني / ب.

(٣) روضة الناظرين ١ / ٢٢٠.

(٤) سيرة الشيخ عبدالرحمن السعدى جمع محمد الفقي بقلم عبدالله بن ناصر السعدى / ٢١، وانظر مقدمة الرياض الناضرة / ٧.

(٥) آخر المختارات الجلية طبعة السعيدية بقلم أحد تلاميذ الشيخ / ٤١١، ومشاهير علماء نجد لآل الشيخ ٣٩٣، وانظر أيضا آخر المختارات الجلية طبعة المدني بقلم السناني / ج، وسيرة الشيخ عبدالرحمن السعدى جمع الفقي. بقلم أحد تلاميذ الشيخ / ١٠.

ب ـ ثناؤه الدائم عليهما وعلى مؤلفاتهما في كتبه:

قال رحمه الله في كتابه طريق الوصول: (إن كتب الإمام الكبير شيخ الإسلام والمسلمين: تقي الدين أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام ابن تيمية، قدس الله روحه، جمعت فأوعت: جميع الفنون النافعة والعلوم الصحيحة، وجمعت علم الأصول والفروع وعلوم النقل والعقل، وعلوم الأخلاق والآداب الظاهرة والباطنة، وجمعت بين المقاصد والوسائل. وبين المسائل والدلائل، وبين الأحكام وبين حكمها وأسرارها، وبين تقرير المذهب الحق والرد على جميع المبطلين، وامتازت على جميع الكتب المصنفه بغزارة علمها وكثرته وقوته، وجودته وتحقيقه، بحيث يجزم من له اطلاع عليها وعلى غيرها أنها لا يوجد لها نظير يساويها أو يقاربها)[1].

وقال في الكتاب نفسه: (وقد سلك شمس الدين ابن قيم الجوزية مسلك شيخه، بالتحقيق للعلوم الأصولية والفروعية والظاهرة والباطنة. وكان أعظم من انتفع بشيخ الإسلام، وأقومهم بعلومه وأوسعهم في العلوم النقلية والعقلية)[2].

وقال في المواهب الربانية: (. . . . ولا يخفى لطف الباري في وجود شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في أثناء قرون هذه الأمة، وتبيين الله به وبتلامذته من الخير الكثير والعلم الغزير، وجهاد أهل البدع، والتعطيل والكفر، ثم انتشار كتبه في هذه الأوقات، فلا شك أن هذا من لطف الله لمن انتفع بها، وأنه يتوقف خير كثير على وجودها فلله الحمد والمنه والفضل)[3].

وللشيخ ابن سعدى قصيدة نونية تتكون من ثلاثين بيتا نظمها في مدح شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ومؤلفاتهما منها:

يا طالبا لعلوم الشرع مجتهدا ... يبغي انكشاف الحق والعرفان
احرص على كتب الامامين اللذيـ ... ـن هما المحك لهذه الأزمان
العالميـن العامليـن الحافظيـ ... ـن المعرضين عن الحطام الفاني
عاشا زمانا داعيين إلى الهدى ... من زائغ ومقلد حيران
أعني به شيخ الورى وإمامهم ... يعزى إلى تيمية الحران
والآخر المدعو بابن القيم ... بحر العلوم العالم الرباني

---

(١) طريق الوصول / ٣.

(٢) المصدر السابق / ٣٠٣ بتصرف.

(٣) المواهب الربانية / ٧٣.

فهمـــا اللذان قد أودعـــا في كتبهـــم — غـــرر العـــلوم كثيـــرة الألـــوان
فيهـــا الفوائـــد والمسائـــل جمعـــت — مـــن كـــل فاكهـــة بهـــا زوجـــان
إن رمـــت معرفـــة الإلـــه ومالـــه — مـــن وصفـــه وكمالـــه الربانـــي
أو رمـــت تفسيـــر الكتـــاب وما حـــوى — مـــن كثـــرة الأســـرار والتبيـــان
أو رمـــت معرفـــة الرسول حقيقـــة — وجلالـــة المبعـــوث بالفرقـــان
أو رمـــت فقـــه الديـــن مرتبطاً به — أصـــل الدليـــل أدلـــة الاتقـــان
أو رمـــت معرفـــة القصائـــد كلهـــا — للمبطليـــن وردهـــا ببيـــان
أو رمـــت معرفـــة الفنون جميعها — مـــن نحوهـــا والطـــب للأبـــدان
تلـــق الجميـــع مقـــرراً وموضحـــاً — قـــد بيناهـــا أحســـن التبيـــان[1]

إلى آخر هذه القصيدة، وهي دقيقة في وصف هذين العالمين وغزارة علمهما وتنوعه.

جـ ـ تأثره بهما في إسلوبه في الكتابة وفي تقريره للمسائل، وتأصيله للقواعد، وردوده على المنحـرفين، وكثرة نقله واقتباسه من أقوالهما كما سيظهر جليا عند عرض جهوده في العقيدة، إذ سيتبين للقارىء أن معظم كلامه في الرد على المخالفين أو في تأصيل القواعد مستفاد من كلام شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم، وذلك لشدة عناية الشيخ بمؤلفاتهما القيمة النافعة.

د ـ عنايته بالتأليف حول كتب شيخ الإسلام، وكتب تلميذه ابن القيم فله عدة مؤلفات تدور حول كتب هذين العالمين إما شرحاً وتوضيحاً أو نثراً أو تلخيصاً، منها:

١ ـ كتاب توضيح الكافية الشافية، نثر فيه نونيه ابن القيم.
٢ ـ الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية، وهو أيضاً حول نونية ابن القيم حيث شرح الأبيات المتعلقة بتوحيد الأنبياء والمرسلين من النونية.
٣ ـ الدرة البهية في شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية وكما يظهر من عنوانه فهو شرح لتائية ابن تيمية في الرد على القدرية.
٤ ـ التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنفية علق فيه على العقيدة الواسطية لابن تيمية.
٥ ـ طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول وهذا الكتاب

---

(١) الفتاوي السعدية / ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٧٥.

من أبرز كتبه الدالة على شدة عنايته بكتب ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، وهذا يظهر لنا من ناحيتين.

الناحية الأولى: سبب تأليف الكتاب، إذ أنه ألفه رحمه الله ليكون بديلاً لأحد كتب ابن تيمية، بحث عنه كثيراً فلم يجده، يقول في مقدمة الكتاب مبينا سبب تأليفه له: (ولشيخ الإسلام كتاب يقال له «قواعد الاستقامة» طالما بحثنا عنه لتحصيله من مظانه، فلم يتيسر، لكثرة فوائده.

وإني أرجو أن يكون ما جمعته في هذا المجموع من كلامه في الأصول والقواعد مغنياً عن ذلك الكتاب، ومتضمنا زيادات كثيرة لا توجد فيه ولا في غيره. . . . . . .)[1].

والناحية الثانية: مادة هذا الكتاب، فهو عبارة عن أكثر من ألف قاعدة، وأصل، وضابط، وتعريف استخرجها من أكثر من ستين كتاباً من كتب شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم، بعد قراءة متأنيه في هذه الكتب قال رحمه الله في آخر الكتاب:

(. . . وجملة ذلك. أن هذا المجموع قد انتقيته بعد التروي الكثير وكثرة التأمل والتفكير من جميع الكتب الموجودة من كتب الشيخين فتضمن صفوتها، احتوى على جواهرها وغررها، والحمد لله والفضل لله)[2] ولا أدل وأوضح من ذلك على عنايته بكتبهما.

هذا وإن المقصود من كل ما تقدم إبراز عناية الشيخ ابن سعدى بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، وقد بان المقصود، وحصل بحمد الله المنشود.

رابعا: جلوسه للتدريس، وطريقته فيه:

لقد بذل ابن سعدى أكثر جهده، ومعظم وقته في طلب العلم وتحصيله، فلازم العلماء وأكب على كتب العلم، فلا يصرفه عن حلق الذكر ومجالس العلم وقراءة الكتب صارف، ولا يرده عنها راد، حتى أناله الله من العلم حظاً وفيراً، وقدراً كبيراً، فعلا

---

(١) طريق الوصول / ٤. فائدة: وقد طبع الكتاب قريباً بتحقيق محمد رشاد سالم بمطبعة جامعة الإمام محمد بن سعود، وهو ليس كما فهم الشيخ ابن سعدى من عنوانه من أنه عبارة عن سرد لقواعد وأصول تحصل بها الاستقامة، فقد تأملت الكتاب بعد طبعه فوجدته يدور حول الحث على اتباع السنة والتحذير من البدعة والرد على المبتدعة، وليس فيه سرد للقواعد والضوابط والأصول.

(٢) طريق الوصول / ٤٣٥.

قدره، وعظم شأنه، وظهر تفوقه، وذاع صيته.

فأقبل عليه طلاب العلم من عنيزة وما جاورها من المدن، ورغبوا في دروسه وحرصوا على الاستفادة منه[1].

حتى إن زملاءه في الدراسة لما رأوا تفوقه عليهم ونبوغه، تتلمذوا عليه وصاروا يأخذون عنه العلم وهو في سن مبكر، فصار وهو في شبابه معلماً ومتعلماً[2].

وقد كان أول جلوسه للتعليم في الثالثة والعشرين من عمره، ففي هذه السن جلس في حلقة التدريس يعطي الدروس للطلاب، وجد في تعليمهم واجتهد. يعلم زملاءه ومن يريد العلم ويطلبه، وكان يحرص على التعليم كحرصه على التعلم.

فجمع بذلك بين طلب العلم والتعليم، ورتب أوقاته في ذلك، فكان يقضي بعض أوقاته في القراءة على العلماء، وبعضها يجلس للتلاميذ يعلمهم، وبعضها في مراجعة الكتب والبحث فيها، ولا يفوّت من أوقاته شيئاً إلا وقد رتبه[3].

فبلغ الذروة في علوم الحديث والفقه والتفسير، حتى إنه منذ عام ١٣٥٠هـ صار مرجع التدريس ومرجع الافتاء في بلده وما حولها من القرى وأصبح المعول لدى جميع الطلاب في أخذ العلوم[4].

أما عن تنظيمه لأوقاته في التعليم؛ فقد كان يجلس أربع جلسات في اليوم الواحد، فكان إذا صلى الفجر بالناس جالس لاداء الدرس حتى تطلع الشمس، ثم يذهب بعد ذلك إلى بيته حتى الضحوة الكبرى فيعود إلى المسجد يعلم أبناءه الطلاب الفقه والتفسير والحديث والعقيدة والنحو والصرف في دروس منتظمة، ويستمر معهم حتى صلاة الظهر، فيصلي بالناس ويعود إلى بيته يستريح فيه إلى صلاة العصر، ثم يذهب إلى المسجد فيصلي العصر بالناس، ويعطيهم عقب الصلاة وهم جلوس بعض الأحكام الفقهيه في دقائق لا تؤخرهم عن الانصراف سعيا وراء أرزاقهم، وعندما تغرب الشمس يصلي بالناس صلاة المغرب ويجلس للدرس حتى يصلي العشاء، ويتكرر ذلك يوميا[5].

---

(١) علماء نجد للبسام ٤٢٣/٢.

(٢) آخر كتاب المختارات الجلية طبعة المدني، بقلم السناني / ب، وانظر سيرة الشيخ عبدالرحمن السعدى، جمع الفقي، بقلم أحد تلاميذ الشيخ / ١٠.

(٣) سيرة الشيخ عبدالرحمن السعدى جمع الفقي بقلم أحد تلاميذ الشيخ / ١٠. وانظر مقدمة الرياض الناضرة بقلم أحد تلاميذ الشيخ / ٤.

(٤) روضة الناظرين للقاضى ٢٢٣/١.

(٥) مجلة الجامعة الإسلامية، س: ١١، ع: ٤، ص: ٢٠٥ بقلم الشيخ عبدالرحمن العدوى.

أما عن طريقته في التعليم وحرصه على نفع طلابه، فقد كان رحمه الله من أحسن الناس تعليماً وأبلغهم تفهيماً وأفضلهم تبييناً، وذلك؛ لأن طريقته في التعليم امتازت بصفات كثيرة هامة، جعلت طلابه يتلذذون بدروسه ويواظبون عليها.

ومن أبرز هذه الصفات:-

١ - أنه يستشير تلاميذه في اختيار الكتاب الأ ع من كتب الدراسة، ويرجح ما عليه رغبة أكثرهم، وعند التساوي يكون هو لحكم في الترجيح[١].

٢ - يخصص المكافآت لمن يحفظ المتون من طلا ، تشجيعا لهم، وحفزاً لزملائهم[٢].

٣ - يقيم المناظرات بين طلابه المحصلين لشحذ أفكارهم، وصقل أذهانهم، وتعويدهم إقامة الحجة والبرهان[٣].

٤ - يطرح المسائل على الطلاب ليختبر أذهانهم، ويعتمد أحياناً تغليط نفسه أمامهم ليرى من هو حاضر الذهن ممن هو شارده، وليعرف الفطن من غيره[٤].

٥ - عند ذكره للمسائل الخلافية، فإنه يقرر القول الراجح بأدلته، ثم يذكر القول الآخر بأدلته ثم يوسط نفسه حكماً في المسأله، وقد يستطرد بذكر نظائر المسألة، كل ذلك بفصاحة وبلاغة بديهية[٥].

٦ - يجمع الطلاب كلهم على كتابين واحد بعد آخر، وبعد انتهاء الجلسة يطلب من ثلاثة منهم إعادة ما يستحضره من التقرير، ويدور عليهم ليختبر قوة حفظهم وفهمهم[٦].

٧ - يناقشهم بعد يوم فيما مضى شرحه، مما كان يدفع الطلاب على الحرص على الاستذكار وتثبيت المعلومات[٧].

---

(١) روضة الناظرين للقاضي ١/٢٢٤، مقدمة الرياض الناضرة بقلم أحد تلاميذ الشيخ / ٧.

(٢) روضة الناظرين للقاضي ١/٢٢٢، وسيرة الشيخ عبدالرحمن السعدى جمع الفقي بقلم أحد تلاميذ الشيخ / ١٢.

(٣) سير الشيخ عبدالرحمن السعدى جمع الفقي بقلم ابن الشيخ / ٢٠، وروضة الناظرين للقاضي ١/٢٢٤.

(٤) روضة الناظرين للقاضي ١/٢٢٢.

(٥) روضة الناظرين للقاضي ١/٢٢٢، ٢٢٤.

(٦) روضة الناظرين للقاضي ١/٢٢٢.

(٧) روضة الناظرين للقاضي ١/٢٢٢.

٨ ـ يحرص على طلابه حرصاً تاماً، ويتفقدهم عند غيابهم تفقداً دقيقاً مما كان يجعل تلاميذه يراعون المواظبة لملاحظته وعدم غفلته[١].

٩ ـ ومع ذلك كله كان يلاطفهم ويداعبهم تحبيبا لهم في طلب العلم[٢].

ولهذا فإنه قد انتفع بعلمه خلق كثير، وتخرج على يديه عدد كبير من طلبة العلم البارزين المحصلين، أجزل الله له المثوبة، ورحمه الرحمة الواسعة.

خامساً: تلاميذه:-

وقد أخذ عنه العلم خلق كثير يصعب حصرهم، منهم:-

١ ـ الشيخ محمد بن صالح العثيمين. خلف شيخه في إمامة الجامع بعنيزة، وفي التدريس والوعظ والخطابة.

٢ ـ والشيخ عبدالله بن عبدالرحمن البسام. عضو هيئة التمييز بالمنطقة الغربية.

٣ ـ والشيخ عبدالله بن عبدالعزيز العقيل. عضو الهيئة القضائية العليا في وزارة العدل.

٤ ـ والشيخ عبدالله بن محمد المطرودي ـ يقال إنه كان يحفظ صحيح البخاري بأسانيده.

٥ ـ والشيخ عبدالعزيز بن محمد السلمان، درّس في معهد إمام الدعوة بالرياض، وسلك طريقة شيخه بالتأليف.

٦ ـ والشيخ محمد بن عبدالعزيز المطوع تولى القضاء في المجمعة وفي عنيزة وتوفى في ١٣٨٧/٧/١٨هـ.

٧ ـ والشيخ سليمان بن إبراهيم البسام، كان فقيها، درس في المعهد العلمي بعنيزة، وعين قاضيا فرفض وتوفي في ١٣٧٧/٣/١٤هـ.

٨ ـ والشيخ محمد بن منصور الزامل، درس بمعهد عنيزة العلمي.

٩ ـ والشيخ عبدالله بن محمد الزامل، درس في معهد عنيزة العلمي، وهو من أبرز علماء نجد بالنحو.

١٠ ـ والشيخ عبدالله بن حسن آل بريكان، درس في معهد عنيزة العلمي.

---

(١) روضة الناظرين للقاضي ١/٢٢٢.

(٢) آخر المختارات الجلية ـ طبعة المدني بقلم السناني / ج.
يقول الشيخ محمد الصالح العثيمين، وكان أحياناً يلقي ما فيها الدعابة على طلابه الصغار، ومن ذلك أنه سأل مرة أحد الطلبة عن الشاة إذا لم يكن لها ثنايا من فوق حين كان يشرح في باب الأضحية على قول الفقهاء: (إن ما سقطت ثناياه لا يضحى به).

١١ - والشيخ عبدالله بن محمد العوهلي، درس بمعهد مكه العلمي.
١٢ - والشيخ محمد بن صالح الخزيم. عين قاضياً في الرس ثم في المذنب ثم في عنيزة، وتوفي.
١٣ - والشيخ عبدالرحمن بن محمد المقوشي، عين قاضيا بالرياض ثم بالقويعية ثم أحيل إلى التقاعد لرغبته. وتوفي.
١٤ - والشيخ حمد بن محمد البسام درس بالمعهد العلمي بعنيزة ثم درس في جامعة الإمام محمد بن سعود فرع القصيم، وكان هو القارىء على الشيخ في الدرس.
١٥ - والشيخ إبراهيم بن عبدالعزيز الغرير إمام مسجد الجديدة بعنيزة، توفي.
١٦ - والشيخ عبدالله بن عبدالعزيز الخضيري عين قاضياً بعفيف ثم صار مدرساً بمعهد المدينة المنورة العلمي، توفي.
١٧ - والشيخ حمد بن إبراهيم القاضي. صار مدير احدى المدارس بعنيزة - توفي.
١٨ - والشيخ عبدالله بن محمد الفهيد. إمام مسجد القاع في عنيزة. توفي.
١٩ - الشيخ سليمان بن صالح البسام. من أعيان عنيزة. توفي.
٢٠ - والشيخ عبدالله بن محمد الصيخان. كان قوى الحفظ - كفيفاً. وتوفي شاباً.
٢١ - والشيخ عبدالرحمن بن عبدالعزيز الزامل. كان له عناية بالتاريخ والأنساب - توفي.
٢٢ - والشيخ عبدالعزيز بن محمد البسام. كان ينوب عن الشيخ في إمامة الجامع، وفي الخطابة إذا سافر.
٢٣ - والشيخ عبدالعزيز بن علي المساعد. إمام مسجد الصويطي بعنيزة.
٢٤ - والشيخ سليمان بن عبدالرحمن الدامغ. إمام مسجد الخريزة بعنيزة.
٢٥ - والشيخ عبدالله بن عبدالرحمن السعدي. ابن الشيخ وكان ذا عناية بطبع مؤلفات والده، توفي.
٢٦ - والشيخ محمد بن صالح الفضيلي، كان قاضياً في تيماء، توفي.
٢٧ - والشيخ يوسف بن عبدالعزيز الخرب. حفظ القرآن، وكان مشهوراً بكتابة الوثائق والمبايعات في عنيزة، وكان يقارىء الشيخ القرآن كل يوم طيلة حياته.
٢٨ - والشيخ علي بن محمد الصالحي. صاحب مطبعة النور، وكان الشيخ قد وكل إليه تدريس صغار الطلبة سنة: ١٣٦٠هـ.
٢٩ - والشيخ إبراهيم بن محمد العمود. كان قاضياً في جيزان ثم في الرياض، والشيخ خاله. توفي.

٣١ ـ والشيخ سليمان بن محمد الشبل، درس في المدرسة العزيزية الإبتدائية في عنيزة ـ توفي.

٣١ ـ والشيخ حمد بن محمد المرزوقي. درس في معهد النور.

٣٢ ـ والشيخ محمد بن عبدالرحمن الحنطي. كان قاضياً في الدرعية.

٣٣ ـ والشيخ محمد بن عثمان القاضى. إمام جامع في عنيزة وقيم مكتبة الصالحية في عنيزة.

٣٤ ـ والشيخ عبدالرحمن العقيل. كان قاضياً في جيزان ـ توفي.

٣٥ ـ والشيخ محمد بن سليمان البسام. درس في المسجد الحرام فترة وجيزة.

وغيرهم خلق كثير[(١)].

سادساً: عقيدته وتنوع ثقافته:ـ

لقد نهج ابن سعدى في العقيدة منهج السلف الصالح، واقتفى آثارهم، وترسم خطاهم، وذلك بتلقي العقيدة وأخذها من منبعها الأصيل كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وفهم السلف الصالح، لا بالأهواء والتشهي، والبدع والظنون الفاسدة.

ومن تأمل كتبه وسبرها عرف شدة عنايته بهذه العقيدة، وحرصه على نشرها وتصديه لمخالفيها.

وقد ذكر رحمه الله في أول كتابه القول السديد في مقاصد التوحيد مقدمة تشتمل على صفوة عقيدة أهل السنة وخلاصتها المستمدة من الكتاب والسنة.

ولِوَ جازة هذه المقدمة، وشمولها لمعظم مسائل العقيدة، ودقة عباراتها، ووضوحها وأهميتها أوردها بنصها.

قال رحمه الله في بيان خلاصة عقيدة السلف الصالح المستمدة من الكتاب والسنة: وهي (أنهم يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، فيشهدون أن الله هو الرب الإله المعبود، المتفرد بكل كمال فيعبدونه وحده مخلصين له الدين، فيقولون إن الله هو الخالق البارىء المصور الرزاق المعطي المانع المدبر لجميع الأمور.

وأنه المألوه المعبود الموحد المقصود، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي

---

(١) راجع في تلاميذ الشيخ: علماء نجد للبسام ٢/٤٢٦. وروضة الناظرين للقاضى ١/٢٢١، وعلماء آل سليم للعمرى ٢/٢٩٦، ومشاهير علماء نجد لآل الشيخ / ٣٩٣.

ليس بعده شيء. الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء. وأنه العلي الأعلى بكل معنى واعتبار، علو الذات وعلو القدر وعلو القهر، وأنه على العرش استوى، استواء يليق بعظمته وجلاله، ومع علوه المطلق وفوقيته، فعلمه محيط بالظواهر والبواطن والعالم العلوي والسفلي، وهو مع العباد بعلمه، يعلم جميع أحوالهم، وهو القريب المجيب.

وأنه الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، والكل إليه مفتقرون في إيجادهم وإيجاد ما يحتاجون إليه في جميع الأوقات. ولا غنى لأحد عنه طرفة عين، وهو الرؤوف الرحيم، الذي ما بالعباد من نعمة دينية ولا دنيوية ولا دفع نقمة إلا من الله، فهو الجالب للنعم، الدافع للنقم.

ومن رحمته أنه ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا، يستعرض حاجات العباد حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: لا أسأل عن عبادى غيرى، من ذا الذي يدعوني فاستجيب له، من ذا الذي يسألني فأعطيه، من ذا الذي يستغفرني فاغفر له، حتى يطلع الفجر، فهو ينزل كما يشاء، ويفعل كما يريد، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

ويعتقدون أنه الحكيم، الذي له الحكمة التامة في شرعه وقدره، فما خلق شيئاً عبثاً، ولا شرع الشرائع إلا للمصالح والحكم.

وأنه التواب العفو الغفور، يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات، ويغفر الذنوب العظيمة للتائبين والمستغفرين والمنيبين، وهو الشكور الذي يشكر القليل من العمل ويزيد الشاكرين من فضله.

ويصفونه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، من الصفات الذاتية، كالحياة الكاملة والسمع والبصر وكمال القدرة والعظمة والكبرياء، والمجد والجلال والجمال، والحمد المطلق، ومن صفات الأفعال المتعلقة بمشيئته وقدرته كالرحمة والرضا والسخط والكلام، وإنه يتكلم بما يشاء كيف يشاء. وكلماته لا تنفد ولا تبيد، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود.

وأنه لم يزل ولا يزال موصوفاً بأنه يفعل ما يريد ويتكلم بما شاء، ويحكم على عباده بأحكامه القدرية، وأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية، فهو الحاكم المالك، ومن سواه مملوك محكوم عليه، فلا خروج للعباد عن ملكه ولا عن حكمه. ويؤمنون بما جاء به الكتاب وتواترت به السنة أن المؤمنين يرون ربهم تعالى عياناً جهرة، وأن نعيم رؤيته والفوز برضوانه أكبر النعيم وألذه.

وأن من مات على غير الإيمان والتوحيد فهو مخلد في نار جهنم أبداً، وأن أرباب الكبائر اذا ماتوا على غير توبة ولا حصل لهم مكفر لذنوبهم ولا شفاعة فإنهم وإن دخلوا النار لا يخلدون فيها، ولا يبقى في النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان إلا خرج منها.

وأن الإيمان يشمل عقائد القلوب وأعمال الجوارح وأقوال اللسان، فمن قام بها على الوجه الأكمل فهو المؤمن حقاً الذي استحق الثواب وسلم من العقاب ومن انتقص منها شيئاً نقص من إيمانه بقدر ذلك؛ ولذلك كان الإيمان يزيد بالطاعة وفعل الخير، وينقص بالمعصية والشر.

ومن أصولهم السعي والجد فيما ينفع من أمور الدين والدنيا، مع الاستعانة بالله، فهم حريصون على ما ينفعهم ويستعينون بالله، وكذلك يحققون الإخلاص لله في جميع حركاتهم، ويتبعون رسول الله في الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول والنصيحة للمؤمنين اتباع طريقهم.

ويشهدون أن محمداً عبده ورسوله أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو خاتم النبيين، أرسل إلى الأنس والجن بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، أرسله بصلاح الدين وصلاح الدنيا، وليقوم الخلق بعبادة الله ويستعينوا برزقه على ذلك.

ويعلمون أنه أعلم الخلق وأصدقهم وأنصحهم وأعظمهم بيانا، فيعظمونه ويحبونه، ويقدمون محبته على محبة الخلق كلهم ويتبعونه في أصول دينهم وفروعه، ويقدمون قوله وهديه على قول كل أحد وهديه.

ويعتقدون أن الله جمع له من الفضائل والخصائص والكمالات ما لم يجمعه لأحد، فهو أعلى الخلق مقاماً وأعظمهم جاهاً وأكملهم في كل فضيلة، لم يبق خير إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرهم عنه.

وكذلك يؤمنون بكل كتاب أنزله الله، وكل رسول أرسله الله، لا يفرقون بين أحد من رسله.

ويؤمنون بالقدر كله، وأن جميع أعمال العباد خيرها وشرها، قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمه، ونفذت فيها مشيئته، وتعلقت بها حكمته، حيث خلق للعباد قدرة وإرادة، تقع بها أقوالهم وأفعالهم بحسب مشيئتهم، لم يجبرهم على شيء منها بل جعلهم مختارين له، وخص المؤمنين بأن حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان بعدله وحكمته.

ومن أصول أهل السنة أنهم يدينون بالنصيحة لله ولكتابه ورسوله، ولأئمة

المسلمين وعامتهم، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة، ويأمرون ببر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى الجيران والمماليك والمعاملين ومن له حق، وبالإحسان إلى الخلق أجمعين. ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسنها، وينهون عن مساوىء الأخلاق وأرذلها.

ويعتقدون أن أكمل المؤمنين إيمانا ويقينا، أحسنهم أعمالا وأخلاقاً، وأصدقهم أقوالا، وأهداهم إلى كل خير وفضيله، وأبعدهم من كل رذيلة. ويأمرون بالقيام بشرائع الدين. على ما جاء عن نبيهم فيها وفي صفاتها ومكملاتها، والتحذير عن مفسداتها ومنقصاتها.

ويرون الجهاد في سبيل الله ماضيا مع البر والفاجر، وأنه ذروة سنام الدين، جهاد العلم والحجة، وجهاد السلاح، وأنه فرض على كل مسلم أن يدافع عن الدين بكل ممكن ومستطاع.

ومن أصولهم الحث على جمع كلمة المسلمين، والسعي في تقريب قلوبهم وتأليفها، والتحذير من التفرق والتعادى والتباغض، والعمل بكل وسيلة توصل إلى هذا.

ومن أصولهم النهي عن أذية الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم، والأمر بالعدل والإنصاف في جميع المعاملات والندب إلى الاحسان والفضل فيها.

ويؤمنون بأن أفضل الأمم أمة محمد ﷺ، وأفضلهم أصحاب رسول الله ﷺ خصوصاً الخلفاء الراشدون، والعشرة المشهود لهم بالجنة وأهل بدر، وبيعة الرضوان والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، فيحبون الصحابة ويدينون لله بذلك، وينشرون محاسنهم ويسكتون عما قيل عن مساوئهم.

ويدينون لله باحترام العلماء الهداة وأئمة العدل، ومن لهم المقامات العالية في الدين والفضل المتنوع على المسلمين، ويسألون الله أن يعيذهم من الشك والشرك والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق وأن يثبتهم على دين نبيهم إلى الممات.

هذه الأصول الكلية بها يؤمنون ولها يعتقدون وإليها يدعون[1] أ. هـ.

فهذه الأصول الكلية التي ذكرها الشيخ ابن سعدى، اشتملت على خلاصة العقيدة وصفوتها، وهي أصول مستقاة من الكتاب والسنة، فليس فيها أصل إلا وعليه عشرات الأدلة إما من القرآن أو من السنة، وهذه هي عقيدة السلف الصالح، التي دعا إليها رسول الله ﷺ، وأمر بها، وسار على نهجه فيه صحبه الكرام وتابعوهم بإحسان.

---

(١) مقدمة القول السديد / ٦ ـ ١٢.

أما عن ثقافته وتنوعها فكما تقدم أن الشيخ ابن سعدى قد أفنى عمره، وأمضى وقته في طلب العلوم وتحصيلها، ولم يقتصر على فن واحد منها بل رام تحصيل جميع العلوم الشرعية من فقه وتفسير وحديث وغيرها، فأناله الله علما واسعا، وألم بعلوم كثيرة من العلوم الشرعية وبرع فيها، ولكي تتبين لنا ثقافته وتنوعها وسعتها، أعرض لكل فن اشتغل به مع بيان تحصيله منه وافادته فيه على وجه الاختصار.

العقيدة:

لقد أولى الشيخ ابن سعدى العقيدة الإسلامية عناية بالغة واهتماماً كبيراً، فدرس العقيدة وتلقاها على عدد كبير من العلماء كما سبق الإشارة إلى ذلك عند ذكر شيوخه، واعتنى بكتب المتقدمين من سلف هذه الأمة، كما عنى بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه شمس الدين ابن قيم الجوزية، فكان لذلك دور كبير في نبوغه وبروزه في عقيدة السلف الصالح.

ثم إنه - رحمه الله - اعتنى بعد ذلك بالعقيدة تدريساً وتأليفاً، فكان في دروسه التي يلقيها على الطلاب يعتني بتدريسهم العقيدة الإسلامية الصافية، المأخوذه من الكتاب والسنة، الخالية من شوائب الشرك والبدع والخرافات. وكان كذلك في مؤلفاته يعتني بأمر العقيدة، فأكثر فيها التأليف شرحاً وتوضيحاً وتقريراً وتأصيلاً ورداً على المخالفين، وغير ذلك من الجهود الكبيرة التي قام بها نصرة لهذه العقيدة، وسيأتي بيان ذلك مفصلا في الباب الثاني من هذه الرسالة إن شاء الله.

الحديث:

تقدم في ذكر شيوخه أنه تلقى الحديث وعلومه على عدد من المشايخ، وأنه أخذ من بعضهم اجازه برواية الكتب الستة. وهذا يبين لنا مدى اهتمامه بالحديث منذ طلبه للعلم.

وأما عن مؤلفاته في الحديث فلم أقف له إلا على مؤلف واحد جمع فيه تسعة وتسعين حديثاً من جوامع كلم النبي ﷺ، وأشار في مقدمته إلى أهمية الحديث فقال: (أما بعد: فليس بعد كلام الله أصدق ولا أنفع ولا أجمع لخير الدنيا والآخرة من كلام رسوله وخليله محمد ﷺ، اذ هو أعلم الخلق، وأعظمهم نصحاً وارشاداً وهداية، وأبلغهم بياناً وتأصيلاً وتفصيلاً. وأحسنهم تعليماً، وقد أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً، بحيث كان يتكلم بالكلام القليل لفظه الكثيرة معانيه، مع كمال الوضوح والبيان الذي هو أعلى رتب البيان)[1].

---

(١) بهجة قلوب الأبرار، وقرة عيون الأخيار، في شرح جوامع الأخبار/٥.

وقد كان في هذا المؤلف وغيره من مؤلفاته عند استشهاده بالحديث يهتم بالإشارة إلى بعض من خرجه في كتب السنة.

وكان يهتم في دروسه بتدريس الحديث فقد درس بلوغ المرام لابن حجر مراراً كثيرة. وكان يعود طلابه دائما في المسائل الخلافية على الأخذ بما وافق الدليل من الكتاب أو السنة الصحيحة.

الفقه:

كان رحمه الله ذا معرفة تامة بالفقه، وقد كان في بداية طلبه للعلم متمسكاً بمذهب الإمام أحمد تبعاً لمشائخه وحفظ بعض المتون في ذلك وكان له مؤلف في الفقه على طريق النظم للمسائل وهو يتكون من أربعمائة بيت على مذهب الإمام أحمد.

ثم مال إلى الترجيح وترك التقليد، ولا سيما بعد قراءته لكتب الشيخين، فقد كان يميل لاختيارتهما، ويرجح ما وافق الدليل.

ولهذا فقد أفرد مؤلفاً بين فيه اختياراته الفقهية، وأفرد آخر جعله مستدركاً على أحد كتب الفقه الحنبلي ليكون كالمستدرك على جميع كتب الحنابلة رجح فيه ما وافق الدليل.

وقد برع رحمه الله في الفقه، واعتنى به اعتناء كبيراً وأكثر فيه من التأليف، ومؤلفاته في الفقه تربو على عشرة مؤلفات وسيأتي ذكرها قريبا في مؤلفاته.

التفسير:

وأما التفسير فقد كان له اليد الطولى وبرع فيه، وقد قرأ في طلبه للعلم تفسيرات متعددة.

وله كتب متعددة حول القرآن وتفسيره، فله تفسير كامل للقرآن ويقال إنه أملاه من الذاكرة من غير أن يكون عنده وقت التصنيف كتاب تفسير ولا غيره[1].

وله خلاصة لهذا التفسير، وله مؤلف في فوائد استنبطها من قصة يوسف، وله مؤلف في الفوائد القرآنية التي عرضت له أثناء قراءته للقرآن، وله مؤلف في قواعد تفسير القرآن، وسيأتي ذكرها في مؤلفاته.

وكان يقرأ على طلابه القرآن. وفي أثناء القراءة يفسره لهم. ويبين لهم معانيه

---

(١) مقدمة الرياض الناضرة ترجمة بقلم أحد تلاميذه /٨، وسيرة الشيخ عبدالرحمن السعدى جمع محمد حامد الفقي، ١٣.

ووجوه اعجازه ويستنبط لهم منه الفوائد. حتى إن السامع إليه وهو يفسر كلام الله يود أن لا يصمت، وأن يستمر دائماً في تفسيره.

اللغة والشعر:

لقد درس الشيخ ابن سعدى علوم اللغة العربية على عدد من المشائخ، وألف في النحو رسالة صغيرة علق فيها على نظم قواعد الإعراب وسيأتي ذكرها في مؤلفاته.

وأما الشعر فقد كان رحمه الله منذ صغره يقول الشعر، وله أشعار كثيرة يخدم فيها علوم الشريعة.

فله منظومات متعددة في الفقه و ، القواعد الفقهية وفي الترغيب والترهيب وفي شرح بعض الأحاديث وفي الثناء على بعض علماء الإسلام وغير ذلك مما سيأتي بعضه في مؤلفاته[1].

ومن لطائف شعره قوله في وصف السيارة أول ما ركبها مسافراً للحج:

يــا راحلينَ إلـى الحمـى برواحـلٍ	تطـوى الفـلا والبيـد طـيّ المسرع
ليسـت تبـولُ ولا تـروثُ، ومـا لهـا	روحٌ تحـــنُ إلـــى الربيـعِ الممـرع
مـا استولـدت مـن نوقنا بـل صُنعهـا	مـن بعـضِ تعليـمِ اللطيـفِ المبـدع
كـم أوصلت دارَ الحبيبِ، وكـم سرتْ	بحموهـا نحـو الديـارِ الشســع

سابعا: مؤلفاته:

كان الشيخ ابن سعدى رحمه الله ذا عناية بالغة بالتأليف، وله مؤلفات كثيرة في أنواع العلوم الشرعية، فألف في التوحيد والفقه والحديث والتفسير والأصول ومحاسن الدين وغيرها، وجميع مؤلفاته مطبوعة إلا اليسير منها؛ لأنه كان رحمه الله ذا عناية بطبع الكتاب فور انتهائه من تأليفه، إما على نفقته أو على نفقة بعض أهل الخير والإحسان.

وسأعرض فيما يلي جميع مؤلفاته المطبوع منها وغير المطبوع، مع دراسة موجزة أو نبذة مختصرة عن كل كتاب منها، وقد رتبتها على حروف المعجم، وجعلت لكل مؤلف رقما تسلسلياً، ليعلم بذلك عدد مجموع مؤلفاته، وإذا تكرر الكتاب بأن يكون طبع باسم آخر، أو استل من أحد مؤلفاته وهو قليل جدا فإني أهمل ترقيمه وأكتفي بوضع شرطه قبله هكذا (-)، وما لم أنص على أنه مخطوط فهو مطبوع متداول، وفيما يلي أسماء مؤلفاته ونبذة عن كل منها:

---

(١) وانظر آخر الفتاوي السعدية / ٦٦٨ وما بعدها. ففيه جملة كبيرة من أشعاره في المدح والرثاء وغير ذلك.

١ - الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين.

وهي رسالة صغيرة تتكون من ثمانين صفحة اعتنى فيها الشيخ ابن سعدى بالرد على الملاحدة المنكرين لوجود الله عز وجل.

وكان أكثر عنايته في هذه الرسالة بنقض أصل فاسد أَصّلَهُ معلمهم الأول «أرسطو».

وهو قوله: (إن من أراد الشروع في المعارف الإلهية فليمح من قلبه جميع العلوم والاعتقادات، وليسع في إزالتها من قلبه بحسب مقدوره، وليشك في الأشياء ثم ليكتف بعقله وخياله ورأيه وعليه أن لا يؤمن إلا بالأشياء المحسوسة).

وقد نقض الشيخ ابن سعدى هذا الأصل، وبين بطلانه من ثلاثة وثمانين وجها انتقى أكثرها من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وكتب تلميذه ابن القيم.

وهذه الرسالة مع أنها صغيرة الحجم فإنها عظيمة النفع لما اشتملت عليه من ردود رصينة وقوية تكشف بطلان دعوى هؤلاء الملاحدة الكفرة. وقد فرغ الشيخ ابن سعدى من تأليف هذه الرسالة في **١٤** رجب سنة **١٣٧٢**هـ.

٢ - الإرشاد إلى معرفة الأحكام.

هو مجلد لطيف ألفه الشيخ ابن سعدى على طريقة السؤال والجواب وتناول فيه معظم المسائل الفقهية.

يقول في مقدمته: (أما بعد فهذا تأليف بديع المنزع سهل الألفاظ والمعاني حسن الترتيب يحتوى على مهمات مسائل الأحكام رتبته بصورة السؤال المحرر الجامع والجواب المفصل النافع يحتوى على أصول وضوابط وتقسيمات تقرب اشتات المسائل وتضم النظائر والفوارق...).

وقد اشتمل هذا الكتاب على مائة سؤال جامع مع أجوبة موسعة مفصلة لهذه الأسئلة وحوى أهم المهمات من مسائل الفقه في العبادات والمعاملات والمشاركات والتبرعات والمواريث والأنكحة والجنايات والأقضية وغيرها، وفرغ ابن سعدى من تأليف هذا الكتاب في **١٧** رمضان سنة **١٣٥٨**هـ.

- إرشاد أولي البصائر والألباب لنيل الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب بطريق مرتب على السؤال والجواب.

وهو الكتاب المتقدم نفسه طبع مرة أخرى بهذا الأسم، في مطبعة واحدة، وفي عام واحد!!

٣ ـ انتصار الحق:

وهي رسالة صغيرة عبارة عن محاورة دينية اجتماعية بين رجلين كانا متصاحبين رفيقين مسلمين يدينان بالدين الحق ويشتغلان في طلب العلم جميعا فغاب أحدهما عن صاحبه مدة طويلة ثم التقيا فإذا هذا الغائب قد تغيرت أحواله وتبدلت أخلاقه، فسأله صاحبه عن ذلك فإذا هو قد تغلبت عليه دعاية الملحدين الذين يدعون لنبذ الدين ورفض ما جاء به المرسلون.

فدارت بينهما هذه المحاورة وانتهت باقناع الناصح زميله بفساد ما ذهب إليه.

وهي محاورة هادفة نشرت في مجلة المنهل في عام ١٣٦٧هـ، ثم أفردت في رسالة مستقلة.

٤ ـ بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار.

وهو مجلد لطيف يشتمل على تسعة وتسعين حديثاً من الأحاديث النبوية الجوامع في أصناف العلوم والمواضيع النافعة والعقائد الصحيحة والأخلاق الكريمة والفقه والآداب والاصلاحات الشاملة والفوائد العامة، مع شرحها وبيانها وايضاحها.

قال في مقدمته (.... وقد بدا لي أن أذكر جملة صالحة من الأحاديث الجوامع في المواضيع الكلية والجوامع في جنس أو نوع أو باب من أبواب العلم، مع التكلم على مقاصدها وما تدل عليه، على وجه يحصل به الايضاح والبيان مع الاختصار) وفرغ من تأليفه في ١٠ شعبان سنة ١٣٧١هـ.

٥ ـ التعليق وكشف النقاب على نظم قواعد الإعراب[1].

وهي رسالة صغيرة لم تطبع تتكون من ٢٢ صفحة شرح فيها منظومة في قواعد الإعراب قال في مقدمتها: (أما بعد فهذا تعليق على نظم قواعد الإعراب نقلته من شرح الشيخ خالد الأزهري على أصله، ذكرت منه ما يتعلق بهذا النظم وحذفت منه ما يستغنى عنه، ونقلت عباراته، إلا في شيء يسير، وأسأل الله أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم).

وفرغ الشيخ ابن سعدى من هذه الرسالة في سنة ١٣٣٤هـ. ويوجد منها أصل مخطوط عند الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن البسام.

---

(١) صاحب هذا النظم هو أبو محمد عبدالله بن يوسف الشهير بابن هشام النحوى المتوفى سنة ٧٦٢هـ، وله شروح متعددة منها شرح الشيخ خالد بن عبدالله الأزهري النحوي المتوفى سنة ٩٠٥هـ. كشف الظنون لحاجى خليفة ١/١٢٤.

٦ - توضيح الكافية الشافية.

وهذا الكتاب نثر فيه الشيخ ابن سعدى نونية ابن القيم رحمه الله المسماه بالكافية الشافية في الإنتصار للفرقة الناجية.

قال ابن سعدى في مقدمته (. . . ولما كان النظم معناه بعيد المنال، ودلالته على المعنى المراد يكثر فيها الاشتباه والإشكال، أحببت أن أقربه للقارئين بحله إلى معناه المنثور فقط من غير زيادة على ما دل عليه، إلا إذا اقتضت الحال الزيادة أو كان المعنى يتوقف عليها . . . واعلم أن هذا التوضيح والتعليق على اختصاره قد حوى جميع المقاصد والعقائد الدينية، وحصل به التوضيح التام للكافية الشافية . . . ومتى أردت معرفة مقداره فتأمل كل فصل من فصول الكافية، واستعن عليه بما يقابله من هذا التعليق يحصل لك المقصود، وتحظى بالمطلوب، واقتديت في عملي هذا بابن هشام في توضيحه لألفية ابن مالك رحمهم الله). وفرغ ابن سعدى من تأليفه في ١٠ جمادي الأخرة سنة ١٣٦٧هـ.

٧ - التوضيح والبيان لشجرة الإيمان.

وهي رسالة صغيرة تشتمل على مباحث الإيمان تعريفه والأمور التي يستمد منها، وفوائده وثماره وغير ذلك من المباحث المتعلقة به.

قال في مقدمتها: (أما بعد: فهذا كتاب يحتوى على مباحث الإيمان التي هي أهم مباحث الدين، وأعظم أصول الحق واليقين، مستمداً ذلك من كتاب الله الكريم الكفيل بتحقيق هذه الأصول تحقيقاً لا مزيد عليه، ومن سنة نبيه محمد ﷺ التي توافق الكتاب وتفسره، وتعبر عن كثير من مجملاته، وتفصل كثيراً من مطلقاته، مبتدئاً بتفسيره، مثنيا بذكر أصوله ومقوماته ومن أي شيء يستمد مثلثاً بفوائده وثمراته، وما يتبع هذه الأصول).

وفرغ الشيخ ابن سعدى من تأليف هذه الرسالة في ٨ ذي الحجة سنة ١٣٧٤هـ.

٨ - التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة. وهي رسالة صغيرة علق فيها الشيخ ابن سعدى تعليقاً مختصراً على العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

قال في مقدمتها: (أما بعد فهذا تعليق لطيف على عقيدة شيخ الإسلام ابن تيمية المسماة (بالواسطية) التي جمعت على اختصارها ووضوحها جميع ما يجب اعتقاده من أصول الإيمان وعقائده الصحيحة، وهي وإن كانت واضحة المعاني محكمة المباني، تحتاج إلى تعليق يزيد في توضيح بعض ما فيها من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وتبيين

وجه دلالتها على المقصود وبيان وجه ارتباط بعض المسائل ببضع وجمع ما يحتاج إلى جمعه في موضع واحد والإشارة إلى بعض آثارها وفوائدها في القلوب والأخلاق، والتنبيه لكل ما يحتاج إلى التنبيه عليه). وفرغ من تأليفها في ٨ جمادي الأولى سنة ١٣٦٩هـ.

٩ - تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله.

وهي رسالة صغيرة رد فيها ابن سعدى على عبدالله بن علي القصيمي الذي انتكس وألحد في آخر زمانه، فأصبح يعادي الإسلام وينابذ الدين ويدعو إلى الانحلال عنه من كل وجه وألف في ذلك كتاباً أسماه (هاذى هي الأغلال) ويعني بالأغلال شرائع الإسلام وأوامره ونواهيه، وأخذ يدعو في كتابه هذا إلى الإلحاد وانكار وجود الله، وسخر فيه من الرسل عليهم السلام ومن الرسول ﷺ ومن الصحابة ومن علماء الإسلام وأنكر وجود الملائكة، إلى غير ذلك من الطامات والكفريات.

مما دفع الشيخ ابن سعدى إلى تأليف رسالته تنزيه الدين ليبين فيها ضلال هذا القصيمي وزيغه وانحلاله، قال ابن سعدى (..... فكان هذا أكبر عداء ومهاجمة للدين فوجب على كل من عنده علم أن يبين ما يحتوى عليه كتابه من العظائم خشية اغترار من ليس له بصيرة بكلامه).

وفرغ ابن سعدى من تأليف هذه الرسالة في ٣ ربيع الأول سنة ١٣٦٦هـ.

١٠ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان[1].

وهو تفسير كامل للقرآن يتكون من ثمانية أجزاء كل جزئين في مجلد واحد.وقد بين ابن سعدى سبب تأليفه لهذا التفسير فقال: (... وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله. فمن مطول خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مقتصر يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية بقطع النظر عن المراد، وكان الذي ينبغي في ذلك أن

---

(١) تنبيه عندما انقل من هذا التفسير في هذه الرسالة فإني اكتفي بكتابة كلمة «التفسير» اختصاراً.
تنبيه آخر: يوجد من هذا الكتاب نسخة خطية في مكتبة الفتح بالقاهرة، وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات آخرها طبعة المكتبة السعيدية بالرياض، وهي التي اعتمدت عليها في النقل. وهي طبعة جيدة في سبع مجلدات، جعل فيها النص القرآني مرقماً في أعلى الصفحة، وتفسير الشيخ في أدناها، فهي جيدة من حيث الترتيب والتنسيق، إلا أنها مشتملة على أخطاء كثيرة مطبعية وعلمية، وقد أحصيت فيها من الأخطاء المطبعية الشيء الكثير، أما الأخطاء العلمية فمن المحقق حيث تعقب الشيخ ابن سعدي في أكثر من عشرة مواضع في تفسير الآيات والصواب فيها مع الشيخ، وهي مدونة عندي بأرقام الصفحات ولا مجال لذكرها هنا
ثم صُفت أحرف هذه الطبعة في طبعة أخرى، وجعلت في خمس مجلدات، إلا أن الأخطاء المشار إليها باقية، فلايزال الكتاب بحاجة إلى عناية.

يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه، فينظر في سياق الكلام وما سيق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر، ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم عالمهم وجاهلهم حضريهم وبدويهم، فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصاً إذا إنضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها، فمن وفق لذلك لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه، وكثرة التفكر في ألفاظه ومعانيه ولوازمها وما تتضمنه وما تدل عليه منطوقاً ومفهوماً، فإذا بذل وسعه في ذلك فالرب أكرم من عبده فلابد أن يفتح عليه من علومه أموراً لا تدخل تحت كسبه.

ولما منّ الباري عليّ وعلى إخواني بالاشتغال بكتابه العزيز بحسب الحال اللائقة بنا، أحببت أن أرسم من تفسير كتاب الله ما تيسر وما منّ به الله علينا؛ ليكون تذكرة للمحصلين، وآلة للمستبصرين، ومعونة للسالكين، ولأقيده خوف الضياع. ولم يكن قصدي في ذلك إلا أن يكون المعنى هو المقصود، ولم أشتغل في حل الألفاظ والعقود للمعنى الذي ذكرت؛ ولأن المفسرين قد كفوا من بعدهم فجزاهم الله عن المسلمين خيراً)[1].

وقد نبه رحمه الله في مقدمة هذا التفسير على طريقته فيه فقال: (اعلم أن طريقتي في هذا التفسير أني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكرى ما تعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنه «مثاني» تثنى فيه الأخبار والقصص والأحكام وجميع المواضيع النافعة لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف، وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها)[2].

وقد امتاز تفسير ابن سعدى عن غيره من التفاسير بميزات متعددة أذكر فيما يلي بعضها:

- سهولة ألفاظه وخلوه من التكلف والحشو، وذلك لأنه يقتصر فيه على توضيح الآيات وبيان معانيها.
- عنايته فيه بأمر العقيدة وشرحها وتوضيحها والرد على من خالفها من طوائف الضلال، فعند تفسيره للآيات يبين ما فيها من دلالات على مسائل العقيدة المختلفة، ويبين مافيها من ردود على شبه المخالفين، كل ذلك بأسلوب سهل واضح، وبقراءة هذا البحث يتبين مدى عناية الشيخ بذلك، من خلال النقول

(١) التفسير ١/١٣.

(٢) مقدمة التفسير. وانظر أيضا ٦/٤٦٥.

الكثيرة التي أوردها عنه من تفسيره في بيان العقيدة وتوضيحها.

- لا يتعرض للمسائل الخلافية عند تفسيره لآيات الأحكام، وإنما يذكر القول الراجح بدليله.

- بعد تفسيره للآيات المشتملة على قصة نبي من الأنبياء، فإنه يذكر بعدها ما اشتملت عليه القصة من فوائد.

- لا يلتفت في تفسيره للإسرائيليات بل يعرض عنها، ويكثر من التحذير منها.

- عقد في مقدمة تفسيره فصولاً متعددة ذكر فيها جملة من الفوائد المتعلقة بتفسير القرآن اختار جملة منها من كتاب بدائع الفوائد لابن القيم.

- ذكر في آخر المجلد الخامس جملة من الأصول والكليات المتعلقة بتفسير القرآن، والتي لا يمكن أن يستغني عنها مفسر القرآن الكريم.

- وعقد أيضاً في آخر المجلد الخامس فصلاً شرح فيه أسماء الله الحسنى.

وكان رحمه الله أول ما نشر من هذا التفسير الجزء المتعلق بتفسير سورة الكهف إلى آخر سورة النمل، ثم بعد ذلك اتبعه بنشر التفسير كاملاً، وكان فراغه من تأليف هذا التفسير في ٧ شعبان **١٣٥٤هـ**.

١١ - تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن[١].

وهو خلاصة للتفسير المتقدم ألفه بعد فراغه من تأليف التفسير بأكثر من عشر سنوات.

يقول ابن سعدى في مقدمة هذه الخلاصة مبينا سبب تأليفها: (أما بعد: فقد كنت كتبت كتابا في تفسير القرآن مبسوطاً مطولاً يمنع القراء من الاستمرار بقرائته، ويفتر العزم عن نشره، فأشار عليّ بعض العارفين الناصحين أن أكتب كتابا غير مطول يحتوى على خلاصة ذلك التفسير، ونقتصر فيه على الكلام على بعض الآيات التي نختارها وننتقيها من جمعي مواضيع علوم القرآن ومقاصده... فالوقوف على تفسير بعض القرآن يعين أعظم عون على معرفة باقية).

وكان فراغه من هذه الخلاصة في **٣** شوال **١٣٦٨هـ**.

١٢ - الجمع بين الإنصاف ونظم ابن عبدالقوى.

وهذا الكتاب لم يطبع، ولم يكمله الشيخ ابن سعدي، وإنما وصل فيه إلى كتاب الحج، وهو عبارة عن جمع بين نظم ابن عبدالقوى. وهو في الفقه. وبين الانصاف

---

(١) عندما انقل من هذا الكتاب في هذه الرسالة فإني اكتفي بذكر كلمة «الخلاصة» اختصاراً.

للمرداوي، ويوجد منه نسخة خطية في مكتبة الجامع في عنيزه.

- حاشية على الفقه استدراكاً على جميع الكتب المشهورة في المذهب الحنبلي.

مخطوطة لم تطبع. ذكرها ابنه عبدالله في ترجمته لوالده[1]. والذي يبدو لي أنه ليس للشيخ ابن سعدى استدراك على جميع كتب الحنابلة وإنما له استدراك على كتاب شرح مختصر المقنع للشيخ منصور البهوتي وقد طبع باسم «المختارات الجلية» وسيأتي مزيد إيضاح ذلك عند الحديث عن هذا الكتاب وهو برقم «٣٥».

١٣ - الجهاد في سبيل الله أو واجب المسلمين وما فرضه الله عليهم في كتابه نحو دينهم وهيئتهم الاجتماعية.

وهي رسالة صغيرة غير مؤرخه وجدها ابناؤه بخطه بين أوراقه، بعد وفاته رحمه الله.

ومضمونها الحث على الترابط والتعاون والتآخي في الله. والحث على الجهاد في سبيل الله بسائر أنواعه سواء كان بالمال أو بالنفس أو بالدعوة إلى الله أو غير ذلك.

١٤ - الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية.

وهو شرح مختصر للجزء المتعلق بتوحيد الأنبياء والمرسلين من نونية ابن القيم، وكان الشيخ ابن سعدى قد شرح هذا الجزء شرحاً موسعاً، ثم رأى تلخيصه في هذا الكتاب، كما أشار إلى ذلك في مقدمته فقال (كنت وضعت شرحاً على توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية للمحقق شمس الدين بن القيم رحمه الله، أطلت فيه وأكثرت فيه من النقول عن كتب المؤلف فبدا لي أن ألخصه بشرح متوسط يأتي بأغراضه ومقاصده، ويحتوى على المهم من مسائله وفوائده).

وفرغ الشيخ ابن سعدى من تأليفه في ٣ ربيع الآخر ١٣٦٧هـ.

وعلى هذا يكون للشيخ ابن سعدي ثلاثة مؤلفات حول نونية ابن القيم. هذان الكتابان، وكتاب توضيح الكافية الشافية وقد تقدم ذكره.

١٥ - حكم شرب الدخان.

وهي رسالة صغيرة عبارة عن فتوى في بيان تحريم شرب الدخان. والاتجار به، وذكر فيها أضرار الدخان الدينية والبدنية والمالية.

وطبعت بتقديم فضيلة الشيخ عبدالرزاق عفيفي، وفرغ الشيخ ابن سعدى من تأليفها في ربيع الأول سنة ١٣٧٦هـ.

---

(٢) انظر سيرة الشيخ عبدالرحمن السعدى، جمع حامد الفقي / ٢٢.

١٦ ـ الخطب المنبرية على المناسبات.
وهو كتيب يشتمل على ثلاثين خطبة في جملة من المطالب الشرعية من فرائض ونوافل وآداب.
١٧ ـ الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية.
ناظمُ القصيدة التائية هو شيخُ الإسلام ابن تيميةَ، نظمها جواباً لسؤالٍ أورده عليه من قال إنه ذمي ليشبه على المسلمين، وليشككهم في القضاء والقدر.
وقد شرحها ابن سعدى في هذه الرسالة شرحاً متوسطاً أجلى فيه عن معانيها وكشف عن غوامضها، وأضاف إليها خاتمة جليلة ذكر فيها أمثلة متنوعة تكشف مسألة القضاء والقدر وتبينها.
وفرغ الشيخ ابن سعدى من تأليفها في ٣٠ ربيع الآخر سنة ١٣٧٦هـ.
١٨ ـ الدرة المختصرة في محاسن دين الإسلام.
وهي رسالة صغيرة ذكر فيها جملة من محاسن الدين الإسلامي ومزاياه. قال في مقدمتها: (وغرضى من هذا التعليق إبداء ما وصل إليه علمي من بيان أصول محاسن الدين العظيم، فإني وإن كان علمي ومعرفتي تقصر كل القصور عن إبداء بعض ما احتوى عليه هذا الدين من الجلال والجمال والكمال. وعبارتي تضعف عن شرحه على وجه الإجمال، فضلاً عن التفصيل في المقال، وكان مالا يدرك جميعه ولا يوصل إلى غايته ومعظمه، فلا ينبغي أن يترك منه ما يعرف الإنسان لعجزه عما لا يعرفه... إلى أن قال: واعلم أن محاسن الدين الإسلامي عامة في جميع مسائله ودلائله، وفي أصوله وفروعه، وفيما دل عليه من علوم الشرع والأحكام، وما دل عليه من علوم الكون والاجتماع، وليس القصد هنا استيعاب ذلك وتتبعه، فإنه يستدعي بسطاً كثيراً، وإنما الغرض ذكر أمثلة نافعة يستدل بها على سواها، وينفتح بها الباب لمن أراد الدخول، وهي أمثلة منتشرة في الأصول والفروع والعبادات والمعاملات).
ثم ذكر واحداً وعشرين مثلا، فيها بيان جملة من محاسن الدين. وفرغ من تأليفها في غرة جمادى الأولى سنة ١٣٦٤هـ.
١٩ ـ الدلائل القرآنية في أن العلوم النافعة العصرية داخلة في الدين الإسلامي.
وهي رسالة صغيرة تضمنت البراهين القواطع الدالة على أن الدين الإسلامي وعلومه وأعماله وتوجيهاته جمعت كل خير، وأن العلوم الكونية والفنون العصرية الصحيحة داخلة في ضمن علوم الدين وأعماله، وليست منافية لها كما يزعمه الجهلة الماديون.

وفرغ الشيخ من تأليفها في **١٠** محرم سنة **١٣٧٥**هـ.

٢٠ ـ الدين الصحيح يحل جميع المشاكل.

وهي رسالـة صغيرة عرض فيها جملة من مشاكل الحياة المهمة، وبين حلولها السليمة المأخوذة من الكتاب والسنة.

وعرض في هذه الرسالة خمس مشاكل كأنموذج لغيرها من المشاكل وبين حلول الدين لها، والمشاكل التي ذكرها هي:

- مشكلة الدين والعقيدة.
- مشكلة العلم.
- مشكلة الغنى والفقر.
- مشكلة السياسة الداخلية.
- مشكلة السياسة الخارجية.

وفرغ من تأليفها في **٥** ربيع الآخر سنة **١٣٧٥**هـ.

٢١ ـ رسالة في القواعد الفقهية:

وهي رسالة مشتملة على منظومة تتكون من سبعة وأربعين بيتاً في أمهات قواعد الدين من نظم ابن سعدى مع شرحه لها.

يقول في مقدمتها: (أما بعد: فإني وضعت لي ولإخواني منظومة مشتملة على أمهات قواعد الدين، وهي وإن كانت قليلة الألفاظ فهي كثيرة المعاني لمن تأملها.

ولكنهـا تحتاج إلى تعليق يوضحها ويكشف بعض معانيها وأمثلتها تنبّه اللبيب الفطن على ما وراء ذلك، فوضعت عليها هذا الشرح اللطيف تيسيراً لفهمها).

وفرغ من تأليفها في ١٨ ذي القعدة سنة **١٣٣١**هـ.

٢٢ ـ رسالة لطيفة جامعة في أصول الفقه المهمة:

وهي رسـالة صغيرة من تسع صفحات، عقد فيها فصولاً متعددة عرف فيها أصول الفقه، وذكر الأحكام الخمسة التي يدور عليها الفقه، وذكر الأدلة التي يستمد منها الفقه، وذكر جملة من القواعد الأصولية وشرحها شرحاً موجزاً. قال في مقدمتها: (أما بعد: فهذه رسالة لطيفة في أصول الفقه، سهلة الألفاظ واضحة المعاني، معينة على تعلم الأحكام لكل متأمل معاني).

وفرغ من تأليفها في **٢٥** جمادي الآخره سنة **١٣٧٣**هـ.

٢٣ ـ الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة. في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة.

وهو مجلد واحد مشتمل على آداب متفرقة وفنون متنوعة وفوائد منثورة جعلها في اثنين وثلاثين فصلاً.

يقول في مقدمته: (أما بعد: فهذه كلمات طيبات نافعات، ومقالات متنوعة في المهم من أصول الدين وأخلاقه وآدابه. وهاك فصولاً منثوره، في مواضيع متعددة نافعة).

وكُتب في آخره تم نقله من خط مؤلفه في ٢٠ رجب سنة ١٣٧٠هـ بخط عبدالله بن سليمان العبد الله السلمان.

٢٤ ـ سؤال وجواب في أهم المهمات.

وهي رسالة صغيرة في العقيدة ألفها على طريقة السؤال والجواب اشتملت على اثنين وعشرين سؤالا في جوانب متعددة من أمور العقيدة. قال في مقدمتها: (أما بعد فهذه رسالة مختصرة احتوت على أهم المهمات من أمور الدين وأصول الإيمان تدعو الحاجة والضرورة إلى معرفتها جعلتها على وجه السؤال والجواب، لأنه أقرب إلى الفهم والتفهيم وأوضح في التعلم والتعليم).

٢٥ ـ طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول.

وهو مجلد كبير اشتمل على خمس عشرة وألف ما بين قاعدة وأصل وضابط جامع وتعريف مهم وفائدة ضرورية وترغيب في كمال، وتحذير من نقص، وتوجيه إلى المنافع الظاهرة والباطنة وترهيب من المضار الدينية والدنيوية.

اختارها من أكثر من ستين كتاباً من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وكتب تلميذه ابن القيم رحمهم الله.

وفرغ منه الشيخ ابن سعدى في شهر شعبان سنة ١٣٧٠هـ.

٢٦ ـ الفتاوى السعدية:

وهو مجلد كبير مشتمل على جملة كبيرة من الفتاوى التي أجاب بها الشيخ ابن سعدى على الأسئلة المتنوعة التي كانت ترد إليه من أماكن متفرقة، فكان يجيب عليها محررة، ثم يقوم بإرسالها إلى السائل.

وبعد وفاته جمعت جملة كبيرة من هذه الفتاوى المتنوعة في هذا المجلد وسميت بـ«الفتاوى السعدية».

٢٧ ـ فتح الرب الحميد في أصول العقائد والتوحيد.

وهذا الكتاب لم يطبع وقد بحثت عنه كثيرا فلم أجده وقد أشار إليه عدد من

الذين ترجموا للشيخ[1]، وأشار ابنه عبدالله في ترجمته لوالده أنه لم يطبع[2].

- فوائد قرآنية.

وهي رسالة: استلت من كتابه «تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن» وافردت بهذا العنوان.

٢٨ - فوائد مستنبطة من قصة يوسف.

وهذه الرسالة استنبط فيها الشيخ ابن سعدى جملة كبيرة من الفوائد العظيمة من قصة يوسف عليه السلام.

يقول في مقدمتها: (أما بعد: فهذه فوائد مستنبطة من قصة يوسف ﷺ وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، فإن الله تعالى قصها علينا مبسوطة، وقال في آخرها (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب).

وفرغ الشيخ ابن سعدى من تأليفها في شهر صفر سنة ١٣٧٥هـ.

٢٩ - الفواكة الشهية في الخطب المنبرية:

وهو مشتمل على احدى وسبعين خطبة من خطب الشيخ ابن سعدى في مجالات متنوعة ومطالب متفرقة.

٣٠ - القواعد الحسان لتفسير القرآن.

وهذا الكتاب مشتمل على سبعين قاعدة، تعين قارئها ومتأملها على فهم القرآن الكريم.

يقول الشيخ ابن سعدى في مقدمتها: (أما بعد: فهذه أصول وقواعد في تفسير القرآن الكريم، جليلة المقدار، عظيمة النفع، تعين قارئها ومتأملها على فهم كلام الله، والاهتداء به، ومخبرها أجل من وصفها، فإنها تفتح للعبد من التفسير، ومنهاج الفهم عن الله، ما يغني عن كثير من التفاسير الخالية من هذه البحوث النافعة).

وفرغ الشيخ ابن سعدى من تأليفه في ٦ شوال سنة ١٣٦٥هـ.

٣١ - القواعد والأصول الجامعة والفروق والتقاسيم البديعة النافعة.

وقد قسم ابن السعدى هذا الكتاب إلى قسمين:

قسم: ذكر فيه جملة من الأصول الجامعة والقواعد المهمة مع شرحها.

وقسم: ذكر فيه الفوارق بين المسائل المشتبهة والأحكام المتقاربة.

وذكر التقاسيم المهمة.

---

(١) انظر مشاهير علماء نجد لآل الشيخ / ٣٩٤، وآخر كتاب المختارات الجلية طبعة المدني بقلم السناني / ص و.

(٢) انظر سيرة الشيخ عبدالرحمن السعدى جميع محمد حامد الفقي / ٢٣.

قال في مقدمته: (أما بعد: فإن معرفة جوامع الأحكام وفوارقها من أهم العلوم وأكثرها فائدة وأعظمها نفعاً؛ لهذا جمعت في رسالتي هذه ما تيسر من جوامع الأحكام وأصولها، ومما تفرق فيه الأحكام لافتراق حكمها وعللها).

وفرغ من تأليفه في ٢ ربيع الآخرة سنة ١٣٧٥هـ.

٣٢ ـ القول السديد في مقاصد التوحيد:

وهو تعليق مختصر على كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبدالوهاب. يبين فيه الشيخ ابن سعدى الأبواب التي عقدها الشيخ محمد بن عبدالوهاب في كتابه ويبين مناسبتها للترجمة، وقد طبع هذا الكتاب بمفرده مرتين، وطبع في حاشية كتاب التوحيد مراراً.

قال الشيخ ابن سعدى في آخره (.. وهذا آخر التعليق المختصر على كتاب التوحيد، وتوضيح مقاصده، وقد حوى من غرر مسائل التوحيد، ومن التقاسيم والتفصيلات النافعة مالا يستغني عنه الراغبون في هذا الفن الذي هو أصل الأصول وبه تقوم العلوم كلها).

وقد بدأه الشيخ ابن سعدى بمقدمة مشتملة على صفوة عقيدة أهل السنة والجماعة وخلاصتها المستمدة من الكتاب والسنة[1].

٣٣ ـ مجموع الخطب في المواضيع النافعة:

وهو مجموع كبير يشتمل على احدى وستين ومائة خطبة في أهم الموضوعات الجامعة للعقائد والأخلاق والآداب الدينية والدنيوية بأسلوب سهل واضح وعبارة بينه.

وفرغ الشيخ ابن سعدى من تقييد هذا المجموع في ٢٢ رجب سنة ١٣٦٥هـ.

وعلى هذا فإنه يتبين لنا مما تقدم أن للشيخ ابن سعدى ثلاثة كتب في الخطب كلها مطبوعة.

٣٤ ـ مجموع الفوائد واقتناص الأوابد.

مخطوط لم يطبع، ذكره ابنه عبدالله في ترجمته لوالده[2].

٣٥ ـ المختارات الجلية من المسائل الفقهية.

وهو مستدرك على كتاب شرح مختصر المقنع للشيخ منصور البهوتي. وقد جعل هذا التعليق كالاستدراك عليه، والتنبيه على ما ذكره ليكون تنبيهاً على غيره من كتب الأصحاب عموماً.

---

(١) انظرها في (ص ٣٧ وما بعدها) من هذه الرسالة.

(٢) انظر سيرة الشيخ عبدالرحمن السعدى، جمع محمد حامد الفقي. / ٢٣.

وأشار في مقدمته إلى عدم وجود الفرصة لديه لتتبع جميع كتب الأصحاب فاكتفى بالتعليق على كتاب البهوتي ليكون تنبيها على غيره من كتبهم.

وهذا يوضح لنا أن الشيخ ابن سعدى ليس له استدراك على جميع كتب الحنابلة كما سبق الإشارة إلى ذلك، والله أعلم.

وقد فرغ الشيخ ابن سعدى من تأليف هذا الكتاب في **٣** صفر سنة **١٣٥٥**هـ.

- مختارات من الفتاوى.

طبعت هذه المختارات في آخر كتاب المختارات الجلية «طبعة السعيدية» وهي جملة مختارة من «الفتاوي السعدية» المتقدمة.

٣٦ - المواهب الربانية من الآيات القرآنية.

وهي رسالة صغيرة مشتملة على فوائد متنوعة سجلها الشيخ ابن سعدى أثناء قراءته للقرآن الكريم في شهر رمضان المبارك.

وفرغ من تأليفها في **٢٨** رمضان سنة **١٣٤٧**هـ.

٣٧ - منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين.

وهي رسالة صغيرة جامعة، اكتفى فيها الشيخ ابن سعدى بذكر القول الراجح بدليله، بدون تعرض للخلاف.

قال في مقدمتها: (أما بعد فهذا كتاب مختصر في الفقه، جمعت فيه بين المسائل والدلائل؛ لأن العلم معرفة الحق بدليله، والفقه معرفة الأحكام الشرعية الفرعية بأدلتها من الكتاب والسنة والإجماع. والقياس الصحيح. واقتصرت فيه على الأدلة المشهورة خوفاً من التطويل، وإذا كانت المسألة خلافية اقتصرت على القول الذي ترجح عندى تبعاً للأدلة الشرعية).

- منهج السالكين مختصر أصول الفقه.

ذكر هذا الكتاب صاحب مشاهير علماء نجد[1]، والذي يبدو أن الشيخ ابن سعدى ليس له كتاب بهذا الأسم، إذ أن اختصاره لأصول الفقه تقدم ذكره باسمه الذي وضعه مؤلفه وهو «رسالة لطيفه جامعة في أصول الفقه المهمة» برقم «**٢١**» فلعله التبس عليه اسم هذا الكتاب بالكتاب الذي قبله.

٣٨ - المناظرات الفقهية:

وهذا الكتاب جعله الشيخ على طريقة مناظرة بين رجلين سمى أحدهما المتوكل

(١) مشاهير علماء نجد لآل الشيخ / **٣٩٥**.

على الله والآخر المستعين بالله، فيدور بينهما حوار في المسائل الخلافية وكل واحد منهما يذكر الدليل على قوله، حتى يظهر في آخر المناظرة رجحان قول أحدهما لقوة أدلته، وهكذا في سائر المسائل الخلافية.

وقد سلك الشيخ ابن سعدي هذه الطريقة في هذا الكتاب لما يرى فيها من فوائد عظيمة ذكر جملة منها في مقدمة كتابه فقال:

(واجعلها على صورة مناظرة بين: المستعين بالله؛ والمتوكل على الله، لأن في جعلها على هذه الصورة فوائد كثيرة.

منها: تيسير مأخذ القولين ووجودها في محل واحد، وذلك من مقربات العلم.

ومنها: التمرن على المناظرة والمباحثة، التي هي من أكبر الوسائل لإدراك العلم وثبوته وتنوعه.

ومنها: التمرن على الاستدلال، والرجوع إلى أصول المسائل ليصير للعبد ملكه تامة يحسن معها الاستدلال والمناظرة والنظر.

ومنها: أن يعود الإنسان نفسه سرعة قبول الحق اذا اتضح له صوابه وبان له رجحانه.

ومنها: أن يعلم أن الخلاف في مثل هذه المسائل بين أهل العلم لا يوجب القدح والعيب والذم).

وفرغ من تأليفه في ٨ جمادى الآخره سنة **١٣٦٤**هـ.

٣٩ ـ منظومة في أحكام الفقه.

وهي منظومة طويله تتكون من أكثر من أربعمائة بيت، نظمها الشيخ ابن سعدي على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله قال في مطلعها:

(وهذه منظومة قصدى بها — تيسير أحكام قد اعتنوا بها
في فقه أحكام تفيد المبتدى — من كتب أصحاب الإمام أحمد)

ونظم الشيخ ابن سعدي هذه المنظومة وهو في السادسة والعشرين من عمره، وفرغ منها في **٢٦** شوال سنة **١٣٣٣**هـ.

٤٠ ـ منظومة في السير إلى الله والدار الآخرة.

وهي منظومة تتكون من ثمانية عشر بيتا في الحث على عبادة الله ومحبته والإنابة إليه، وفي الحث على سلوك الطريق الموصل إلى دار السلام. وله تعليق على هذه المنظومة طبع معها، وفرغ منها في **٣** شعبان سنة **١٣٣٣**هـ.

ـ واجب المسلمين.
تقدمت بعنوان الجهاد في سبيل الله، برقم «١٣».

٤١ ـ وجوب التعاون بين المسلمين، وموضوع الجهاد الديني، وبيان كليات من براهين الدين.

وهي غير الرسالة المتقدمة برقم «١٣»، وإن كانت قريبة منها في الموضوع، إذ في هذه الرسالة أيضاً حث على التعاون والتآخي وحث على الجهاد في سبيل الله.

وفي هذه الرسالة إضافة بيان جملة من الكليات من براهين الدين الإسلامي.

قال الشيخ ابن سعدي في مقدمتها: (أما بعد فهذه رسالة تتضمن التنبيه على واجب المسلمين نحو دينهم، ووجوب التعاون بينهم في جميع المصالح والمنافع الكلية الدينية والدنيوية، وعلى موضوع الجهاد الشرعي، وعلى تفصيل الضوابط الكلية في هذه المواضيع، وعلى البراهين اليقينية في أن الدين عند الله هو دين الإسلام).
وفرغ من تأليفها في ٢٠ رمضان سنة ١٣٦٧هـ.

٤٢ ـ الوسائل المفيدة للحياة السعيدة.
وهي رسالة صغيرة الحجم عظيمة النفع، تحدث فيها الشيخ ابن سعدي عن أسباب السعادة وطرقها. وعن كيفية الحصول على راحة القلب وطمأنينته، وكيفية إزالة الهموم والغموم والأحزان.

وأخيراً فهذا ما استطعت الوقوف عليه من مؤلفاته رحمه الله، وتجدر الإشارة إلى أن له فوائد منثورة وفتاوى كثيرة، حيث كانت ترد إليه أسئله شتى من أماكن متفرقة فكان يجيب عليها ويرسلها للسائل، وقد حصلت على بعضها واستفدت منها في هذا البحث.
وله أيضا تعليقات شتى في كثير مما يمر عليه من الكتب، وقد كانت الكتابة سهلة يسيره عليه[1].

ثامنا: ثناء العلماء عليه:.

لقد أشاد كثير من العلماء بفضل الشيخ ابن سعدي، وعلمه، وحسن خلقه، وطيب معشره، وحبه للخير، بل كان محل إعجابهم وثنائهم، فوصفوه بحميد الأفعال، ونعتوه بطيب الخصال.
وفيما يلي ذكر جملة من أقوال العلماء فيه:

---

(١) انظر مقدمة كتاب الرياض الناضرة لابن سعدى، بقلم أحد تلاميذه / ١٠.

أ ـ قال الشيخ العلامة عبدالعزيز بن عبدالله بن باز ـ حفظه الله ـ:

(كان رحمه الله كثير الفقه والعناية بمعرفة الراجح من المسائل الخلافية بالدليل، وكان عظيم العناية بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه العلامة ابن القيم، وكان يرجح ما قام عليه الدليل.

وكان قليلِ الكلام إلا فيما تترتب عليه فائدة، جالسته غير مرة في مكه والرياض، وكان كلامه قليلاً إلا في مسائل العلم. وكان متواضعا حسن الخلق، ومن قرأ كتبه عرف فضله وعلمه وعنايته بالدليل فرحمه الله رحمة واسعة).

ب ـ وقال الشيخ عبدالرزاق عفيفي:

(إن من قرأ مصنفات الشيخ عبدالرحمن بن ناصر بن سعدي رحمه الله وتتبعِ مؤلفاته وخالطه، وسبر حاله أيام حياته، عرف منه الدأب في خدمة العلم اطلاعا وتعليماً، ووقف منه على حسن السيرة وسماحة الخلق، واستقامة الحال، وإنصاف إخوانه وطلابه من نفسه، وطلب السلامة فيما يجر إلى شر أو يفضي إلى نزاع أو شقاق فرحمه الله رحمة واسعة)[1].

جـ ـ وقال الشيخ محمد حامد الفقي:

(لقد عرفت الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدى من أكثر من عشرين سنة فعرفت فيه العالم السلفي المحقق، الذي يبحث عن الدليل الصادق، وينقب عن البرهان الوثيق، فيمشي وراءه لا يلوى على شيء..... عرفت فيه العالم السلفي الذي فهم الإسلام الفهم الصادق، وعرف فيه دعوته القوية الصادقة إلى الأخذ بكل أسباب الحياة العزيزة القوية الكريمة النقية...)[2].

د ـ وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين:

(إن الرجل قل أن يوجد مثله في عصره في عبادته وعلمه وأخلاقه، حيث كان يعامل كلا من الصغير والكبير بحسب ما يليق بحاله، ويتفقد الفقراء، فيوصل إليهم ما يسد حاجتهم بنفسه، وكان صبوراً على ما يلم به من أذى الناس. وكان يحب العذر ممن حصلت منه هفوه حيث يوجهها توجيها يحصل به عذر من هفا).

هـ ـ وقال الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن البسام:

(لقد كان للشيخ عبدالرحمن السعدى أثر كبير، ودور بارز، في تخريج أفواج كثيرة

---

(١) مقدمة كتاب حكم شرب الدخان لابن سعدى.

(٢) سيرة الشيخ عبدالرحمن السعدى جمع محمد حامد الفقي / ٣.

من طلبة العلم، حيث جلس للتدريس وافادة الطلاب أكثر من نصف قرن من الزمان.

وكـان في زمـانه هو مرجع أهل البلاد في التدريس والوعظ والتوجيه والخطابه والإمامة والفتاوى والمشاورات، وكان محرر الوثائق والمبايعات والتوثيقات والوصايا. وغير ذلـك وكان يمتاز بكرم النفس وحسن الخلق والبشاشة والطلاقة. وكان محبوبا لدى الخاصة والعامة).

ز ـ وقال الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز العقيل:

(كـان رحمـه الله على جانب كبـير من مكارم الأخلاق والتواضع، وكان يحترم جلساءه ويوقرهم، وكان كثير التسامح مع أصحابه وغيرهم ويلتمس العذر لأحدهم مهما كان.

وكان يخالط الناس ويصبر على أذاهم، ويجيب دعوة من دعاه، ويتكلم مع كل أحد بما يناسب حاله، ويحرص على نشر العلم بينهم في مجالسهم.

وكان حريصاً على نصح الناس من خلال خطبه المنبرية ومجالسه العلمية، حريصاً على افتائهم وحل مشاكلهم الدينية والدنيوية، فجزاه الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء).

حـ ـ وقال الشيخ عبدالرحمن بن عبدالعزيز الزامل:

(دع عنك ذكر الهوى واذكر أخاً ثقة	يدعـو إلى العلـم لـم يقعد به الضجـر
شمس العلوم ومن بالفضل متصف	مفتـاح خيـر إلـى الطاعـات مبتكـر
بحـر من العلم نـال العلم في صغر	مـع التقـى حيـث ذاك الفـوز والظفـر
نـال العــلا يافعـاً تعلـو مراتبـه	ففضلـه عنـد كـل النـاس مشتهـر
بالفقـه في الديـن نـال الخير أجمعة	والفقــه في الديــن غصـن كله ثمـر).

وهي بعض أبيات من قصيدة طويلة في مدح الشيخ، نظمها في حياته[1].

ط ـ وقال الشيخ صالح بن عبدالعزيز العثيمين:

(لقـد كان رحمـه الله على جانب كبير من الأخلاق الحسنة، متواضعاً للصغير والكبير، ذا عبادة وزهد وورع، وكان فقيها محدثاً، واعظاً خطيباً، لغويا أديباً، جامعاً لفنون عديدة)[2].

---

(١) علماء نجد للبسام ٢/٤٢٨، وروضة الناظرين للقاضي، ١/٢٢٥.

(٢) سيرة الشيخ عبدالرحمن السعدى جمع محمد حامد الفقي /٢٨.

ي ـ وقال الشيخ عبدالرحمن بن حمد الفوزان:

(كان مثال الورع والزهد الصحيح، فقد أتته الدنيا تطلب وده ضاحكة مبتسمة، لكنه رفضها وأباها، وكم من مرة عرضت عليه المناصب الرفيعة، والأعمال الغالية فأصبحت محاولاتها عبثا، ولم يرض أن تفرض له المرتبات، ولا أن يجرى عليه المخصصات، بل كان قانعاً بما عنده من كفاف حتى إن مخصص إمامه الجامع الكبير- الذي تولى الصلاة فيه سنين عديدة - كان ينفقها في المصالح الخيرية وعلى الفقراء والمعوزين.

أما إفادته العلمية: فيكفيك أنه قد جلس للتدريس والإفتاء وهو في عقده الثالث حتى تخرج على يديه الكثير من القضاة والمدرسين.

ولست بحاجة إلى شاهد. فمؤلفاته المنتشرة في جميع الآفاق أكبر دليل على اتساع مداركه، وامتداد معارفه، إذ إنها لا تبحث في موضوع واحد وحسب، بل متعددة النواحي مختلفة الأهداف...)[1].

وهذه نهاية الفصل الثاني من الباب الأول.

وبالله التوفيق.

---

(١) سيرة الشيخ عبدالرحمن السعدي، جمع محمد حامد الفقي /٣٠.

الباب الثاني

جهود الشيخ عبد الرحمن بن سعدي في توضيح العقيدة

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول : جهوده في توضيح الإيمان بالله تعالى.

الفصل الثاني : جهوده في توضيح الإيمان بالنبوات.

الفصل الثالث : جهوده في توضيح الإيمان باليوم الآخر.

الفصل الرابع : جهوده في توضيح تعريف الإيمان وما يتعلق به من مسائل.

الفصل الأول

جهوده في توضيح الإيمان بالله تعالى

تمهيد:

إن عقيدة التـوحيد، وإفـراد الله وحـده بالعبادة، هي أعظم المقاصد، وأهم الغايات، فمن أجلها خلق الله الخلق وأنزل الكتب وأرسل الرسل، وجعل الجنة والنار، فالجنة دار من أطاعه وحقق توحيده ولم يشرك به شيئا، والنار دار من عصاه وجعل له نداً وشريكاً.

ومن تأمل نصوص القرآن الكريم، وجدها تبدى وتعيد في شأن العقيدة، داعية إليها محذرة من ضدها، في آيات كثيرة بطرق متنوعة وأساليب مختلفة فتارة ببيان أنها أعظم الغايات وسبب ايجاد الخلقية، وأخرى ببيان أن الكتب إنما أنزلت والرسل إنما أرسلوا وبعثوا إلا لتحقيقها، وثالثة ببيان الوعيد الشديد لمن خالف هذه العقيدة وأتى بضدها.. وهكذا.

قال تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون**﴾[1].

وقال تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾[2].

وقال تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾[3].

وقال تعالى: ﴿**إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار**﴾[4].

وغيرها من الآيات. والقرآن كله من أوله إلى آخره في تقرير هذه العقيدة؛ لأنه إما خبر عن الله عز وجل وما يجب أن يوصف به وما يجب أن ينزه عنه وهو التوحيد العلمي الخبرى الاعتقادى، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونـه فهو التوحيد الطلبي الإرادى، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرامه لأهل التوحيد وما فعل بهم في الدنيا من النصر والتأييد وما يكرمهم به في الآخرة وهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل

---

(١) سورة الذاريات / الآية ٥٦.

(٢) سورة النحل / الآية ٣٦.

(٣) سورة النساء / الآيتان ٤٨ و ١١٦.

(٤) سورة المائدة / الآية ٧٢.

بهم في الدنيا من النكال وما يفعل بهم في العقبى من العذاب فهو جزاء من خرج عن حكم توحيده، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم[1].

ثم إنه بعد التتبع والاستقراء لنصوص الكتاب والسنة من قبل علماء الإسلام تبين أن التوحيد لا يخرج عن ثلاثة أنواع:

النوع الأول: توحيد الربوبية: وهو الإقرار بربوبية الله تعالى على خلقه أجمعين بخلقه لهم ورزقه إياهم وإحيائهم وإماتتهم وتصرفه في شئونهم كلها.

والنوع الثاني: توحيد الأسماء والصفات وهو إثبات جميع ما ورد في القرآن والسنة من نعوت الكمال لله عز وجل، ونفي جميع ما نفي في الكتاب والسنة من النقائص والعيوب عن الله عز وجل، من غير تكييف ولا تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل.

والنوع الثالث: توحيد الألوهية: وهو إفراد الله وحده بجميع أنواع العبادة، وعدم صرف أى نوع منها لغير الله عز وجل.

ومن تتبع نصوص القرآن والسنة جميعها، يجد أنها لا تخرج في توحيد الله تعالى، عن هذه الأنواع الثلاثة.

وقد تناول ابن سعدي في مؤلفاته جميع هذه الأنواع، واعتنى بابرازها وبيانها وإيضاحها، ونبه على أهميتها وضرورة الحاجة إليها.

وفيما يلي سأفرد كل نوع من هذه الأنواع بمبحث خاص أبين فيه جهود الشيخ ابن سعدي في توضيحه وبيانه[2].

المبحث الأول : في توحيد الربوبية.
والمبحث الثاني : في توحيد الأسماء والصفات
والمبحث الثالث : في توحيد الألوهية.

---

(١) انظر مدارج السالكين لابن القيم ٣/٤٥٠.

(٢) وانظر كلامه عن هذه الأنواع على سبيل الإجمال: القول السديد ١٦، ١٧. والتفسير ١ / ٣٦، والتوضيح والبيان /٢٤، وسؤال وجواب /٤، وغيرها من كتبه.

المبحث الأول
توحيد الربوبيّة

عرف ابن سعدي هذا النوع من التوحيد فقال:

(هو اعتقاد أن الله سبحانه هو الرب المتفرد بالخلق والرزق والتدبير، وإنه المحيي المميت النافع الضار المتفرد بإجابة الدعاء عند الأضرار، الذي له الأمر كله وبيده الخير كله، القادر على ما يشاء ليس له في ذلك شريك، وأنه الذي ربى جميع خلقه بالنعم، وربى خواص خلقه وهم الأنبياء وأتباعهم بالعقائد الصحيحة، والأخلاق الحميدة والعلوم النافعة والأعمال الصالحة. وهداهم إلى تحقيق عبادته وطاعته وهذه التربية هي النافعة المثمرة للسعادة في الدنيا والآخرة)[1].

وعرف الرب بأنه المربي لجميع العالمين وهم من سوى الله، بخلقه إياهم وإنعامه عليهم بأنواع النعم التي لو فقدوها لما أمكنهم الحياة والبقاء على وجه الأرض[2].

وما ذكره من معاني وتوضيح لتوحيد الربوبية ولمعنى الرب، قد دلت عليه نصوص كثيرة في القرآن الكريم، فقد أوضح الله في كتابه في غير آيه أنه الرزاق المدبر المنعم القادر على كل شيء المتصرف في شئون خلقه كلها إلى غير ذلك من معاني الربوبية.

قال تعالى: **﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾**[3].

وقال تعالى: **﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾**[4].

وقال تعالى: **﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾**[5].

---

(١) القول السديد / ١٦.
(٢) التفسير ١/٣٤، و ٥/٦٢٠، والخلاصة / ٩.
(٣) سورة الذاريات / ٥٨.
(٤) سورة يس / الآيتان ٨٢، ٨٣.
(٥) سورة الحديد / الآية ١٧.

وقال تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾[1].

وقال تعالى: ﴿أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أءلهٌ مع الله بل هم قوم يعدلون، أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أءلهٌ مع الله بل أكثرهم لا يعلمون، أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءلهٌ مع الله قليلاً ما تذكرون، أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أءلهٌ مع الله تعالى الله عما يشركون، أمن يبدءوا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أءلهٌ مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[2].

وغيرها من الآيات الدالة على تفرد الله وتوحده بالخلق والرزق والإحياء والإماتة والتصرف في جميع المخلوقات، والدالة على قدرته على كل شيء وأن بيده ملكوت كل شيء وأن المرجع والمآل إليه وحده.

تربية الله لخلقه على نوعين:

ورد في القرآن الكريم ذكر ربوبية الله لخلقه وعباده في مواضع كثيرة، وهي على نوعين: ربوبية عامة شاملة لجميع المخلوقات برها وفاجرها مكلفيها وغير مكلفيها حتى الجمادات، لا يخرج عنها أحد، وهي أنه تعالى المنفرد بخلقها ورزقها وتدبيرها.

وربوبية خاصة: وهي خاصة بأولياء الله وأصفيائه وهي تربيته لهم بهدايتهم للدين والايمان وتعليمهم العلوم النافعة وتكميلهم بالأخلاق الجميلة، ودفعه عنهم الأخلاق الرذيلة، وحقيقتها التوفيق لكل خير.

قال ابن سعدى في بيان هذين النوعين: (وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة، وخاصة.

فالعامة: هي خلقه للمخلوقين ورزقهم وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

---

(١) سورة البقرة / الآية ١٦٤.

(٢) سورة النمل / الآيات ٦٠: ٦٤.

والخـاصة: تربيته لأوليائه فيربيهم بالإيمان ويوفقهم له ويكملهم ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه.

وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة من كل شر.

ولعل هذا المعنى هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة)[1].

دلالات توحيد الربوبية:

وتوحيد الربوبية له دلالات كثيرة، تدل على تفرد الله بالربوبية على خلقه أجمعين، إذ أن الله جعل لخلقه أشياء لو تأملوها وتفكروا فيها لأرشدتهم إلى أن هناك خالقاً مدبراً لهذا الخلق أجمعين وقد تعرض الشيخ ابن سعدي لهذه الدلالات في كتاباته ولا سيما في كتابه التفسير، ولكثرة هذه الدلالات فإني سأكتفى بذكر بعضها على سبيل التمثيل:

دلالة الفطرة:

وهذه في مقدمة الدلالات إذ أن الله فطر الخلق على توحيده فما من مولود إلا ويولد على فطرة التوحيد كما قال سبحانه: ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾[2].

وأخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»[3].

لذا نجد أن ابن سعدي رحمه الله يقول عند تفسير هذه الآية «إن جميع أحكام الشرائع الظاهرة والباطنة قد وضع الله في قلوب الخلق كلهم الميل إليها.

فوضع في قلوبهم محبة الحق وإيثار الحق وهذا حقيقة الفطرة ومن خرج عن هذا الأصل فلعارض عرض لفطرته أفسدها»[4].

وهذا مادل عليه حديث رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه أنه قال: (خلقت

---

(١) التفسير ٣٤/١، وانظر الخلاصة / ١١١.

(٢) سورة الروم / الآية ٣٠.

(٣) البخاري ٩٧/٢، ومسلم ٢٠٤٧/٤.

(٤) التفسير ١٢٦/٦.

عبادي حنفاء فأتتهم الشياطين فاجتالتهم)[1] رواه مسلم، وعرف الفطرة بأنها «هي الخلقة التي خلق الله عباده عليها، وجعلهم مفطورين عليها وعلى محبة الخير وإيثاره وكراهية الشر ودفعه وفطرهم حنفاء مستعدين لقبول الخير والإخلاص لله والتقرب إليه»[2].

ثم إنه يقسم شرائع الفطرة إلى قسمين: قسم يطهر القلب والروح وهو الإيمان بالله وتوابعه من خوفه ورجائه ومحبته والإنابة إليه.

وقسم: يعود إلى تطهير الظاهر ونظافته، ودفع الأوساخ والأقذار منه وهو سنن الفطرة العشر الواردة في حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت قال رسول الله ﷺ (عشر من الفطرة: قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظافر وغسل البراجم، ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء يعني الاستنجاء) قال الراوى ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة. رواه مسلم في صحيحه[3].

قال رحمه الله: «والمقصود أن الفطرة شاملة لجميع الشريعة باطنها وظاهرها؛ لأنها تنقى الباطن من الأخلاق الرذيلة وتحلية بالأخلاق الجليلة التي ترجع إلى عقائد الإيمان والتوحيد، والإخلاص لله والإنابة إليه، وتنقي الظاهر من الأنجاس والأوساخ وأسبابها وتطهره الطهارة الحسية والطهارة المعنوية»[4].

دلالة الأنفس:

إن الله سبحانه وتعالى صور الإنسان على أحسن صوره، وخلقه على أحسن تقويم كما قال سبحانه:

﴿وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير﴾[5].

وقال: **﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة﴾**[6].

وقال: **﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾**[7].

---

(١) مسلم ٤/٢١٩٧.

(٢) بهجة قلوب الأبرار / ٦٨.

(٣) مسلم ١/٢٢٣.

(٤) بهجة قلوب الأبرار ص ٧٠، ٧١.

(٥) سورة التغابن / الآية ٣.

(٦) سورة البقرة / الآية ١٣٨.

(٧) سورة التين / الآية ٤.

وقال سبحانه: ﴿**يأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك**﴾[1].

فلقد أنعم الله على الإنسان بنعمة عظيمة، حيث جعله على هذه الصورة الجميلة المتميزة عن سائر الحيوانات.

لهذا لو أن الإنسان أمعن النظر، في نفسه ومافيها من عجائب صنع الله، ونظر إلى ظاهره ومافيه من كمال خلقه، وأنه متميز عن سائر الحيوانات لعرف أن وراء ذلك رب خالق حكيم في خلقه، وعرف أن هذا الخالق هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه بهذه التصاريف لا يشاركه فيه مشارك.

ولهذا فلا يليق بمن أنعم الله عليه بهذه النعم الظاهرة والباطنة أن يكفرها أو أن يجحد إحسان الله عليه بها.

لذا يقول ابن سعدي لمن جحد هذه النعم ولم يؤد شكرها:

(أليس الله هو الذي خلقك فسواك في أحسن تقويم: وركبك تركيباً قوياً معتدلاً في أحسن الأشكال وأجمل الهيئات، فهل يليق بك أن تكفر نعمة المنعم أو تجحد إحسان المحسن. إن هذا إلا من جهلك وظلمك وعنادك وغشمك فاحمد الله إذ لم يجعل صورتك صوره كلب أو حمار أو نحوهما من الحيوانات)[2].

ولو تأمل الإنسان في نفسه التي بين جنبيه ومافيها من عجائب صنع الله والتي بدونها يصبح الإنسان جثة هامدة بلا حراك؛ لهدته إلى رب حكيم خبير.

يقول ابن سعدي في تقرير هذا المعنى عند قول الله تعالى ﴿**ونفس وماسواها**﴾[3].

(وعلى كل حال فالنفس آية كبيرة من آياته التي يحق الإقسام بها فإنها في غاية اللطف والخفة، سريعة التنقل والحركة والتغيير والتأثر، والانفعالات النفسية من الهمة والإرادة والقصد والحب والغضب وهي التي لولاها لكان البدن مجرد تمثال لا فائدة فيه، وتسويتها على ماهي عليه آية من آيات الله العظيمة.

والمقصود أن نفس الإنسان من أعظم الأدلة على وجود الله وحده ومن ثم تفرده

---

(١) سورة الأنفطار / الآيتان ٦، ٧.

(٢) التفسير ٥٨٣/٧.

(٣) سورة الشمس / الآية ٧.

بالعبادة، وقد أفلح من طهر نفسه من الذنوب ونقاها من العيوب ورقاها بطاعة الله وعلاها بالعلم النافع والعمل الصالح)[1].

دلالة الآفاق:

قال الله تعالى في هذه الدلالة العظيمة: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد**﴾[2].

إذ أن من آيات الله الدالة عليه، دلالة الآفاق وما في هذا الكون من سماء وأرض، وما اشتملت عليه السماء من نجوم وكواكب وما اشتملت عليه الأرض من جبال وأشجار وأنهار وغيرها، مما خلق الله في السموات والأرض.

فلو تأملها الإنسان وتأمل صنيعها **وإتقانها** لدلته وارشدته إلى أن هناك خالقاً لهذه الأكوان وأنه عليم حكيم.

قال الله تعالى: ﴿**الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون، وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون، وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾[3].

قال ابن سعدي عند قوله تعالى: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق....**﴾:

(وقد فعل تعالى فإنه أرى عباده من الآيات مابه تبين أنه الحق، ولكن الله هو الموفق للإيمان من شاء، والخاذل لمن يشاء)[4].

وقال في الرياض الناضرة: (فهذا خبره تعالى عن أمور مستقبلة: أنه يرى عباده من الآيات والبراهين في الآفاق وفي الأنفس ما يدلهم على أن القرآن حق والرسول حق وما جاء به هو الحق...)[5].

والمقصود أن الدلالات على تفرد الله وحده بالخلق والرزق والإحياء والإماته كثيرة جداً.

---

(١) التفسير ٧/٦٣٣ بتصرف.

(٢) سورة فصلت / ٥٣.

(٣) سورة الرعد / الآيات ٢، ٣، ٤.

(٤) التفسير ٦/٥٩١.

(٥) الرياض الناضرة / ١٤٤.

وإن كثرتها وتعددها يعد من رحمة الله ولطفه بعباده حيث أكثر لهم الطرق الموصله إليه، فتعالت حكمته وجل شأنه.

وكما قال ابن سعدي رحمه الله: (كلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات وتغلغل فكـره في بدائع الكائنات علم أنها خلقت للحق بالحق وأنها صحائف آيات وكتب براهين ودلالات على جميع ما أخبر به عن نفسه ووحدانيته وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر وأنها مدبرات مسخرات ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها فتعـرف أن العـالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون وإليه صامدون، وأنه الغنى بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله لا هو ولا رب سواه)[1].

وقد عقد رحمه الله في كتابه الرياض الناضرة فصلا في الإشارة إلى البراهين العقلية والفطرية على ربوبية الله وإلاهيته.

قال في مقدمته: (وليس القصد في هذا الفصل ذكر الأدلة النقلية عليها فإنها واضحة جلية متقررة عند الخواص والعوام، وهي وحدها كافية وافية بالمقصود معرفة بالله جملة وتفصيلا. ولكن نريد أن نشير إشارة إلى أدلتها وبراهينها العقلية التي يخضع لها كل عاقل منصف، وينكرها كل مستكبر مكابر مباهت. . . .)[2].

ثم أخذ يعدد جملة من الأدلة على وجود الله واستحقاقه للعبادة. والأدلة على ذلك كثيرة ففي كل شيء آية تدل على أنه واحد.

ولكثرة دلالات هذا النوع من التوحيد لا تجد أحداً من الخلق ينكره إلا مكابرة وعناداً.

فالمشركون الذين حاربهم رسول الله ﷺ وأباح دماءهم وأموالهم كانوا مقرين بهذا التـوحيد معـترفـين لله به شاهـدين له بالـوحدانية والانفراد بالخلق والرزق والإحياء والإماته، وإنزال المطر وعلم الغيب وغير ذلك، وقد بين الله سبحانه في القرآن الكريم اعترافهم وإقرارهم بذلك في أكثر من آية.

قال تعالى: **﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون، الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم، ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون﴾**[3].

---

(١) الخلاصة / ٢١.

(٢) الرياض الناضرة / ٢٥٨ وما بعدها.

(٣) سورة العنكبوت / الآيات ٦١، ٦٢، ٦٣.

وقال: ﴿**ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون**﴾[1].

وقال: ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون**﴾[2].

قال ابن كثير رحمه الله: (وما أحسن ما قال زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة:

فلا تكتمن الله ما في قلوبكم ... ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ... ليوم حساب أو يعجل فينقم

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلي بوجود الصانع وعلمه بالجزئيات وبالمعاد وبالجزاء وبكتابة الأعمال في الصحف ليوم القيامة...)[3].

فالمشركون إذاً مقرون بهذا التوحيد ومعترفون به: ولكن مع ذلك فإن إقرارهم هذا لا ينفعهم لعدم اعترافهم بتوحيد الألوهية وهو توحيد الله بأفعال عبيده.

واستحقوا المحاربة والعداء، بل إن إقرارهم بتوحيد الربوبية يعد حجة عليهم وملزماً لهم بإفراد الله وحده بالعبادة بأنواعها من دعاء ورجاء وخوف وذبح ونذر واستغاثة وغيرها من أنواع العبادة؛ لأن من أقر أن الله هو وحده الخالق الرازق المدبر فإنه يلزمه أن يفرده وحده بالعبادة والتأله والذل.

قال ابن سعدي في تقرير هذه الحقيقة: «والمشركون الذين يتخذون الأنداد مع الله لا يسوونهم بالله في الخلق والرزق وإنما يسوونهم به في العبادة فيعبدونهم ليقربوهم إليه»[4].

ويقول عند تفسير الآيات المتقدمة التي فيها إقرار المشركين بوحدانية الله في الخلق والرزق والإحياء والإماته... الخ يقول «هذا استدلال على المشركين المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة وإلزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية، يلزمهم به الإقرار بتوحيد الألوهية»[5].

ولذا فإن نصوص القرآن التي جاءت لتقرير توحيد الربوبية يستدل بها على وجوب توحيد الألوهية وإفراده بالعباده، وقد أوضح ابن سعدي ذلك وبينه في مواضع متعددة

---

(١) سورة الزخرف / الآية ٨٧.

(٢) سورة لقمان / الآية ٢٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤٣٦.

(٤) التفسير ١/١٩٥.

(٥) التفسير٦/١٠٤، ٦/١٦٥، ٦/٣٦٧.

ومن ذلك ما قاله عند قول الله سبحانه: **﴿يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون، الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾**[1].

قال: هذه الآية: (جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده والنهي عن عبادة ماسواه وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته وبطلان عبادة ماسواه، وهو ذكر توحيد الربوبية المتضمن انفراده بالخلق والرزق والتدبير) فهو يرى إن انفراد الله وحده بالخلق والرزق والتدبير دليل واضح على وجوب إفراده بجميع أنواع العباده؛ لذا قال بعد ما تقدم: (فإذا كان أحد مقرا بأنه ليس له شريك بذلك فعليه الإقرار بأن الله ليس له شريك في عبادته) بل إنه يرى أن هذا أوضح دليل على وجوب إفراد الله وحده بالعبادة؛ لذا يقول: (وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري تعالى وبطلان الشرك)[2].

وفي الآية المتقدمة نفسها ما يوضح أيضاً أن المشركين مقرون بتوحيد الربوبية حيث يقول سبحانه **﴿فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾** فقوله سبحانه (وأنتم تعلمون). يوضح أن المشركين يعلمون أن الله ليس له شريك ولا نظير لا في الخلق والرزق والتدبير ولا في الألوهية والكمال، ولكنهم مع ذلك يشركون معه في العبادة.

لذا قال ابن سعدي مخاطباً هؤلاء: (كيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب وأسفه السفه)[3].

والمقصود: أن هذا النوع من التوحيد «توحيد الربوبية» لا يوجد أحد من الخلق ينكره، حتى فرعون الطاغية الذي ادعى الألوهية وقال عن نفسه (إنه رب العالمين) يقرر ويعترف بهذا التوحيد، وإنكاره له من قبيل المكابرة والجحود، قال تعالى في بيان ذلك: **﴿قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يافرعون مثبوراً﴾**[4] أي إنك تعلم يافرعون أن المنزل لهذه الآيات هو رب السموات والأرض بصائر منه لعباده فإنكارك ليس على الحقيقة بل ترويجا على قومك واستخفافاً لهم.

---

(١) سورة البقرة / الآية ٢٤

(٢) التفسير ١/٥٧.

(٣) التفسير ١/٥٨.

(٤) سورة الإسراء / الآية ١٠٢.

وقال تعالى في بيان ذلك أيضاً: ﴿**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين**﴾[1].

قال ابن سعدي: (ليس جحدهم مستنداً إلى الشك والريب، وإنما جحدهم مع علمهم وتيقنهم بصحتها ظلماً منهم لحق ربهم ولأنفسهم، وعلوا على الحق وعلى العباد وعلى الانقياد للرسل)[2].

وأيضا إبليس لعنه الله، وهو أضل الخلق على الإطلاق، يقر بهذا التوحيد ويعترف به: ﴿**قال رب فانظرني إلى يوم يبعثون**﴾[3].

﴿**قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين**﴾[4].

﴿**قال أأسجد لمن خلقت طينا**﴾[5]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

فهو يقر ويعترف بأن الله هو الرب وأنه الخالق المدبر.

وبالجملة هذا النوع من التوحيد لا ينكره أحد إلا مكابر أو معاند

كلامه عن ظاهرة الالحاد والملحدين:

إلا أنه ظهر في الأزمان المتأخرة طائفة خبيثة بلغ بها الزيغ والضلال إلى أن أنكرت وجود الرب، وقالوا إن هذا الكون حدث من قبيل الصدفة، وليس له خالق ولا موجد، فضلوا بذلك ضلالاً مبينا، وهؤلاء هم الماديون الملحدون.

وقد تصدى لهم علماء الإسلام فأنكروا باطلهم وبينوا ضلالهم، في مؤلفات كثيرة، ومن أبرز من كتب فيهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حيث نقض ما قعدوا من قواعد وهدم ما أصلوا من أصول وبين عوارهم وزيغهم، وبعدهم عن الصراط المستقيم.

ومن جملة من كتب في هؤلاء وأجاد الشيخ ابن سعدي حيث إنه تناول هذه الطائفة الخبيثة في مؤلفاته، وأظهر زيغها وفساد معتقدها.

قال رحمه الله في التعريف بهذه الطائفة:

(وقد نبغت في هذه الأزمان المتأخرة فرقة خبيثة، هم من أضل الخلق وأجهلهم

---

(١) سورة النمل / الاية ١٤.

(٢) التفسير ٥/٥٦٥، ٥٦٦.

(٣) سورة الحجر / الآية ٣٦.

(٤) سورة الحجر / الآية ٣٩.

(٥) سورة الإسراء / الآية ٦١.

وأعظمهم غروراً، وهم الماديون الملحدون)[1].

وبـيـن أن سبب ضلالهم هو ما أوغلوا فيه من علوم الـطبيعـة فقـال إنهم (. . . . اغتروا لما عرفوا بعض العلوم الطبيعية ووقفت عقولهم عندها، وقالوا لا نثبت إلا ما وصلت إليه معارفنا وعقولنا وما سوى ذلك ننفيه ولا نعترف به)[2].

فانكـروا بذلـك خالق الكـون ومسخره، ونسبوا الخلق والإيجاد والتصرف إلى الطبيعة. وقالوا لا نؤمن إلا بالأشياء المادية المحسوسة.

وقد وضعوا لباطلهم هذا أصولاً يمشون عليها ويقلد بعضهم بعضاً فيها، وهذه الأصول كلها في غاية الضعف والفساد، قال عنها ابن سعدي رحمه الله: (وهي في غاية الفساد، يكفي اللبيب مجرد تصورها عن إقامة البراهين على نقضها، لكونها مناقضة للعقل والنقل ولكنهم زخرفوها وروجوها فانخدع بها أكثر الخلق)[3].

وقد بين ابن سعدي رحمه الله أن عندهم أصولاً كثيرة يبنون عليها عقائدهم وأن هذه الأصول ترجع إلى أصل خبيث فاسد، وبين مصدره.

فقال: (أعظمها عندهم أصل خبيث منقول عن معلمهم الأول أرسطو اليوناني المعروف بالإلحاد والجحد لرب العالمين. . . وهو أنه من أراد الشروع في المعارف الإلهية فليمح من قلبه جميع العلوم والاعتقادات، وليسع في إزالتها من قلبه بحسب مقدوره، وليشك في الأشياء، ثم ليكتف بعقله وخياله ورأيه.

وكملوا هذا الأصـل الخبيث بحصرهم للمعلومـات بالمحسـوسات، وما سوى ما أدركوه بحواسهم نفوه)[4].

ثم بين أن هذا الأصل أفسد عليهم علومهم وعقولهم وأديانهم، وذكر أن العلماء بينوا بطلان أصولهم، وأن من أبلغ من كتب في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية.

ثم إنه ـ رحمه الله ـ قد اهتم ببيان فساد هذا الأصل اهتماماً كبيراً، وأطال في نقضه واظهار بطلانه.

قال: (إن هؤلاء الملحدين حصروا العلوم المدركة في دائرة ضيقة، فما أدركوه بحواسهم وتجاربهم أثبتوه، وما لم يدركوه بذلك نفوه وأنكروه فانكروا من أجل ذلك علوم

---

(١) الخلاصة / ١٠٥، ١٠٦، والخلاصة أيضا / ١٩٠، ١٩١.

(٢) الفتاوي السعدية / ٤٦.

(٣) الأدلة القواطع / ٣.

(٤) الأدلة القواطع / ٤.

الغيب كلها وجحدوا ربوبية الله وأفعاله وعطلوه من صفاته وأفعاله إذ لم يدخل ذلك تحت مداركهم القاصرة وهذا باطل شرعاً وعقلاً :ـ

أما الشرع: فجميع الكتب السماوية وجميع الرسل تبطل قولهم وحصرهم العلوم بمدركات الحس الظاهرة، ونفيهم لما عداها، وتثبت بالبراهين اليقينية من علوم الغيب ومن العلوم التي لا تدرك إلا بالوحي من الحقائق النافعة الصحيحة والمعارف الصادقة مالا نسبه لعلومهم كلها إليها من أولها إلى آخرها.......

وأما العقل: فجميع العقلاء المعتبرين يثبتون للعلوم مدارك غير مدارك الحس، فإن مدارك العلوم: الحس والعقل والأخبار الصادقة فالأخبار الصادقة أعلاها وأصدقها وأحقها بالحق خبر الله وخبر رسله وفي ذلك تبيان لكل شيء، وهدى للخلائق وتوضيح للحقائق)[1].

ويرى ـ رحمه الله ـ أن أعظم حل لهذه المشاكل وغيرها، معرفة دين الإسلام والعمل به؛ لأنه بطبيعته وبراهينه وآياته يضمحل أمامه كل باطل، وخصوصاً أقبح الباطل وأشنعه وأشره منافاة للدين والعقل وهو الإلحاد.

بل إنه رحمه الله يرى أن التماس الحلول لمثل هذه المشاكل من غير الحلول الإسلامية التي تبنى على الكتاب والسنة أمر لا يجدي ولا ينفع بل يزيد في المشكلة حيث يقول:

(ما من مشكلة كبيرة ولا صغيرة، إلا إذا بنيت على الشريعة الإسلامية المحضة تمت أمورها واستقامت أحوالها وصلحت من جميع الوجوه)[2].

وأحكام الشريعة في غاية القوة والرصانة وشاملة لجميع المشاكل وليست بحاجة إلى حلول مستوردة لما يجد من حوادث بل لا يمكن اصلاح الأمور إلا بها بخلاف غيرها من القوانين.

لذلك فإنه قام بمعالجة مشكلة الإلحاد على ضوء الكتاب والسنة، واهتم بمعالجة هذه المشكلة اهتماماً كبيراً، ومما يؤكد اهتمامه بها، أنه إضافة إلى تناوله لعلاجها ضمن كتبه، فقد أفرد فيها رساله خاصة سماها: «الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين».

وقد أجاد رحمه الله في هذه الرسالة الرد على هؤلاء الملحدين، حيث تناول الرد

---

(١) الأدلة القواطع / ١٤، ١٥.
(٢) الأدلة القواطع / ٤٦.

عليهم وبيان زيغهم من ثلاثة وثمانين وجهاً، اختار جملة منها من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، الذي ظهر تأثره بهما على مؤلفاته كما مر معنا في المقدمة.

وكانت ردوده عليهم في غاية القوة والرصانة، ولجودتها ورصانتها استحقت أن توصف هذه الردود وهذا الكتاب بأنه (نازل جميع طوائف الملحدين وتحداهم وأبطل أصولهم وفند مآخذهم وهدم قواعدهم وزلزل بنيانهم وبين مخالفتهم للعقل والفطرة كما خالفوا جميع الأديان الصحيحة)[1].

وهذه نماذج من هذه الأوجه التي رد بها الشيخ على هؤلاء الملحدين. وأكثرها خاصة بأصلهم الفاسد المتقدم ذكره وهو:

- (أنه من أراد الشروع في المعارف الإلهية فليمح من قلبه جميع العلوم والاعتقادات. . . . . .)[2].

ذكر بعض هذه الأوجه:-

- (أن يقال هذه الوصية مخالفة لما بعث الله به رسله وأنزل كتبه فإنه بعث رسله مذكرين للعباد ما فطروا عليه من الإقرار بوحدانية الله ووجوب شكر نعمه، وافتراض الحب الكامل والتعظيم التام لله المتفضل بالنعم الظاهرة والباطنة، ومذكرين لهم بالأمر بما فطرت العقول على استحسانه كالصدق والبر والإحسان والأخلاق الجميلة، وبالنهي عما فطرت العقول على استقباحه من الكذب والظلم والعدوان وجميع الأخلاق الرذيلة، فكيف يؤمر الناس أن يمحوا من قلوبهم وفطرهم هذه الأمور؟

وهل هذا إلا نهي عن جميع مواد السعادة والفلاح والصلاح، وأمر بكل منكر وفحشاء وسوء وشر وفساد؟

وفي هذا من تقويض دعائم الخير والصلاح، والاستبدال بها أصول الشر والفساد والفوضى في العلوم والعقائد والأخلاق، مالا منتهى لشره وضرره)[3].

- (إن المقصود الأعظم من تأصيل هذا الأصل الخبيث الكُفر بما جاءت به الرسل والانحلال عنه وإلا فأهله من أكذب الناس فإنهم متمسكون غاية التمسك بما عليه أئمتهم الملحدون، وأقوالهم وعقائدهم مقدمة عندهم على ماجاءت به الرسل ويتعصبون لها غاية التعصب، فلو كانوا صادقين محقين لوجب عليهم أن يمحوا من قلوبهم أقوال أئمتهم وعقائدهم التي مازالوا متمسكين بها ومقلدين لها تقليداً أعمى،

(١) الأدلة القواطع والبراهين / ٨٧.

(٢) الأدلة القواطع والبراهين / ٤.

(٣) الأدلة القواطع والبراهين / ٧.

فالغرض من كلامهم معروف وهو قصدهم الانحلال من الدين الصحيح والتمسك بأقوال هؤلاء الضالين)[1].

- (أن يقال لهؤلاء الملحدين المنكرين لأمور الغيب التي أخبر الله بها ورسوله لم أنكرتموها؟

فيجيبون بأنها لم تدخل تحت علومنا التي بنيناها على إدراكات الحواس والتجارب، فيقال لهم: قدروا أنها لم تدخل في ذلك فإن طرق العلوم اليقينية كثيرة، وأكثرها لا تدخل تحت إدراكاتكم، فإن إدراكاتكم قاصرة حتى باعترافكم فإنكم تعترفون أن مدركاتكم خاصة ببعض المواد الأرضية وأسبابها وعللها ومع ذلك لم تدركوها كلها، باعترافكم وأعمالكم فإنكم لا تزلون تبحثون وتعملون التجارب التي تنجح مرة وتخفق مرات)[2].

هذه بعض الأوجه التي رد بها الشيخ على هؤلاء الملحدين، ولقد أطال في ذكر الردود عليهم وبيان زيغهم، وإن رغب القارىء في الاستزادة منها فليراجع كتابه العظيم «الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين».

وفي الحقيقة إن كتابه هذا ظاهر الأهمية؛ لجودة مادته ولشدة الحاجة إليه في هذا الزمن الذي طغت فيه المادة؛ وكثر فيه الالحاد.

رده على القصيمي في إلحاده، وإنكاره لوجود الرب:

إن هذه الدعوة الإلحادية التي تدعو إلى الإباحية والتحلل الخلقي، وإنكار وجود الرب ونسبة الخلق والتصرف إلى الطبيعة، مع ظهور بطلانها وجلاء نكارتها، فإنها قد راجت على بعض أبناء المسلمين وافتتنوا بها واغتروا ببهرجتها فمالوا إليها واصبحوا من دعاتها. وهذا غاية الانتكاس والخسران والعياذ بالله.

إذ أن التحول من الهدى إلى الضلال ومن النور إلى العمى ومن الإيمان إلى الكفر، يعد من أكبر الانتكاس والخسران، ولا سيما إذا كان من أحد العلماء العاملين الداعين إلى الله.

وهذا ما حصل من عبدالله القصيمي الذي كان من الدعاة البارزين ومعروفاً بالعلم والانحياز لمذهب السلف الصالح وكانت تصانيفه مشحونة بنصر الحق والرد على المبتدعين والملحدين، وكانت له عند الناس سمعه حسنه وذكر طيب[3].

(١) الأدلة القواطع والبراهين / ١١.
(٢) الأدلة القواطع والبراهين / ٢٤.
(٣) بيان الهدى من الضلال للسويح / ٥، وتنزيه الدين/٣.

بعد ذلك كله انقلب رأساً على عقب فصار عدواً لدوداً للإسلام، فأصبح يرى أن الدين سبب لتأخر المسلمين وضعفهم، وصار الدين عنده كالأغلال التي تعوق الإنسان عن مراده، وزاد على ذلك فأنكر الخالق وزعم أنه لا فرق بين الخالق والمخلوق وأن من فرق بينهما من الأنبياء والرسل وأهل الأديان فهو غالط ضال.

وزعم أن الطبيعة تتفاعل وتتطور وتدبر أمر العالم وتدبره وتنظم الأمور الجليلة والدقيقة، وأنكر قضاء الله وقدره، وأرجع ذلك إلى العلم بانتظام الطبيعة وهذا إنكار منه لله ولأفعاله ولصفاته[1].

وأنكر الرسالة والمعاد والملائكة والجن وسخر من علماء المسلمين، وأخذ يدعو إلى الإباحية والتحلل والانسلاخ من الدين، ويمدح الأوربيين والمستعمرين لبلاد الإسلام ويدعو إلى تعظيمهم وإدخالهم في البلاد الإسلامية[2].

إلى غير ذلك من الترهات والضلالات التي أخذ يدعو إليه ويروجها، والتي ألف من أجل نشرها كتابه «هذى هي الأغلال». ويقصد بالأغلال أوامر الله ونواهيه والتمسك بالدين الإسلامي إذ أن هذا عنده أعظم الأسباب لتخلف المسلمين وتأخرهم الحضاري، وعلى العكس من ذلك يرى أن سبب تقدم الغرب هو تحللهم من الدين والقيم والأخلاق، وهذا غاية البهت والضلال والانحراف.

لذا فإنه قام جماعة من علماء المسلمين أمام ضلاله، وبينوا للناس زيغه وانحلاله، وبينوا كذبه وافتراءه وفساد ما يدعو إليه من عقائد منحرفة، وقيم منحطه فظهرت مؤلفات عديدة في الرد عليه لعدد من العلماء.

منها: بيان الهدى من الضلال في الرد على صاحب الأغلال، للشيخ إبراهيم بن عبدالعزيز السويح، ومنها: الرد القويم على ملحد القصيم للشيخ عبدالله بن علي بن يابس.

ومن هؤلاء العلماء الذين قاموا بالرد عليه الشيخ ابن سعدى، إذ ألف في ذلك رسالته القيمة «تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله».

قال رحمه الله في مقدمتها (أما بعد: فإني قد وقفت على كتاب صنفه عبدالله بن علي القصيمي سماه «هذى هي الأغلال» فإذا هو محتو على نبذ الدين والدعاية إلى نبذه والانحلال عنه من كل وجه)[3].

---

(١) تنزيه الدين / ٦، ٧.

(٢) الرد القويم لابن يابس / ٩.

(٣) تنزيه الدين / ٢.

ثم ذكر سبب تأليفها فقال (فوجب على كل من عنده علم أن يبين ما يحتوى عليه كتابه من العظائم خشية اغترار من ليس له بصيرة بكلامه). ثم ذكر مجمل ما في كتاب الأغلال من الضلال والانحراف وما فيه من الآراء الباطلة. ثم بعد ذلك تناول الرد عليه في هذه الآراء الباطلة والعقائد الفاسدة على وجه التفصيل.

ومن ردوده عليه في قضية الالحاد قوله بعد أن ذكر رأى صاحب الأغلال في أن المصائب تحدث من الطبيعة وأن الإيمان بالله وباليوم الآخر يمنع الرقي.

(وقول وصل إلى هذا الحد ليس بعده تقدم إلى الكفر، وإنما هو النهاية في الكفر والتعطيل والجحود لرب العالمين والخروج من الديانات السماوية كلها وهو غاية الخروج من العقل والحس، فإن قضية الإيمان بالله ورسوله هي أكبر القضايا وأعظمها وأوضحها)[1].

والمقصود أن ابن سعدي اهتم بقضية هذا القصيمي وانحلاله ورد عليه رداً علمياً هادفاً، يقصد من ورائه بيان زيغ هذا الرجل وإلحاده؛ لكي لا يغتر أحد من المسلمين به، وهذا من نصحه واهتمامه رحمه الله بمسألة العقيدة والذود عن حماها.

ومن مؤلفاته في الرد على هؤلاء الملحدين وبيان انحطاط ما هم عليه من معتقد فاسد، رسالة صغيرة سماها «انتصار الحق» وهي على صغر حجمها نافعة عظيمة لأنه تناول فيها معالجة مشكلة الإلحاد على طريقة الحوار بين شخص مسلم وبين شخص مفتتن بالإلحاد فسمى الأول الناصح والثاني المنصوح.

ومما في هذه الرسالة القيمة قوله رحمه الله (قال المنصوح... أريد أن توضح لي توضيحاً تاماً بطلان ما عليه هؤلاء الملحدون فإنهم يقيمون الشبه المتنوعة في ترويج قولهم ليغتر به من لا بصيرة له.

فقال الناصح: اعلم أن الحقَ والباطل متقابلان وأن الخيرَ والشر متنافيان، وبمعرفة واحدٍ من الضدين يظهر حسن الآخر أو قبحه...

إلى أن قال: (فهذا الدين الحق الذي دعت إليه الرسل عموماً وخاتمهُم محمد ﷺ خصوصاً قد بنى وأسس على التوحيد، والتأله لله وحده لا شريك له حباً وخوفاً ورجاء وإخلاصاً وانقيادًا وإذعاناً لربوبيته واستسلاماً لعبوديته قد دل على هذا الأصل الذي هو أكبر جميع أصول الأدلة العقلية والفطرية، وقد دلت عليه جميع الكتب السماوية وقرره جميع الأنبياء والمرسلين وأتباعهم من أهل العلوم الراسخة والألباب الرزينة

---

(١) تنزيه الدين / ١٣.

والأخلاق العالية والأداب السامية كل أولئك اتفقوا على أن الله منفرد بالوحدانية منعوت بكل صفة كمال موصوف بغاية الجلال والعظمة والكبرياء والجمال، وأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، وأنه منزه عن كل صفة نقص وعن مماثلة المخلوقين، وأنه لا يستحق العبادة والحمد والثناء والشكر إلا هو، فالدين الإسلامي على هذا الأصل أسس وعليه قام واستقام.

وأما ما عليه أهل الإلحاد فإنه ينافي هذا الأصل غاية المنافاة فإنه مبني على إنكار الباري رأساً، فضلاً عن الاعتراف له بالكمال وعن القيام بأوجب الواجبات وأفرض الفروض وهو عبوديته وحده لا شريك له، فأهل هذا المذهب أعظم الخلق مكابرة وإنكاراً لأظهر الأشياء وأوضحها فمن أنكر الله فبأى شيء يعترف؟ (**فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون**) وهؤلاء أبعد الناس عن عبودية الله والإنابة إليه وعن التخلق بالأخلاق الفاضلة التي تدعو إليها الشرائع وتخضع لها العقول الصحيحة، ومع خلو قلوبهم من توحيد الله والإيمان به وتوابع ذلك فهم أجهل الناس وأقلهم بصيرة ومعرفة بشريعة الإسلام وأصول الدين وفروعه)[1].

وبهذه المقارنة بين ما عليه المؤمنون الموحدون وبين ما عليه أهل الإلحاد الكافرون، يظهر لكل صاحب بصيره أن الفرق كبير والبون شاسع بين الفريقين ﴿**أفمن يعلم أن ماأنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى**﴾[2].

﴿**قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور**﴾[3].

ويظهر أيضاً لكل عاقل بطلان ما عليه هؤلاء الملاحدة، وأنهم في عماية وضلال وبعد عن الحق.

والمقصود أن مشكلة الإلحاد من أخطر المشاكل المعاصرة، وتحتاج إلى جهد من العلماء وتصد لها لإظهار بطلانها لكي لا تنطلي على أصحاب النفوس الضعيفة.

ولقد أعجبني الشيخ ابن سعدي ـ رحمه الله ـ باهتمامه بهذه المشكلة ومعالجته لها في كثير من مؤلفاته.

وهنا تظهر لنا فائدة هامة، تتعلق بمنهج الشيخ ابن سعدي في العقيدة.

وهي أن اهتمام السعدي بمعالجة مشكلة الإلحاد والملحدين يوضح لنا أن منهجه

---

(١) انتصار الحق / ١٠، ١١، ١٢.
(٢) سورة الرعد / الآية ١٩.
(٣) سورة الرعد / الآية ١٦.

في العقيدة يمتاز بالشمول كما هو حال السلف الصالح في ذلك أي أنهم يتناولون في خدمتهم للعقيدة تأصيل القواعد، وشرح الأصول، والرد على المخالفين وإن كانوا من الماديين الملحدين المنكرين لوجود الرب سبحانه وغيرهم.

وهذا يبين لنا عدم صحة قول من يقول إن السلف ومن سار على نهجهم لا يهتمون بالرد على الملحدين والشيوعيين وغيرهم، وإنما كلامهم قاصر على توضيح توحيد الأسماء والصفات.

فقد ظهر لك أيها القارىء: أن الشيخ ابن سعدي ومن قبله ابن تيمية قد تناولوا مثل هذه المشاكل وبينوا فسادها وضلالها كما تناولوا غيرها.

فليس ردهم قاصراً على طائفة معينة أو فرقة معينة، وإنما ردهم شامل لكل من خالف عقيدة التوحيد، وهذا هو المنهج الحق الذي يجب أن يسار عليه.

والخلاصة من كل ما تقدم هو ما قاله رحمه الله (إن جميع أهل الأديان من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم حتى المشركين متفقون على إثبات ربوبية الله وأنه الأول الذي ليس قبله شيء الخالق لكل شيء الرازق المدبر لكل شيء، وأئمتهم في هذه الأنبياء والمرسلون، وأهل الهدى من العلماء الربانيين أهل العلوم الغزيرة والمعارف الصافية، الأولين منهم والآخرين على هذا الأصل العظيم متفقون، على علم وبصيرة ويقين قد اطمأنت قلوبهم بذلك وسكنت نفوسهم به وصار في قلوبهم أكبر الحقائق وأصحها وأوضحها وخالفهم من هذا شرذمة من زنادقة الدهريين الذين يقولون **(ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر)**[(١)].

وسلك سبيلهم زنادقة الماديين، وهم لم ينكروا ذلك عن علم دلهم عليه ولا سمع ولا عقل ولا فطره، إنما هو مجرد استبعادات وجحود ومكابرات)[(٢)].

وليست المشكلة في هؤلاء الملحدين إنكارهم لوجود الرب فقط بل إنهم لو اعترفوا بوجوده فإن ذلك لا يكفي في دخولهم الإسلام بل تصبح حالهم كحال المشركين الذين حاربهم الرسول ﷺ لذلك يقول ابن سعدي: (إن كل برهان أبطل الله به الشرك وقرر به التوحيد فهو برهان على بطلان الإلحاد والجحود؛ لأن المشركين يعترفون بالله ويعلمون أنه الخالق الرازق المدبر، ولكنهم يشركون في عبادتهم فيعبدون الله ويعبدون غيره)[(٣)].

---

(١) سورة الجاثية / الآية ٢٤.

(٢) الأدلة القواطع والبراهين / ٨٠.

(٣) الأدلة القواطع والبراهين / ٦٥.

والمقصود أن من اعترف بوجود الله من غير إفراد له بالعبادة ومن غير إقرار بأسمائه الحسنى فإن إيمانه بوجود الله لا ينفعه، بل لابد مع الإقرار أن يجرد التوحيد لله وحده، وسيأتي بيان ذلك في توحيد الألوهية.

القضاء والقدر:

إن الإيمان بالقضاء والقدر أحد أركان الإيمان الستة، كما جاء في حديث جبريل «وأن تؤمن بالقدر خيره وشره»[1].

وقد دل على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر نصوص كثيرة.

قال تعالى: **﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾**[2].

وقال تعالى: **﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾**[3].

وقال تعالى: **﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾**[4].

وقال تعالى: **﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾**[5].

والإيمان بالقضاء والقدر داخل في الإيمان بربوبية الله على خلقه إذ أن من آمن بأن الله هو الخالق المدبر المتصرف في شؤون خلقه كلها فهو مؤمن بالقضاء والقدر.

وقد أشار ابن سعدي إلى دخول الإيمان بالقضاء والقدر في الإيمان بربوبية الله.

فبعد أن عرف توحيد الربوبية بأنه اعتقاد انفراد الرب بالخلق والرزق والتدبير قال: (فـدخل في توحيد الربوبية إثبات القضاء والقدر، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه على كل شيء قدير وأنه الغني الحميد وما سواه فقير إليه من كل وجه)[6].

وقال: (ولا يتم توحيد الربوبية حتى يعتقد العبد أن جميع أفعال العباد مخلوقه لله تعالى، وأن مشيئتهم تابعة لمشيئة الله، وأن لهم قدرة وإرادة تقع بها أفعالهم، وهي متعلقـة بالمدح والذم والأمر والنهي والثواب والعقاب، وأنه لا يتنافى الأمران: إثبات

---

(١) أخرجه مسلم ١/٣٧ من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

(٢) سورة القمر / الآية ٤٩.

(٣) سورة الحديد / الآية ٢٢.

(٤) سورة التوبة / الآية ٥١.

(٥) سورة الأحزاب / الآية ٣٨.

(٦) الفتاوي السعدية / ١١.

مشيئة الله العامة الشاملة للذوات والأفعال والصفات. وإثبات قدرة العبد على أفعاله وأقواله)[1].

ونظراً لدخول إثبات القضاء والقدر في توحيد الربوبية، فقد جعلت الحديث عنه عقب الحديث عن توحيد الربوبية.

وقد تحدث ابن سعدي عن مسألة القضاء والقدر كثيراً، وأفرد فيها رسالة خاصة شرح فيها قصيدة ابن تيمية التائية في الرد على القدرية، وبين مراتب القدر، وذكر أقوال الناس فيه، وأيد مذهب أهل السنة والجماعة بالأدلة والبراهين، وبين بطلان أقوال الطوائف المنحرفة، وبين أن أفعال العباد مخلوقة وأنهم فاعلون لها بمشيئتهم وقدرتهم إلى غير ذلك من المسائل المتعلقة بالإيمان بالقضاء والقدر.

وحديثنا هنا سيتناول عدة جوانب وهي :-

(١) بيان ابن سعدي أن الإيمان بالقضاء والقدر لا يمنع من فعل الأسباب.
(٢) بيانه لمراتب القدر.
(٣) تقسيمه للطوائف المنحرفة في القدر ورده عليهم.
(٤) بيانه لمذهب أهل السنة والجماعة في القدر وتأييده له بالأدلة.

أولاً: بيان ابن سعدي أن الإيمان بالقضاء والقدر لا يمنع من فعل الأسباب:

وهذه مسألة هامة غلط فيها كثير من الناس، حيث توهموا أن فعل الأسباب وتعاطيها ينافي التوكل والاعتماد على الله، وينافي الإيمان بالقضاء والقدر. وفهموا أن الإيمان بالقضاء والقدر يعني الخمول وترك فعل الأسباب.

وهذا غلط بين وهو ناتج من عدم فهم الإيمان بالقضاء والقدر على الوجه المطلوب وقد وضح ابن سعدي هذه المسألة وبينها بياناً شافياً فقال: (الإيمان بالقدر يتفق مع الأسباب، فمباشرة الأسباب والاجتهاد في الأعمال النافعة يحقق للعبد تمام الإيمان بالقضاء والقدر، فإن الله قدر المقادير بأسبابها وطرقها، وتلك الأسباب والطرق هي محل حكمة الله فإن الحكمة. وضع الأشياء مواضعها وتنزيل الأمور منازلها اللائقة بها. فقضاء الله وقدره وحكمته متفقات. كل واحد منها يمد الآخر ولا يناقضه.

وقد أشار النبي ﷺ حين سئل وقيل له يارسول الله، أرأيت رقي نسترقيها،

---

(١) الفتاوي السعدية / ١٢.

وأدوية نتداوى بها وتقاه نتقيها، هل ترد من قضاء الله وقدره؟ فقال: «هي من قضائه وقدره»[1].

فهذه الأسبابُ حسية ومعنوية روحانية وحُمْية عما يضر، وهي في مقدمة الأسباب. وأخبرﷺ أنها من قضاء الله وقدره، فمن زعم أنه مؤمن بالقدر وترك الأسباب النافعة الدينية والدنيوية التي عليها نظام القدر فهو غالط.

فإن المؤمن بالقدر يجرى على أحكامه ويعمل على سنته ونظامه، ويتبع النافع في أحكامه وإبرامه والله المعين الموفق.

وتوضيح ذلك أن أقدار الله كلها تابعة لحكمه وحكمته، فكما أن أفعاله تعالى محكمة في غاية الإحكام والانتظام ما ترى في خلق الرحمن من خلل ولا نقص ولا فطور ولا اختلال ولا في شرعه من عبث وسفه ومنافاة للحكمة والمصلحة والإحسان، فكذلك أفعال المكلفين دينيها ودنيويها، ظاهرها وباطنها كلها تجرى على وفق الحكمة والغايات الحميدة، وأنه كلما عظم المقصود وكثرت منافعه ومصالحه لم يمكن ادراكه إلا بسلوك الطرق المفضية إليه.

فأعظم المقاصد على الإطلاق نيل رضا الله، والفوز بثوابه والسلامة من عقابه وقد جعل الله له الإيمان وشعبه الظاهرة والباطنة والقيام بعبودية الله وإخلاص الدين له، ولزوم الاستقامة والتقوى جعلها الله طرقاً وأسباباً توصل إليه.

فما لم يسلك العبد هذا السبيل فمحال أن يصل إلى رضوان ربه وثوابه، فاتكال الأحمق على القدر بدون جد واجتهاد، قدح في القدر والشرع جميعاً.

وكذلك المطالب الأخرى كنيل العلم وإدراكه هل يمكن بغير جد واجتهاد ومواصلة الأوقات في طلبه وسلوك الطرق المسهلة له؟

فمن قال: إن قدر لي أدركت العلم، اجتهدت أم لا، فهو أحمق كما قال بعضهم[2]:

تمنيت أن تمسى فقيها مناظراً ... بغير عناء والجنون فنون

وليس اكتساب المال دون مشقة ... تلقيتها فالعلم كيف يكون

---

(١) أخرجه احمد ٣/٤٢١، وابن ماجه ٢/١١٣٧، والترمذي ٤/٤٠٠، وقال حديث حسن صحيح، والحاكم ٤/١٩٩، كلهم من حديث أبي خزامة عن أبيه وأخرج نحوه الحاكم ٤/١٩٩، ٢٠٤ عن حكيم بن حزام، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) القائل للبيتين هو: أبوبكر أحمد بن محمد الدينورى الحنبلي، انظر الآداب الشرعية لابن مفلح / ١ / ٢٤٤.

وهكذا من ترك الزواج وقال: إن قدر لي أولاد حصلوا، تزوجت أو تركت. ومن رجا حصول ثمر أو زرع، بغير حرث وسقى وعمل متكلاً على القدر فهو أحمق مجنون.

وهكذا سائر الأشياء دقيقها وجليلها، فعلم أن القيام بالأسباب النافعة واعتقاد نفعها داخل بقضاء الله وقدره، دون الإخلاد إلى الكسل، والسكون مع القدرة على الحركة هو الجنون[1].

وقد عقد ابن سعدي في كتابه الرياض الناضرة فصلاً خاصاً بذلك، وهو الفصل الثالث والعشرون في الجمع بين إثبات عموم القدر وإثبات الأسباب.

قال فيه: (. . . ويظن كثير من الناس أن إثبات الأسباب ينافي الإيمان بالقضاء والقدر. وهذا غلط فاحش جداً وهو عائد على القدر بالإبطال وهو إبطال أيضاً للحكمة.

وكأن هذا الظان يقول ويعتقد: أن الإيمان بالقدر هو اعتقاد وقوع الأشياء بدون أسبابها الشرعية والقدرية.

وهذا نفي للوجود لها فإن الله ربط الكون بعضه ببعض، ونظم بعضه ببعض، وأوجد بعضه ببعض.

فهل تقول - أيها الظان جهلا - أن الأولى إيجاد البناء من دون بنيان وإيجاد الحبوب والثمار والزروع من دون حرث وسقي وإيجاد الأولاد والنسل من دون نكاح وإدخال الجنة من دون إيمان وعمل صالح، وإدخال النار من دون كفر ومعصية؟

بهذا الظن والتقدير أبطلت القدر وأبطلت معه الحكمة. أما علمت أن الله بحكمته وكمال قدرته جعل للمسببات أسباباً وللمقاصد طرقا ووسائل تحصل بها، وقرر هذا في الفطر والعقول، كما قرره في الشرع، وكما نفذه في الواقع، فإنه أعطى كل شيء خلقه اللائق به ثم هدى كل مخلوق إلى ما خلق له من أصناف السعي والحركة والتصرفات المتنوعة، وبنى أمور الدنيا والآخرة على ذلك النظام البديع العجيب الذي شهد أولا لله بكمال القدرة وكمال الحكمة، وأشهد العباد ثانيا: أن بهذا التنظيم والتيسير والتصريف وجه العاملين إلى أعمالهم ونشطهم على أشغالهم.

فطالب الآخرة: إذا علم أنها لا تنال إلا بالإيمان والعمل الصالح وترك ضدها جد واجتهد في تحقيق الإيمان، وكثرت تفاصيله النافعة واجتهد في كل عمل صالح

---

(١) الفتاوي السعدية / ٣٢-٣٥، بتصرف يسير.

يوصله إلى الآخرة واجتنب في مقابل ذلك الكفر والفسوق والعصيان، وبادر للتوبة من كل ما وقع منه من ذلك.

وصاحب الحرث إذا علم أنه لا ينال إلا بحرث وسقي وملاحظة تامة جداً واجتهد في كل وسيلة تنمي حرثته وتكملها، وتدفع عنها الآفات...

واصل ابن سعدي ضرب الأمثلة على ذلك ثم قال:

وفي خلقه تعالى الأشياء بأسبابها من الحكمة والمنافع والأسرار ما لا يدركه الوصف.

وهذا من الأمور الجلية والحقائق الواضحة التي فطرت الخليقة كلها ـ حتى الحيوان البهيم ـ عليها)[1].

وقال في شرحه لحديث أبي هريرة رضى الله عنه. قال. قال رسول الله ﷺ: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا، كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان)[2].

(وقد جمع النبي ﷺ في هذا الحديث بين الإيمان بالقضاء والقدر والعمل بالأسباب النافعة، وهذان الأصلان دل عليهما الكتاب والسنة في مواضع كثيرة، ولا يتم الدين إلا بهما بل لا تتم الأمور المقصودة كلها إلا بهما؛ لأن قوله: «احرص على ما ينفعك» أمر بكل سبب ديني ودنيوى بل أمر بالجد والاجتهاد فيه، والحرص عليه نية وهمة وفعلاً وتدبيراً. وقوله: «واستعن بالله» إيمان بالقضاء والقدر، وأمر بالتوكل على الله الذي الاعتماد التام على حوله وقوته تعالى في جلب المصالح، ودفع المضار مع الثقة التامة بالله في نجاح ذلك.

فالمتبع للرسول ﷺ يتعين أن يتوكل على الله في أمر دينه ودنياه وأن يقوم بكل سبب نافع بحسب قدرته وعلمه ومعرفته)[3].

ثانيا: بيانه لمراتب القدر:

إن الإيمان بالقضاء والقدر لا يتم إلا بمعرفة مراتبه الواردة في الكتاب والسنة، وقد دل الكتاب والسنة على أن للقدر أربع مراتب.

---

(١) الرياض الناضرة / ١٦٤-١٦٧.

(٢) أخرجه مسلم ٤/٢٠٥٢.

(٣) بهجة قلوب الأبرار /٤١، وانظر الدرة البهية / ٣٨.

وهي:

(١) علم الله المحيط بكل شيء.

(٢) كتابه الذي اشتمل على كل ما سيكون.

(٣) ومشيئته وقدرته العامة على كل شيء.

(٤) إيجاده لجميع المخلوقات.

وقد اعتنى ابن سعدي في مؤلفاته ببيان هذه المراتب وتوضيحها وذكر أدلتها.

قال رحمه الله: (مراتب القضاء والقدر أربعة لا يتم الإيمان بالقدر إلا بتكميلها، الإيمان بأنه بكل شيء عليم وأن علمه محيط بالحوادث دقيقها وجليلها، وأنه كتب ذلك باللوح المحفوظ، وأن جميعها واقعة بمشيئته وقدرته ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه مع ذلك مكن العباد من أفعالهم فيفعلونها اختيارا منهم بمشيئتهم وقدرتهم كما قال تعالى:

﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض ان ذلك في كتاب﴾[1].

وقال: **﴿لمن شاء منكم أن يستقيم، وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾**[2])[3]

وقال في تفسيره لقوله تعالى **﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾**[4].

(... وفي هذه الآية دليل على أن الكتاب الأول قد حوى جميع الكائنات وهذا أحد مراتب القضاء والقدر فإنها أربع:

علم الله الشامل لجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الموجودات ومشيئته وقدرته العامة النافذة في كل شيء، وخلقه لجميع المخلوقات حتى أفعال العباد)[5].

ثالثاً: تقسيمه للطوائف المنحرفة في القدر ورده عليهم:

قسم ابن سعدي الطوائف المنحرفة في القضاء والقدر إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ قدرية نفاة.

٢ ـ وقدرية مجبرة.

٣ ـ وقدرية مشركون.

---

(١) سورة الحج / الآية ٧٠.

(٢) سورة التكوير / الآيتان ٢٨، ٢٩.

(٣) سؤال وجواب / ١٥.

(٤) سورة الأنعام / ٣٨.

(٥) التفسير ٢/٣٩٦.

قال رحمه الله: (القدرية ثلاث طوائف: قدرية نفاه، وقدرية مجبرة، وقدرية مشركون.

فأما القدرية النفاه: فهم الذين يطلق عليهم أكثر العلماء اسم «القدرية» وحقيقة مذهبهم أنهم يقولون:

«إن أفعال العباد وطاعتهم ومعاصيهم لم تدخل تحت قضاء الله وقدرة» فأثبتوا قدرة الله على أعيان المخلوقات وأوصافها، ونفوا قدرته على أفعال المكلفين.

وأما الطائفة الثانية: فهم الجبرية الذين يقال لهم «القدرية المجبرة» فزعم هؤلاء: «أن عموم مشيئة الله وعموم إرادته يقتضي أن العبد مجبور على أفعاله لا قدره له على شيء من الطاعات ولا على ترك المعاصي، ومع أنه لا قدره له على ذلك عندهم، فهو مثاب معاقب على ما لا قدرة له عليه.

وأما الطائفة الثالثة: فهم القدرية المشركون الذين اعتذروا عن شركهم وتحريمهم ما أباح الله بالمشيئة)[1].

وقد بين ابن سعدي ضلال هؤلاء وشناعة أقوالهم المتقدمة، قال: «فهذه الطوائف الثلاث هم خصماء الله في قضائه وقدره، منهم من نفاه ومنهم من غلا فيه غلواً أوقعه في الباطل»[2].

وتناول ابن سعدي جميع أقوال هذه الطوائف بالرد، وفند شبههم ورد عليها وبين ضلالهم وبعدهم عن الصراط المستقيم.

فقال في ردوده على الطائفة الأولى وهم القدرية النفاه القائلون: «بأن أفعال العباد غير داخلة تحت مشيئة الله وقدرته».

(وهم بهذا القول الباطل ردوا نصوصاً كثيرة من الكتاب والسنة تثبت وتصرح أن جميع أعمال العباد من خير وشر وطاعة ومعصية بقضاء الله وقدره كما أجمع المسلمون أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن)[3].

وهذه النصوص المبطلة لقول هؤلاء التي أشار ابن سعدي لكثرتها. قد تعرض لأكثرها في تفسيره للقرآن وبين وجه دلالتها على بطلان قول هؤلاء وفيما يلي أسوق بعض هذه النصوص مع تفسيره لها.

---

(١) الدرة البهية / ١٦-٢٤ بتصرف.

(٢) الدرة البهية / ٢٤.

(٣) الدرة البهية / ١٧ بتصرف يسير.

قال تعالى في غير موضع من كتابه الكريم: ﴿**إن الله على كل شيء قدير**﴾[1].

قال ابن سعدي: (وفي هذه الآية وما أشبهها رد على القدرية القائلين بأن أفعالهم غير داخلة في قدرة الله تعالى؛ لأن أفعالهم من جملة الأشياء الداخلة في قوله: ﴿**إن الله على كل شيء قدير**﴾[2].

وقال تعالى ﴿**فمن شاء ذكره، وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفره**﴾[3].

قال ابن سعدى: (فإن مشيئة الله نافذه عامه لا يخرج عنها حادث قليل ولا كثير.

ففيها رد على القدرية الذين لا يدخلون أفعال العباد تحت مشيئة الله....)[4].

وقال تعالى: ﴿**فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله**﴾[5].

قال ابن سعدى: (في هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة في التأثير. ولم يخالف في هذا الأصل من فرق الأمة غير القدرية في أفعال العباد زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة فأخرجوها عن قدرة الله فخالفوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين)[6].

وقال أيضا في رده عليهم مبينا أهمية مناظرة القدرية بالعلم أي إثبات علم الله وأن ذلك فيه بيان لتناقضهم وتهافت أقوالهم.

قال: (وكان الأئمة كالإمام أحمد وغيره يقولون: «ناظروا القدرية بالعلم، فإن انكروا العلم كفروا، وان اعترفوا به خصموا».

يعني: أن القدرية النافين لعلم الله بأفعال عبادة، جاحدون لنصوص الكتاب والسنة المصرحة بإحاطة علم الله بما كان وما يكون من أعيان وأوصاف وأفعال، مما دق وجل، فمن أنكر ذلك فقد كذب الكتاب والسنة صريحاً وذلك هو الكفر، وان اعترفوا بإحاطة علم الله بكل شيء، وبأفعال العباد قبل وقوعها كما هو القول الذي استقر عليه مذهبهم خصموا.

---

(١) في عدة آيات منها سورة البقرة / الآية ٢٠، وسورة آل عمران/ الآية ١٦٥ وغيرها.

(٢) التفسير ١/٥٧.

(٣) سورة المدثر / الآيتان ٥٥، ٥٦.

(٤) التفسير ٧/٥٨١.

(٥) سورة البقرة / الآية / ١٠٢.

(٦) التفسير ١/١١٩.

ووجه ذلك أنهم يقولون: «إن أفعالهم لا تتعلق بها مشيئة الله وإرادته وإنما هم مستقلون بها من كل وجه».

إذا كان هذا قولهم في مشيئة الله مع قولهم «إن الله يعلم أعمال العباد قبل أن يعملوها» فهذا تناقض محض: كيف يعلمها وهو لم يقدرها ولم يردها؟ هذا محال: ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[1].

فيلزمهم أحد أمرين:

إما أن لا يتناقضوا فينفوا الأمرين: علم الله بأفعالهم، ومشيئته لها فيتضح كفرهم وإما أن يرجعوا إلى الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة، وأجمع عليه المسلمون وهو: أنه تعالى كما أنه بكل شيء عليم وبكل شيء محيط فإنه على كل شيءٍ قديرٍ ومن جملة الأشياء أفعال العباد: طاعتهم ومعاصيهم، فهو تعالى يعلمها إجمالاً وتفصيلاً قبل أن يعملوها، وأعمالهم وأفعالهم داخلة تحت مشيئة الله وإرادته فقد شاءها منهم وأرادها، ولم يجبرهم لا على الطاعات، ولا على المعاصي، بل هم الذين فعلوها باختيارهم كما قال تعالى ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾[2].

فهذه الآية فيها رد على القدرية النفاة وعلى القدرية المجبرة وإثبات للحق الذي عليه أهل السنة والجماعة.

ففي قوله تعالى: ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾ أخبر أن مشيئتهم تابعة لمشيئته، وأنها لا توجد بدونها فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وفي هذا رد على القدرية القائلين «إن مشيئة العباد مستقلة، ليست تابعة لمشيئة الله» بل عندهم: يشاء العباد ويفعلون ما لا يشاؤه الله ولا يقدره»[3].

وبهذا يظهر لنا أن قول القدرية في أفعال العباد إنها ليست داخلة تحت مشيئة الله وقدرته، قول باطل، مخالف لما تقرر في الكتاب والسنة من عموم قدرة الله ومشئيته، ولا يمكن أن يكون شيء في ملك الله إلا إذا شاءه الله وقدَّره. ﴿ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير﴾[4].

وقال رحمه الله في ردوده على الطائفة الثانية وهم القدرية المجبرة القائلون «بأن العباد مجبورون على أفعالهم كالشجرة في مهب الريح».

---

(١) سورة الملك / الآية ١٤.

(٢) سورة التكوير / الآيتان ١٨، ١٩.

(٣) الدرة البهية / ٢٠، ٢١ بتصرف يسير.

(٤) سورة آل عمران / الآية ١٨٩.

(وهذا القول من أشنع البدع وأنكرها وهو مخالف للكتاب والسنة وإجماع الأئمة المهتدين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ومخالف للعقول والفطر ومخالف للمحسوس.

وكل قول يمكن صاحبه أن يطرده إلا هذا القول الشنيع فإنه لا يمكن أن يعمل به ويطرده ولو ظلم أحدهم واعتذر إليه من ظلمه بالقدر فإنه لا يقبل بل يرى اعتذاره بالقدر زيادة ظلم وتهكما به، فكيف يسلك هذا المسلك مع ربه وهو لا يرتضيه لنفسه من غيره.

والمقصود: أن هذه الطائفة خالفت المنقول والمعقول. ونصوص الكتاب والسنة تبطل قولهم، فإن الله نسب أعمال العباد إليهم من الطاعات المتنوعة والمعاصي الكثيرة كلها يضيفها إلى الفاعلين ويخبر أنهم هم الفاعلون لها ويستحقون جزاءها من خير وشر.

فلو كانوا مجبورين عليها لم ينسبها لهم ولم يضفها إليهم بل ينسب الأفعال إلى نفسه حاشاه وتعالى عن ذلك، فلا يقال: «الله الذي فعل الإيمان والكفر والطاعة والمعصية» بل يقول كل أحد العبد هو الذي فعلها، والله هو الذي قدرها من غير أن يجبره عليها)[1].

وبين رحمه الله أن قولهم هذا يلزمهم عليه عدة لوازم فاسدة فقال في توضيح الكافية الشافية:

(فلزمهم على تقريرهم هذا أمران باطلان: أحدهما أن تنفي عن العباد قدرتهم على أفعالهم. ثانيا: أن ينفي صدورها منهم.

فيقال على قولهم: لم يقدروا على الإسلام والإيمان ولا الصلاة والصيام ونحوها. وإذا فعلوها يصح أن يقال: لم تصدر منهم وإنما يقال ذلك على وجه المجاز لا الحقيقة، ولا فرق عندهم أن يوصفوا بهذه الأفعال أو يوصفوا بالبياض والسواد وبقية الألوان؛ لأن الجميع قامت بهم.

فتصور قولهم بلوازمه المذكورة تعرف به فساده وبطلانه)[2].

وعدد أيضا في الدر البهية جملة من اللوازم التي تلزم هذا القول الفاسد فقال:

---

(١) الدرة البهية / ٢٢، ٢٣، بتصرف يسير.

(٢) توضيح الكافية الشافية / ١٢.

(ويلزم على قول الجبرية إسقاط الأمر والنهي ؛ لأنه كيف يؤمر وينهى من لا قدرة له على امتثال الأمر والنهي؟

ويلزم أيضا على قولهم إسقاط الحدود عن جميع أهل الجرائم إذ كيف يعاقبون وتقام عليهم الحدود وهم غير قادرين بل مجبورين؟

فهذا القول الباطل مخالف لجميع أصول الدين وفروعه.

ويلزم أيضاً على قول الجبرية تعطيل الأسباب الدينية والدنيوية وذلك أن الله تعالى جعل الأسباب موصلة إلى مسبباتها وأمر العباد بسلوك كل سبب نافع لهم في دينهم ودنياهم فكيف يؤمرون وهم مجبورون غير قادرين؟ فالقول بالجبر فيه فساد الدين والدنيا)[1].

أما الطائفة الثالثة وهم القدرية المشركون فكلامهم ظاهر البطلان وقد بين الله بطلانه في آيات متعددة.

قال تعالى: **﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾**[2].

وقال تعالى: **﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين، ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾**[3].

وقال تعالى: **﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون﴾**[4].

قال ابن سعدى في بيان بطلان احتجاج المشركين على شركهم بمشيئة الله وأن الله لو شاء ما أشركوا.

(وهـذه حجة باطلة فإنها لو كانت حقاً ما عاقب الله الذين من قبلهم حيث

---

(١) الدرة البهية / ٢٣.

(٢) سورة الأنعام / الآية ١٤٨.

(٣) سورة النحل / الآيتان ٣٥، ٣٦.

(٤) سورة الزخرف / الآية ٢٠.

أشركوا به فعاقبهم أشد العقاب فلو كان يحب ذلك منهم لما عذبهم وليس قصدهم بذلك إلا رد الحق الذي جاءت به الرسل وإلا فعندهم علم أنه لا حجة لهم على الله، فإن الله أمرهم ونهاهم ومكنهم من القيام بما كلفهم وجعل لهم قوة ومشيئة تصدر عنها أفعالهم فاحتجاجهم بالقضاء والقدر من أبطل الباطل.

هذا وكل أحد يعلم بالحس قدرة الإنسان على كل فعل يريده من غير أن ينازعه منازع، فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله وتكذيب الأمور العقلية والحسية)[1].

وقال في موضع آخر: (وهي حجة باطلة في نفسها عقلاً وشرعاً. فكل عاقل لا يقبل الاحتجاج بالقدر ولو سلكه في حالة من أحواله لم يثبت عليها قدمه.

وأما شرعاً فإن الله تعالى أبطل الاحتجاج به ولم يذكره عن غير المشركين به المكذبين لرسله فإن الله تعالى قد أقام الحجة على العباد فلم يبق لأحد عليه حجة أصلاً)[2].

رابعاً: بيانه لمذهب أهل السنة والجماعة في القدر وتأييده له بالأدلة:

وكما بين ابن سعدى بطلان الأقوال المتقدمة في القضاء والقدر في أفعال العباد وبعدها عن الصواب وانحرافها عن الصراط المستقيم.

فقد بين أن القول الصواب في ذلك والحق الذي لا مرية فيه هو قول أهل السنة والجماعة؛ وذلك لتضافر أدلة الكتاب والسنة على صحته فبعد أن ذكر الأقوال السابقة وبين بطلانها قال:

(فهذه الطوائف الثلاث هم خصماء الله في قضائه وقدره منهم من نفاه ومنهم من غلا فيه غلواً أوقعه في الباطل.

وهدى الله أهل السنة والجماعة لما اختلفوا فيه بإذنه **﴿والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾**[3].

فأثبتوا عموم قضاء الله ونفوذ مشيئته في كل شيء، وأثبتوا مع ذلك أفعال العباد من الطاعات والمعاصي وقالوا إنها واقعة باختيارهم، ولا حجة للعاصين على الله إذا احتجوا على معاصيهم بقدره بل حجتهم داحضة باطلة، وقالوا إن مشيئة الله غير محبته

---

(١) التفسير ٤/٢٠١.

(٢) التفسير ٦/٦٣٩، وانظر أيضاً التفسير ٢/٤٩٥ ففيه بيان لبطلان هذه الشبهه من سبعة أوجه.

(٣) سورة البقرة / ٢١٣.

فمشيئته تعلقت بكل شيء موجود من خير وشر وطاعة ومعصية، ومحبته خاصة للطاعات وأهلها كما أخبر بذلك في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ[1].

وقال في موضع آخر شارحا ومبينا عقيدة السلف في ذلك وهي أنهم (يقولون بما جاء به الكتاب والسنة من اثبات الأصلين.

أحدهما: الاعتراف بأن جميع الأشياء كلها أعيانها وأوصافها بقضاء وقدر، لا تخرج عن مشيئة الله وإرادته بل ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

والأصل الثاني: أن أفعال العباد من الطاعات والمعاصي وغيرها واقعة بإرادتهم وقدرتهم وأنهم لم يجبروا عليها، بل هم الذين فعلوها بما خلق الله لهم من القدرة والإرادة ويقولون لا منافاة بين الأمرين فالحوادث كلها التي من جملتها أفعال العباد بمشيئة الله وإرادته والعباد هم الفاعلون لأفعالهم المختارون لها، فهم الذين اختاروا فعل الخيرات وفعلوها، واختاروا ترك المعاصي فتركوها، والآخرون اختاروا فعل المعاصي وفعلوها واختاروا ترك الأوامر فتركوها، فاستحق الأولون المدح والثواب، واستحق الآخرون الذم والعقاب، ولم يجبر الله أحداً منهم على خلاف مراده واختياره، فلا عذر للعاصين إذا عصوا وقالوا إن الله قدرها علينا فلنا بذلك العذر. فيقال لهم: إن الله قد أعطاكم المكنة والقدرة على كل ما تريدون وأنتم بزيغكم وانحرافكم أردتم الشر ففعلتموه والله قد حذركم، وهيأ لكم كل سبب يصرف عن معاصيه، وأراكم سبيل الرشد فتركتموه وسبيل الغي فسلكتموه.

وإذا أردت زيادة إيضاح لهذا المقام: فإنه من المعلوم لكل أحد: أن كل فعل يفعله العبد وكل كلام يتكلم به فلابد فيه من أمرين: قدرة منه على ذلك الفعل والقول، وإرادة منه، فمتى اجتمعا: وجدت منه الأقوال والأفعال والله تعالى هو الذي خلق قدرة العبد وخالق السبب التام، خالق للمسبب، فالله تعالى خالق أفعال العباد، والعباد هم الفاعلون لها حقيقة... وقد دلت أدلة الكتاب والسنة الكثيرة على أن الله خالق كل شيء وعلى كل شيء قدير وأن كل شيء بقضاء وقدر الأعيان والأوصاف والأفعال.

ودلت أيضاً أدلة الكتاب والسنة أن العباد هم الفاعلون لفعلهم حقيقة بقدرتهم واختيارهم، فإنه تعالى نسب إليهم وأضاف إليهم كل ما فعلوه من إيمان وكفر وطاعة ومعصية، وإنه تعالى مكنهم من هذا ومن هذا، ولكنه حبب الإيمان إلى المؤمنين وزينه

---

(١) الدرة البهية / ٢٤، ٢٥.

في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وولى الآخرين ما تولوا لأنفسهم حيث اختاروا الشر على الخير وأسباب العقاب على أسباب الثواب، وهذا كما أنه معلوم بالضرورة فهو معلوم بالحس الذي لا يمكن أحداً المكابرة فيه فإن العبد يفرق بين أفعاله التي يقسر ويجبر ويقهر عليها، وبين أفعاله التي يختارها ويريدها ويحب حصولها)(1).

وقال رحمه الله في بيان حكم أفعال العباد: (أفعال العباد كلها من الطاعات والمعاصي داخلة في خلق الله وقضائه وقدره ولكنهم هم الفاعلون لها لم يجبرهم الله عليها مع أنها واقعة بمشيئتهم وقدرتهم فهي فعلهم حقيقة فهم الموصوفون بها المثابون والمعاقبون عليها وهي خلق الله حقيقة فإن الله خلقهم وخلق مشيئتهم وقدرتهم وجميع ما يقع بذلك، فنؤمن بجميع نصوص الكتاب والسنة الدالة على شمول خلق الله وقدرته لكل شيء من الأعيان والأوصاف والأفعال كما نؤمن بنصوص الكتاب والسنة الدالة على أن العباد هم الفاعلون حقيقة للخير والشر وأنهم مختارون لأفعالهم فإن الله خالق قدرتهم وإرادتهم وهما السبب في وجود أفعالهم وأقوالهم وخالق السبب التام خالق للمسبب، والله أعظم وأعدل من أن يجبرهم عليها)(2).

وهذا آخر الحديث عن القضاء والقدر، وبه نصل إلى نهاية المبحث الأول المتعلق بتوحيد الربوبية، ويجدر أن أشير إلى أن توحيد الربوبية يدخل ضمن توحيد الأسماء والصفات؛ وذلك لأن الرب اسم من أسماء الله، والربوبية صفة من صفاته، والله أعلم.

---

(1) الدرة البهية / ١٣، ١٤، ١٥. وانظر أيضاً الخلاصة / ١٧٩، والحق الواضح المبين / ٨ و ٢٠.

(2) سؤال وجواب / ١٠، وانظر أيضاً: توضيح الكافية الشافية / ١٣، ١٤.

المبحث الثاني

توحيد الأسماء والصفات

تمهيد:

إن تدبر أسماء الله وصفاته وفهمها على مراد الله منها من أهم الأمور وأجلها؛ وذلك لما في هذا العمل من الفوائد العظيمة، والثمار النافعة.

لذلك فقد اشتغل علماء الإسلام قديماً وحديثاً في بيان أسماء الله الحسنى وصفاته العلى وشرحها وإيضاحها، والرد على من أنكرها أو أنكر بعضها، وألفوا في ذلك مؤلفات عديدة.

وكان الشيخ ابن سعدى - رحمه الله - ممن أسهم حديثاً في بيان الأسماء الحسنى والصفات العلى لما يرى في ذلك من الفوائد ولكونها من أجل العلوم وأنفعها.

وقد عدد رحمه الله فوائد عظيمة يحصل عليها المشتغل بهذا العلم النافع أذكر منها ما يلي:-

أولا : إن هذا العلم أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق، فالاشتغال بفهمه والبحث عنه اشتغال بأعلى المطالب، وحصوله للعبد من أشرف المواهب.

ثانيا : إن معرفة الله تدعو إلى محبته وخشيته وخوفه ورجائه وإخلاص العمل له، وهذا عين سعادة العبد، ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بمعرفة أسمائه وصفاته والتفقه في فهم معانيها.

ثالثا : إن الله خلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه وهذا هو الغاية المطلوبة منهم فالاشتغال بذلك اشتغال بما خلق له العبد وتركه وتضييعه إهمال لما خلق له، وقبيح بعبد لم تزل نعم الله عليه متواترة، وفضله عليه عظيم من كل وجه ان يكون جاهلا بربه معرضا عن معرفته.

رابعا : إن أحد أركان الإيمان بل أفضلها وأصلها الإيمان بالله وليس الإيمان مجرد قوله آمنت بالله من غير معرفته بربه، بل حقيقة الإيمان أن يعرف الذي يؤمن به ويبذل جهده في معرفة أسمائه وصفاته حتى يبلغ درجة اليقين،

وبحسب معرفته بربه يكون إيمانه فكلما ازداد معرفة بربه ازداد إيمانه وكلما نقص نقص، وأقرب طريق يوصله إلى ذلك تدبر صفاته وأسمائه من القرآن، والطريق في ذلك إذا مر به اسم من أسماء الله أن يثبت له ذلك المعنى وكماله وعمومه وينزهه عما يضاد ذلك.

خامسا : إن العلم به تعالى أصل الأشياء كلها، حتى إن العارف به حقيقة المعرفة يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله على ما يفعله وعلى ما يشرعه من الأحكام؛ لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته، فأفعاله دائرة بين العدل والفضل والحكمة، ولذلك لا يشرع ما يشرعه من الأحكام إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله، فأخباره كلها حق وصدق وأوامره ونواهيه عدل وحكمة.

وهذا العلم أعظم وأشهر من أن ينبه عليه لوضوحه[1].

ولهذه الفوائد العظيمة وغيرها من الفوائد التي يحصل عليها من اشتغل بفهم أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، فإن الشيخ ابن سعدى يحث على تعلمها ويبين أن الناس بأحوج ما يكونون إليها إذ هي أعظم الضروريات.

فيقول: «ولهذا فإنه لا أعظم حاجة وضرورة من معرفة النفوس بربها ومليكها الذي لا غنى لها عنه طرفة عين ولا صلاح لها ولا زكاء إلا بمعرفته وعبادته وكلما كان العبد أعرف بأسماء ربه وما يستحقه من صفات الكمال وما يتنزه عنه مما يضاد ذلك، كان أعظم إيمانا بالغيب واستحق من الثناء والمدح بحسب معرفته وموضع هذا تدبر اسمائه الحسنى التي وصف بها نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله فيتأملها العبد اسما اسما ويعرف معنى ذلك وأن له تعالى من ذلك الاسم أكمله وأعظمه وأن هذا الكمال والعظمة ليس له منتهى، ويعرف أن ما ناقض هذا الكمال بوجه من الوجوه فإن الله تعالى منزه مقدس عنه...»[2].

أقسام الناس في الأسماء والصفات وبيان منهج السلف فيها:

بعد أن عرفنا أهمية الاشتغال بفهم الأسماء والصفات على مراد الله منها.

فلنعلم أن الناس في ذلك ثلاثة أقسام طرفان ووسط.

---

(١) التفسير ١/٢٤، ٢٥، ٢٦ والخلاصة / ١٥ بتصرف يسير.

(٢) المواهب الربانية / ٦١، ٦٢.

فأما الطرفان فهم: النفاة المعطلون، والمشبهة المجسمون، وأما الوسط فهم أهل السنة والجماعة المؤمنون الموحدون.

وهذا ما فصله الشيخ ابن سعدى في كتبه في أكثر من موضع حيث يقول:

(الناس في هذا المقام ثلاثة أقسام: مؤمن موحد، ومشبه، ومعطل؛ **فالمؤمن الموحد**: يصف الله بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله من صفات الكمال على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته من غير تمثيل ولا تشبيه ومن غير تحريف ولا تعطيل لشيء من أوصاف الله.

والمشبه: هو الذي يشبه صفات الخالق بصفات المخلوقين أو يتعرض لمعرفة كنهها وحقيقتها التي لا يعلمها غير الله.

والمعطل: هو من نفى شيئا من صفات الله)[1].

وقد بين ابن سعدى أن كلاً من التشبيه، والتعطيل بعيدان عن الصواب وأن الطريق النافع والذي يجب أن يسلكه كل مسلم هو طريق أهل السنة والجماعة.

فقال: (وكل من المعطل والمشبه قد حرم الوصول إلى معرفة الله على وجهها المطلوب، وابتلى بالتكلف والتحريف لنصوص الوحى، وكما أنه مناقض للوحى فهو مناقض لما دلت عليه العقول والفطرة التي لم يطرأ عليها التغير، فلا معقول لديهم ولا منقول. وهدى الله أهل السنة والجماعة لاتباع الحق المنقول عن الله وعن رسله، والمعقول لذوى الألباب، وذلك يظهر بتدبر ما عليه هذه الطوائف في المسائل والدلائل وتحقيقها ونسأل الله الهداية لأقوم الطرق)[2].

منهج السلف في الأسماء والصفات:

عرفنا أن أهدى الطرق وأعدلها في الأسماء والصفات هو ما سلكه أهل السنة والجماعة من فهم لها على مراد الله منها، ولذلك أصبح منهجهم هو الذي يجب أن يحتذى ويسار عليه.

ويتلخص منهج السلف في الأسماء والصفات في النقاط التالية:

- أنهم يقرون ويعتقدون بجميع ما ثبت في الكتاب والسنة من أسماء الله وصفاته وأفعاله.

---

(١) الحق الواضح المبين ص١٢.

(٢) الحق الواضح المبين ص١٢.

- فيثبتون لله جميع ما أثبته لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ من صفات الكمال ونعوت الجلال.
- وينفون عنه جميع ما نفاه عن نفسه، وما نفاه عنه رسوله ﷺ من النقائص والعيوب.
- من غير تحريف[1] ولا تعطيل[2]، ومن غير تكييف[3] ولا تمثيل[4].

وهذا هو المنهج الحق الذي لا مرية فيه، وقد سلك ابن سعدى هذا المنهج الحق في بيان توحيد الأسماء والصفات وسار عليه، وأطال رحمه الله في مؤلفاته في تقرير هذا المنهج والرد على من خالفه من سائر طوائف الضلال، ولا سيما في كتابيه: الحق الواضح المبين، وتوضيح الكافية الشافية.

ومما قاله في تقرير هذا المسلك أنه عرف توحيد الأسماء والصفات بأنه (اعتقاد انفراد الرب جل جلاله بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة والجلال والجمال التي لا يشاركه فيها مشارك.... وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ من جميع الأسماء والصفات، ومعانيها وأحكامها، الواردة في الكتاب والسنة على الوجه اللائق بعظمته وجلاله من غير نفى لشيء منها ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل، ونفى ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ من النقائص والعيوب وعن كل ما ينافي كماله)[5].

لذلك كان في تفسيره للقرآن إذا مر بآيات تدل على ذلك، أشار إليها وبين وجه دلالتها على صحة هذا المنهج في أسماء الله وصفاته.

فمن ذلك ما قاله عند قوله تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾[6]. قال: (وهذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة من إثبات الصفات ونفى مماثلة المخلوقات، وفيها رد على المشبهة في قوله ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ وعلى المعطلة في قوله: ﴿**وهو السميع البصير**﴾)[7].

---

(١) **التحريف**: هو تغيير ألفاظ الأسماء والصفات أو تغيير معانيها. كقولهم «استوى» بمعنى استول، وقولهم «الرحمة» اراده الأنعام.

(٢) **التعطيل**: هو نفى الصفات وهو مأخوذ من قولهم جيد معطل أي: خالٍ.

(٣) **التكييف**: معناه بيان الهيئة والكيفية التي تكون عليها الصفات مثل أن يقال كيف يده وكيف وجهه.. الخ.

(٤) **التمثيل**: هو التشبيه بأن يقال وجه الله كوجه المخلوق وما أشبه ذلك تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(٥) القول السديد ص١٥.

(٦) سورة الشورى / آية ١١.

(٧) التفسير ٥٩٨/٦.

وقال في نهاية تفسير سورة الإخلاص: (فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات)[1].

كما أشار إلى ذلك في غير التفسير من كتبه.

فقال في المواهب الربانية: (قوله تعالى: ﴿هل تعلمُ له سمياً﴾

اشتملت على أن الله تعالى كامل الأسماء والصفات عظيم النعوت جليل القدر وليس له في ذلك شبيه ولا نظير ولا سمى بل قد تفرد بالكمال المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات)[2].

وقال في خلاصة التفسير بعد أن ذكر قصة آدم وأخذ يعدد ما يستنبط منها من فوائد، قال: (ومنها «أي الفوائد» أن فيها دلالة لمذهب أهل السنة والجماعة المثبتين لله ما أثبته لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات كلها، لا فرق بين صفات الذات ولا بين صفات الأفعال)[3].

وقد بين ـ رحمه الله ـ أن هذا المنهج في الأسماء والصفات هو المنهج الذي يقرره الله في كتابه، وهو المنهج الذي أتفقت عليه الرسل أجمعون.

حيث يقول (انظر إلى توحيد الله وتفرده بالوحدانية، وتوحده بصفات الكمال، كيف كانت الكتب السماوية مشحونة بها، بل هي المقصد الأعظم، وخصوصاً القرآن الذي هو من أوله إلى آخره يقرر هذا الأصل الذي هو أكبر الأصول وأعظمها.

وانظر كيف اتفقت جميع الرسل والأنبياء وخصوصاً خاتمهم وإمامهم محمد ﷺ، على توحيد الله وأنه متفرد بالواحدانية وعظمة الصفات: من سعة العلم، وشمول القدرة والإرادة وعموم الحجة والحكمة والملك والمجد والسلطان والجلال والجمال والحسن والإحسان في أسمائه وصفاته وأفعاله)[4].

ومعلوم أن المنهج الذي أنزلت به الكتب واتفقت عليه الرسل هو المنهج الحق الذي لا يجوز العدول عنه، بل إن العدول عنه إلى غيره بعد وضلال واستبدال للذي هو أدنى بالذي هو خير، وكلما ازداد الإنسان رغبة في غيره من المناهج ازداد بعداً عن الطريق المستقيم، وكلما بعد عن الطريق المستقيم ازداد الحاده في أسماء الله وصفاته.

---

(١) التفسير ٦٨٦/٧ وانظر الخلاصة ص ١٨.

(٢) المواهب الربانية ص٤٥ وانظر التفسير أيضا ١٢٦/٥.

(٣) الخلاصة ص١٠٧.

(٤) الفتاوي ص٤٤، ٤٥.

والله يقول: **﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾**[1].

وإن أول من عدل عن هذا الطريق من طوائف الضلال هم الجهمية المنسبون إلى الجهم بن صفوان، فهم أول الطوائف إنكاراً للأسماء والصفات.

قال ابن سعدى في بيان ذلك:

(وكان الجهم بن صفوان معروفاً بين الأمة بهذه البدعة الشنعاء الجامعة لشرور كثيرة أعظمها وأطمها نفى صفات الله التى تواترت في الكتاب والسنة واتفق عليها جميع سلف الأمة)[2].

ثم أوضح رحمه الله أن جميع من جاء بعده من طوائف الضلال من معتزلة وأشعرية وكلابية وغيرهم ـ أخذوا عنه فهو رأسهم وشيخهم وسلفهم في هذا المنهج.

أما أهل السنة والجماعة فقد سلمهم الله من هذا الضلال بأن وفقهم لسلوك الصراط المستقيم والمنهج القويم.

قال ـ رحمه الله ـ في إيضاح ذلك: (فأخذت طوائف البدع من أقوال جهم بحسب بعدهم من مذهب السلف:

- فطائفة أثبتت الأسماء ونفت الصفات، وهم جمهور الجهمية والمعتزلة.
- وطائفة غلت فنفت الأسماء الحسنى.
- وطائفة وافقت الجهمية بنفي الأفعال الاختيارية، ووافقوا السلف في إثبات الصفات السبع وهي الحياة والعلم والقدرة والارادة والسمع والبصر والكلام. وهم الاشعرية والماتريدية[3].
- وطائفة أخذت بقوله إن العباد مجبورون على أفعالهم وهم الملقبون بالجبرية.
- وطائفة وافقته في أن القرآن الموجود المحفوظ في الصدور المكتوب في المصاحف مخلوق، والمعنى القديم النفسي غير مخلوق، كالكلابية والأشعرية).

ثم قال رحمه الله:

(ونجى الله أهل السنة والجماعة من جميع أقواله الباطلة فأثبتوا جميع أسماء الله

---

(١) سورة الأعراف / آية ١٨٠.

(٢) توضيح الكفاية الشافية / ٥.

(٣) إثبات الأشاعرة والماتريدية للصفات السبع ليس موافقا للسلف تماماً بل بينهم تفاوت كبير وبون شاسع. وسيأتي مثال ذلك عند التحدث عن صفة الكلام.

الحسنى وما دلت عليه من الصفات العليا لا فرق بين الصفات الذاتية المتعلقة بذاته التي لا ينفك عنها كالحياة والعلم والقدرة والإرادة ونحوها، ولا بين صفات الأفعال القائمة بذاته المتصف بها المتعلقة بمشيئته وقدرته . . .)[1].

ومذاهب هؤلاء جميعهم مبنية على التقول على الله بغير علم وتأويل الصفات على غير المراد منها، وقد بين رحمه الله خطورة التقول على الله بغير علم، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**﴾[2].

فقال - رحمه الله -: (يدخل في ذلك القول على الله بلا علم في شرعه وقدره فمن وصف الله بغير ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله أو نفى عنه ما أثبته لنفسه أو أثبت له ما نفاه عن نفسه فقد قال على الله بلا علم.

إلى أن قال: ومن أعظم القول على الله بلا علم أن يتأول المتأول كلامه، أو كلام رسوله على معانى أصطلح عليها طائفة من طوائف الضلال ثم يقول إن الله أرادها.

فالقول على الله أكبر المحرمات وأشملها وأكبر طرق الشيطان التي يدعوا إليها)[3].

وقال عند قوله تعالى ﴿**ومن أظلم ممن أفترى على الله كذبا**﴾[4]: (ويدخل في هذا كل من كذب على الله بنسبه شريك له أو وصفه بما لا يليق بجلاله أو الإخبار عنه بما لم يقل)[5].

وبين - رحمه الله - أنه لا يتم إيمان أحد بتوحيد الأسماء والصفات حتى يترك التأويل ويؤمن بجميع الصفات على مراد الله منها فقال:

(ولا يتم توحيد الأسماء والصفات حتى يعترف، ويؤمن بكل ما جاء في الكتاب والسنة والأسماء والصفات والأفعال، وأحكامها وعلى وجه يليق بعظمة البارى، ويعلم أنه كما لا يماثله أحد في ذاته فلا يماثله أحد في صفاته، ومن ظن أن في بعض النقليات ما يوجب تأويل بعض الصفات على غير المعروف فقد ضل ضلالاً مبينا)[6].

هذا وإن المتكلمين جميعَهم قد جعلوا التأويل مطية لهم، فمتى رأوا النصوص تخالف قولتهم أولوها، وقالوا ظاهرها غير مراد، فحرفوا بذلك معانى نصوص الكتاب والسنة.

---

(1) توضيح الكافية الشافية / ١٣.
(2) سورة البقرة / آية ١٦٩.
(3) التفسير ١/ ٢٠٠، ٢٠١.
(4) سورة هود / الأية ١٨.
(5) التفسير ٣/ ٤١٣.
(6) الفتاوي / ١٢.

قال ابن سعدى مشيراً إلى هذا الواقع: (إن المتكلمين بالكلام الباطل من جهمية ومعتزلة وقدرية وكلابية وأشعرية، قد أشتركوا في نفى صفات البارى، وقد تفاوتوا في كثرة ما ينفونه منها، وكل فريق منهم فيما ينفيه من الصفات إذا وردت عليه النصوص من الكتاب والسنة في إثباتها تأولها تأويلات تنفى ما تدل عليه من المعاني الصريحة الظاهرة الحقة، وصرفها لمعان باطلة لا تدل عليها.

ثم بين الذي شجعهم على ذلك فقال:

وجرأهم على ذلك التأويل أنهم سموا المعاني الفلسفية والأصول اليونانية قواطع عقلية وبراهين يقينية وأدلة الكتاب والسنة ظواهر لفظية قابلة للتأويل فسطوا عليها بالتأويلات الباطلة التي يجزم كل ذي بصيرة أنها خلاف مراد الله ورسوله منها)[1].

موقفه من التأويل:

إن التأويل يعد من أخطر معاول الهدم للإسلام، إذ به استطاعت جميع طوائف الضلال أن تروج باطلها، فالجهمية والمعتزلة والرافضة وغيرهم لا يجدون من نصوص الكتاب والسنة ما يدل على باطلهم بل إن نصوص الكتاب والسنة صريحة في الرد عليهم؛ ولذلك لجؤوا إلى التأويل فجعلوه مطية لهم، فأولوا النصوص المخالفة لهم وقالوا: «إن ظاهرها غير مراد»، وهكذا استطاعوا إفساد عقائد كثير من الناس بهذه التأويلات الفاسدة.

مما جعل علماء الإسلام قديما وحديثا يقومون بالتصدى لهذا النوع من التأويل وبيان فساده وضرره على الإسلام والمسلمين. وإن من أبرز من قام بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في أكثر مؤلفاته ولا سيما كتابه العظيم درء تعارض العقل والنقل ورسالة الإكليل في المتشابه والتأويل وغيرهما لهذا يقول الدكتور محمد الجليند في كتابه الإمام ابن تيمية وقضية التأويل عن ابن تيمية أنه (أبرز مفكر إسلامي عالج هذه القضية)[2].

ومن علمائنا المعاصرين الذين قاموا بمعالجة هذه القضية الشيخ ابن سعدى فقد تناول ـ رحمه الله ـ هذه القضية في مواضع متعددة من مؤلفاته، وبين فساد التأويل وأنه جر وبالاً على الإسلام.

---

(١) توضيح الكافية الشافية ص٥٩، ٦٠.

(٢) الإمام ابن تيمية وقضية التأويل / ٩. ولو عبر بعالم بدل المفكر لكان أنسب، وكتابه هذا قيمٌ جداً في جمع وتنسيق «نقض التأويل وإبطاله» من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

قال ـ رحمه الله ـ: (ولا يرتاب عارف أن جميع المصائب التي جرت في صدر الإسلام وبعد ذلك، ووقوع الفتن والاقتتال والتحزبات كلها متفرعة عن التأويل الباطل الذي لا ينتج إلا شراً)[1].

ثم عدد جملة من أضراره فقال (فالتأويل الباطل سبب فتن الأقوال والبدع الاعتقادية والفتن الفعلية، فلم يزل التأويل يتوسع وكل بدعة متأخرة تحدث من التأويلات الباطلة غير ما أحدثته التي قبلها. . .)[2].

وقال عند تفسيره لقوله: ﴿**ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا**﴾، (وفيه رد على المتكلمين من الجهمية ونحوهم ممن يرى أن كثيراً من نصوص القرآن محمولة على غير ظاهرها ولها معان غير ما يفهم منها فإذًا على قولهم لا يكون القرآن أحسن تفسيراً من غيره، وإنما التفسير الأحسن على زعمهم تفسيرهم الذي حرفوا له المعاني تحريفاً)[3].

أنواع التأويل:

قد صار للتأويل بسبب تعدد الاصطلاحات ثلاثة معان فصلها شيخ الإسلام في أكثر من موضع من كتبه.

أحدهما: أن التأويل بمعنى التفسير، وهذا هو الغالب على اصطلاح المفسرين للقرآن، كما يقول ابن جرير وأمثاله من المصنفين في التفسير واختلف علماء التأويل، ومجاهد إمام المفسرين إذا ذكر أنه يعلم تأويل المتشابه فالمراد به معرفة تفسيره.

والثاني: أن التأويل هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام كما قال الله تعالى ﴿**هل ينظرون إلا تأويله؟ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق**﴾[4]. فتأويل ما في القرآن من أخبار المعاد هو ما أخبر الله به فيه مما يكون من القيامة والحساب والجزاء، والجنة والنار ونحو ذلك، كما قال الله تعالى في قصة يوسف لما سجد أبواه وإخوته ﴿**يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل**﴾[5] فجعل عين ما وجد في الخارج هو تأويل الرؤيا.

---

(١) توضيح الكافية الشافية ص٥٤.
(٢) توضيح الكافية الشافية ص٥٤.
(٣) التفسير ٤٧٨/٥.
(٤) سورة الأعراف / آية ٥٣.
(٥) سورة يوسف / آية ٥٣.

والثالث: أن التأويل هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به، وهذا هو أصطلاح كثير من المتأخرين من المتكلمين في الفقه وأصوله.

وهذا التأويل في كثير من المواضع، أو أكثرها وعامتها من باب تحريف الكلم عن مواضعه[1].

وجميع هذه الأنواع تناولها الشيخ ابن سعدى في مؤلفاته، وقد تقدم معنا ذمه للنوع الأخير، وأما النوع الأول والثاني فقد قال عنهما: (وأما التأويل الذي يراد به تفسير مراد الله ومراد رسوله بالطرق الموصلة إلى ذلك فهذه طريقه الصحابة والتابعين لهم بإحسان وهي التي أمر الله ورسوله بها ومدح أهلها.

وكذلك التأويل الذي هو بمعنى ما يؤل إليه الأمر من العمل بأمر الله ومن فهمه ما يؤل إليه الخبر فلفظ التأويل في الكتاب والسنة الغالب عليه هذان الأمران. . . . إلى أن قال: فتبين أن التأويل الصحيح كله يعود إلى فهم مراد الله ورسوله وإلى العمل بالخبر وأن التأويل الباطل يراد به ضد ذلك ويراد به صرف النصوص عن معناها الذي أراده الله ورسوله إلى بدعهم وضلالهم وهو من أعظم ما يدخل في القول على الله بلا علم)[2].

وهذا النوع الأخير تقدم معنا في كلام شيخ الإسلام أن عامته باطل؛ لذلك فإن هناك شروطاً لمن ادعى هذا النوع من التأويل إن توفرت في تأويله كان صحيحا وإلا فهو من التأويل الباطل.

وهي أربعة شروط ذكرها الشيخ ابن سعدى في توضيح الكافية الشافية:

(أحدها): أن يأتي بدليل يدل على قوله؛ لأنه خلاف الأصل فإن الاصل حمل اللفظ على ظاهره وحقيقته فمن أدعى خلاف ذلك فعليه البرهان، فإذا أتى بدليل طولب بأمر **(ثاني)** وهو أن ذلك الذي تأوله إلى ذلك المعنى يحتمله؛ لأنه لابد أن يكون بين الألفاظ والمعاني ارتباط وتناسب؛ لأنه باللسان العربي أنزله الله ليعقله العباد إذا تدبروا ألفاظه فهل يمكن أن يعقلوا أو يفهموا ما ليس له أرتباط ودلالة على المعاني من ذات اللفظ ونفس العبارة بحيث لا يحتاجون إلى أمور خارجية فإذا أتى بما يدل ويحتمل ذلك المعنى الذي عينه وهيهات له ذلك طولب بأمر **(ثالث)** وهو تعيينه المعنى الذي تأول اللفظ له فهب أن ظاهره غير مراد فلابد من دليل يعين المعنى الذي صرفه إليه ويخصصه به فإن التخصيص من دون دليل من باب التكهن والتخرص؛ لأن اللفظ

---

(١) الرسالة التدمرية / ٢٩، الفتاوي / ١ ص٦٨، ٦٩.

(٢) توضيح الكافية الشافية / ٥٤، ٥٥، وانظر الفتاوي السعدية / ١١٩، ١٢٠.

لا يدل عليه بخصوصه، فقد يكون القصد به معنى غير الذي عينوه، وقد يكون اللفظ متعبداً بتلاوته ولفظه مجرداً عن المعاني وهو أولى من تحريفهم أو اتيانهم بمعان ما أنزل الله بها من سلطان، وان كان الأمران ينافيان حكمة الباري لكن التعبد أهون من التحريف.

فإن فرض أنه تأول على غير ظاهره وأتى بدليل على الاحتمال وعلى التعين طولب بأمر (رابع) وهو الجواب عن المعارض؛ لأن الدعوى لا تتم إلا بذلك.

والمعارض للنفي هو جميع الأدلة النقلية من الكتاب والسنة والأدلة العقلية والفطرة)[1].

ويلاحظ أن هذه الشروط عسيرة ولا يمكن توفرها في تأويلاتهم الباطلة وبهذا يفهم قول شيخ الإسلام المتقدم عن هذه التأويلات أن عامتها باطلة.

والمقصود أن الشيخ ابن سعدى كغيره من علماء أهل السنة يرى فساد هذا النوع من التأويل وبطلانه، وأما النوعان الأولان فقد بين أنهما صحيحان وأنهما متعارف عليهما عند السلف الصالح.

لذلك قال عند تفسيره لقوله تعالى:

﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشبه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾[2].

(التأويل يطلق بمعنى التفسير والعلم به، ويطلق بمعنى بيان الحقيقة التي يؤول إليها الأمر، فإن كان الأول فيكون قوله (والراسخون) معطوفاً على قوله (إلا الله) وعلى هذا فإن معناه أن المتشابه هو ضد المحكم.

وهو الذي فيه احتمالات، فالراسخون في العلم يفهمونه ويرجعونه إلى المحكم، فالنص الصريح يقضى على النص الذي فيه عدة احتمالات.

وإن كان الثاني: فالتأويل الذي هو بمعنى نفس حقيقة المخبر عنه من صفات اليوم الآخر لا يعلم كنه ذلك وكيفيته إلا الله تعالى، فيكون الوقوف على (إلا الله) ويكون معنى قوله (والراسخون في العلم) بمعنى أنهم يفوضون معرفة الكنه والكيفية

---

(١) توضيح الكافية الشافية / ٥٥.

(٢) سورة آل عمران / آية ٧.

إلى الله، ويقولون (آمنا به كل من عند ربنا) أي: وما كان من عند ربنا فهو حق، سواء عرفنا كنهه أم لا.

وكلا القولين صحيح، وقد قال بكل منهما طائفة من السلف، والجمع بينهما على ما ذكرنا من اختلاف معنى التأويل أولى وأحسن)[1].

كلامه في ذم الإلحاد في أسماء الله:-

إن النوع الباطل من التأويل يعد من الإلحاد في أسماء الله ومن الميل والعدول بها عن مرادها، وقد حذر الله عز وجل في كتابه من الالحاد في أسمائه أشد التحذير، بعد أن بين أن له الأسماء الحسنى، فقال سبحانه:

﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾[2].

فالواجب على كل مسلم أن يقر ويعترف بجميع ما أثبته الله لنفسه وما أثبته له رسوله من صفات الكمال وأن ينفي عنه ما نفاه عن نفسه وما نفاه عنه رسوله من صفات النقص من غير إلحاد فيها وذلك بأن يحرفها أو يعطلها عن معانيها أو يشبهها بأوصاف المخلوقين أو يكيفها أو غير ذلك من أنواع الإلحاد.

بل الواجب أن يثبتَها على مرادِ الله وأن يحذرَ غايةَ الحذرِ من الإلحاد فيها.

والإلحادُ في أسماء الله له أنواع متعددة:

- أن يسمى بها من لا يستحقها مثل تسمية المشركين أصنامهم بأسماء الله فسموا العزى من العزيز واللات من إله وهكذا.

ب - أن تعطل عن معانيها كقول المعتزلة سميع بلا سمع بصير بلا بصر.

جـ - أن يشبه بها غيره؛ كقول المشبهه يد كأيدينا.

د - أن يحاول تكييفها ومعرفة كنهها.

وكل هذه الأنواع ترجع إلى الميل بها عن مراد الله منها، وقد ذم الشيخ ابن سعدى الالحاد في أسماء الله وصفاته وحذر منه بجميع أنواعه، وبين أن نفي الإلحاد عن أسماء الله وصفاته من تمام الإيمان بها.

فقال رحمه الله (ونفي الإلحاد في أسماء الله وصفاته من تمام إثبات صفات الكمال

---

(١) الفتاوي / ١١٩، ١٢٠، وانظر التفسير ١/٣٥٨، الخلاصة ١٧٤.

(٢) سورة الأعراف / الآية ١٨٠.

وتفرد الرب بنعوت العظمة والجلال، فعلى العبد المؤمن أن يحققها علماً وتعبداً لله بها ونفياً للإلحاد فيها)[1].

وقال (فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها ويحذر الملحدون فيها)[2].

وقال في بيان حقيقة الالحاد وأنواعه (وحقيقة الالحاد في أسماء الله وصفاته الميل بها عما جعلت له.

إما بأن يسم بها من لا يستحقها، كتسمية المشركين بها لآلهتهم. وإما بنفي معانيها وتحريفها، وأن يجعل لها معنى ما أراده الله ولا رسوله وإما أن يشبه بها غيرها)[3].

ومن سلك في أسماء الله وصفات مثل هذه الطرق فقد انحرف عن صراط الله المستقيم.

فالواجب إذاً على المسلم أن يسلك في أسماء الله وصفاته ما سلكه السلف الصالح من صحابة وتابعين من فهم لها على مراد الله منها ومراد رسوله ﷺ.

وقد وضع لهذا المنهج قواعد مبينة له وبها يسهل معرفته.

قواعد في الأسماء والصفات :-

بيان أهمية القواعد واهتمام السعدى بها:

إن معرفة القواعد وإتقانها من أهم العلوم وأعظمها فائدة؛ وذلك أن القواعد يسهل حفظها فإذا حفظت وفهمت يمكن التفريع عليها؛ لذلك اعتنى العلماء بوضع القواعد في جميع الفنون، وليس هناك فن إلا وتجد له قواعد وأصولاً كثيرة تنتهج.

وقد اعتنى ابن سعدى بتدوين القواعد الكلية وأشار إلى أهميتها وفوائدها في غير موضع، ومن ذلك قوله: (ومعلوم أن الأصول والقواعد للعلوم بمنزلة الأساس للبنيان والأصول للأشجار لاثبات لها إلا بها، والأصول تبنى عليها الفروع، والفروع تثبت وتقوى بالأصول، وبالقواعد والأصول يثبت العلم ويقوى وينمى نماءً مطرداً، وبها تعرف مآخذ الأصول، وبها يحصل الفرقان بين المسائل التي تشتبه كثيراً كما أنها تجمع النظائر والأشباه التي من جمال العلم جمعها ولها من الفوائد الكثيرة غير ماذكرنا)[4].

---

(١) توضيح الكافية الشافية / ٩٧.

(٢) التفسير ١٢٢/٣، الحق الواضح المبين / ٥٥ ، ٥٦.

(٣) التفسير ١٢٢/٣.

(٤) طريق الوصول / ٤.

ومما يؤكد اهتمام الشيخ واعتناءه بها أنه أفرد ثلاثة كتب من مؤلفاته خصها بذكر القواعد الكلية الجامعة.

وهي: كتاب طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول وكتاب القواعد والأصول الجامعة، والفروع والتقاسيم البديعة النافعة، وكتاب القواعد الحسان لتفسير القرآن، وله منظومة في القواعد الفقهية.

لهذا سأذكر جملة من القواعد في الأسماء والصفات التي اختارها ابن سعدى وتعرض لها في مؤلفاته.

وهي جملة من القواعد انتقاها الشيخ واختارها من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية. وأذكر بيانه لها؛ وذلك لأن تقرير القواعد وتأصيلها من منهجه كما تبين، ولا سيما في مجال العقيدة.

وهذه القواعد الآتية وإن كانت ليست من استنتاج الشيخ إلا أن ذكره لها وعنايته بشرحها وتوضيحها يدل على شدة اهتمامه بالقواعد.

القاعدة الأولى:

(أسماء الله كلها حسنى).

هذه القاعدة من القواعد الثابتة المتقررة في الشريعة المتفق عليها عند السلف الصالح، وقد ورد في القرآن الكريم عدة نصوص تدل على هذه القاعدة، منها:

قوله تعالى ﴿**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون**﴾[1].

وقوله: ﴿**قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّامّا تدعوا فله الأسماء الحسنى**﴾[2].

وقوله: ﴿**الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى**﴾[3]

وهذه القاعدة، من القواعد التي اهتم بها ابن سعدى وتناولها بالشرح والإيضاح.

---

(١) سورة الأعراف / الآية ١٨٠.

(٢) سورة الإسراء / الآية ١١٠.

(٣) سورة طه / الآية ٨.

قال رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى ﴿**ولله الأسماءُ الحسنى فادعوه بها**﴾[1].

(هذا بيان لعظيم جلاله وسعة أوصافه بأن له الأسماء الحسنى)[2].

وقال عند قوله تعالى: ﴿**له الأسماء الحسنى**﴾[3] (أي له الأسماء الكثيرة جداً، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا هو ومع ذلك فكلها حسنى)[4].

وقال في بيان وجه كونها حسنى هو (أن كل اسم دال على صفة كمال عظيمة، وبذلك كانت حسنى.

فإنها لو دلت على غير صفة، بل كانت علماً محضاً لم تكن حسنى، وكذلك لو دلت على صفة، ليست بصفة كمال بل إما صفة نقص أو صفة منقسمة إلى المدح والقدح لم تكن حسنى.

فكل اسم من اسمائه دال على جميع الصفة التي اشتق منها مستغرق لجميع معناها، وذلك نحو «العليم» الدال على أن له علماً محيطاً عاماً لجميع الأشياء، فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء)[5].

وقال: (ومن حسنها أنه أمر العباد أن يدعوه بها، لأنها وسيلة مقربة إليه يحبها ويحب من يحبها ويحب من يحفظها، ويحب من يبحث عن معانيها ويتعبد له بها)[6].

القاعدة الثانية:-

(أسماء الله كلها توقيفية).

ومعنى ذلك أنه ليس هناك وسيلة لمعرفة أسماء الله وصفاته إلا عن طريق الرسل الذين يبلغون عن الله.

وذلك أن الإيمان بالله وصفاته من الإيمان بالغيب، ولا يمكن معرفة الغيب إلا عن طريق الوحي وقد أثنى الله عز وجل على المؤمنين الذين يؤمنون بالغيب وبين أن الإيمان بالغيب من صفات المتقين، فقال سبحانه: ﴿**آلـمٓ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون**﴾[7].

---

(١) سورة الأعراف / الآية ١٨٠.

(٢) التفسير ٣/١٢٠.

(٣) سورة طه / ١١٠، وسورة الحشر / الآية ٢٤.

(٤) التفسير ٧/٣٤٦، و ٥/١٤٥.

(٥) التفسير ٣/١٢٠، ١٢١، وانظر الحق الواضح المبين / ٥٥.

(٦) التفسير ٥/١٤٥.

(٧) سورة البقرة / الآيات ١، ٢، ٣.

ومن هنا يعلم أن أسماء الله وصفاته لا مجال للعقل فيها، فلا يجوز أن يوصف الله عز وجل إلا بما ورد في الكتاب والسنة.

ولو وصف أحد الله عز وجل بصفه لم ترد في الكتاب والسنة فقد تقول على الله بلا علم، وافترى على الله الكذب قال تعالى: ﴿**ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين، إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**﴾[١].

وقال تعالى: ﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا**﴾[٢].

يقول الشيخ ابن سعدى في بيان هذه القاعدة: (فمن وصف الله بغير ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله أو نفى عنه ما أثبته لنفسه أو أثبت له ما نفاه عن نفسه فقد قال على الله بلا علم)[٣].

قال تعالى: ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا**﴾[٤].

القاعدة الثالثة:

(أسماء الله الحسنى كلها أعلام وأوصاف دالة على معانيها وكلها أوصاف مدح وحمد وثناء)[٥].

ومعنى ذلك أن أسماء الله ليست أعلام محضة لا تدل على معاني كما يقول ذلك المعتزلة، فالمعتزلة أثبتوا لله الأسماء دون ما تتضمنه من الصفات فمنهم من جعل العليم والقدير والسميع والبصير كالأعلام المحضة المترادفة، ومنهم من قال عليم بلا علم قدير بلا قدرة سميع بلا سمع بصير بلا بصر فأثبتوا الاسم دون ما تضمنه من الصفات[٦].

بل هي أعلام وأوصاف. ولو كانت أسماؤه تعالى أعلاما محضة بدون معاني لم تكن حسنى، ومن قال بذلك فقد عطل أسماء الله عن معانيها. ولا يتم الإيمان بالأسماء والصفات إلا بترك التعطيل.

---

(١) سورة البقرة / الآية ١٦٩.
(٢) سورة هود / الآية ١٨.
(٣) التفسير ١/٢٠٠، ٢٠١، وانظر أيضاً التفسير ٣/٤١٣، والمواهب الربانية / ٦١.
(٤) الاسراء / ٣٦.
(٥) هذه القاعدة قد تكون بمثابة التوضيح والبيان للقاعدة الأولى.
(٦) الفتاوي لابن تيمية ٣/٨، والرسالة التدمرية له / ١٣.

قال ابن سعدى في بيان هذه القاعدة (ان أسماء الله الحسنى كلها أعلام وأوصاف دالة على معانيها وكلها أوصاف مدح وحمد وثناء ولذلك كانت حسنى فلو كانت أعلاما محضة لم تكن حسنى . . . إلى أن قال: فصفاته كلها صفات كمال محض فهو موصوف بأكمل الصفات، وله أيضا من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه)[٢].

القاعدة الرابعة :ـ

(يجب الإيمان بأسماء الله وصفاته وأحكام الصفات).

فهذه ثلاثة أركان للإيمان بأسماء الله وصفاته:

١ ـ أن يؤمن بالأسماء الحسنى.

٢ ـ وأن يؤمن بما دلت عليه من صفات.

٣ ـ وأن يؤمن بأحكام تلك الصفات ومتعلقاتها.

وبيان ذلك يظهر بالأمثلة:

فمثلاً الرحمن اسم من أسماء الله والرحمة صفة من صفاته وأنه يرحم من يشاء.

والقدير اسم من أسماء الله والقدرة صفة من صفاته وأنه يقدر بها على فعل كل شيء.

وهكذا في بقية أسماء الله الدالة على أوصاف متعدية.

أما إن كانت تدل على وصف غير متعد فإنها تتضمن أمرين:

ـ إثبات الاسم لله.

ـ وإثبات الصفة التي تضمنها.

ومثاله الحي والقيوم.

وهذه القاعدة أشار إليها ابن سعدى في أكثر من موضع من مؤلفاته قال رحمه الله:

ان من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها،ما دل عليه الكتاب والسنة من الإيمان بأسماء الله كلها وصفاته جميعها وبأحكام تلك الصفات فيؤمنون مثلا بأنه رحمن رحيم ذو الرحمة العظيمة التي اتصف بها المتعلقة بالمرحوم فالنعم كلها من آثار رحمته.

وهكذا يقال في سائر الأسماء الحسنى فيقال عليم ذو علم عظيم يعلم به كل شيء قدير ذو قدرة يقدر على كل شيء.

فإن الله قد أثبت لنفسه الأسماء الحسنى والصفات العليا، وأحكام تلك الصفات.

---

(١) الحق الواضح المبين / ٥٥، وانظر توضيح الكافية الشافية / ٩٦.

فمن أثبت شيئاً منها، ونفى الآخر كان مع مخالفته للنقل والعقل متناقضاً مبطلاً)[1].

القاعدة الخامسة:ـ

(دلالة الأسماء على الذات والصفات تكون بالمطابقة والتضمن والالتزام).

قال ابن سعدى رحمه الله: (وهذه القاعدة من أجل القواعد وأنفعها وتستدعي قوة فكر، وحسن تدبر وصحة قصد.. إلى أن قال:

والطريق إلى سلوك هذا الأصل النافع أن تفهم ما دل عليه اللفظ من المعاني فإذا فهمتها فهماً جيداً، ففكر في الأمور التي تتوقف عليها ولا تحصل بدونها وما يشترط لها. وكذلك فكر فيما يترتب عليها وما يتفرع عنها وينبغي عليها، وأكثر من هذا التفكير وداوم عليه حتى يصير لك ملكة جيدة في الغوص على المعاني الدقيقة فإن القرآن حق ولازم الحق حق وما يتوقف على الحق حق، وما يتفرع عن الحق حق ذلك كله حق ولا بد)[2].

وضرب لذلك مثالاً فقال:

(الرحمن الرحيم تدل بلفظها على وصفه بالرحمن، وسعة رحمته فإذا فهمت أن الرحمة التي لا يشبهها رحمه: هي وصفه الثابت وأنه أوصل رحمته إلى كل مخلوق، ولم يخل أحد من رحمته طرفة عين، عرفت أن هذا الوصف يدل على كمال حياته، وكمال قدرته وإحاطة علمه، ونفوذ مشيئته، وكمال حكمته لتوقف الرحمة على ذلك كله، ثم استدللت بسعة رحمته على أن شرعه نور ورحمه؛ ولهذا يعلل الله تعالى كثيراً من الأحكام الشرعية برحمته وإحسانه، لأنها من مقتضاها وأثرها)[3].

وقال في كتابه الحق الواضح المبين بعد أن ذكر هذه القاعدة (وهذا يجرى في جميع الأسماء الحسنى، كل واحد منها يدل على الذات وتلك الصفة دلالة مطابقة، ويدل على الذات وحدها أو على الصفة وحدها دلالة تضمن، ويدل على الصفة الأخرى اللازمة لتلك المعاني دلالة التزام. مثال ذلك:

الرحمن: يدل على الذات وحدها وعلى الرحمه دلالة تضمن، وعلى الأمرين دلالة

---

(١) الخلاصة / ٧، وانظر، الفتاوي السعدية / ١١، وسؤال وجواب / ٦، والتفسير ١/٣٣، ٣٤، والقواعد الحسان / ١١٠، والتنبيهات اللطيفة / ٢٠.

(٢) القواعد الحسان / ٣١ بتصرف يسير.

(٣) القواعد الحسان / ٣٢.

مطابقة ويدل على الحياة الكاملة والعلم المحيط والقدرة التامة ونحوها دلالة التزام؛ لأنه لا توجد الرحمة من دون حياة الراحم وقدرته الموصلة لرحمته للمرحوم وعلمه به وبحاجته[1].

وقال في موضع آخر مشيراً إلى أهمية هذه القاعدة (وهذه القاعدة تنفعك في جميع النصوص الشرعية فدلالاتها الثلاث كلها حجة؛ لأنها معصومة محكمة)[2].

القاعدة السادسة:

(أسماء الله غير محصورة في عدد معين).

وهذه القاعدة دلت عليها نصوص كثيرة من أحاديث الرسول ﷺ منها:-

ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضى الله عنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو في المسجد، وهما منصوبتان وهو يقول «اللهم أعوذ برضاك من سخطك وبمعافتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك. أنت كما أثنيت على نفسك»[3].

ووجه الدلالة في هذا الحديث (أنه ﷺ أخبر أنه لا يحصى ثناء عليه، ولو أحصى جميع أسمائه لأحصى صفاته كلها فكان يحصي الثناء عليه؛ لأن صفاته إنما يعبر عنها بأسمائه)[4].

ومنها: ما ورد في حديث الشفاعة الطويل أنه ﷺ، قال (ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي)[5].

ووجه الدلالة من هذا الحديث أن هناك محامد من أسماء الله وصفاته يفتح الله بها على رسوله ﷺ في ذلك الوقت، وهي بلا شك غير المحامد المأثورة في الكتاب والسنة.

ومنها: حديث عبدالله بن مسعود رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: (ما أصاب عبداً هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضي في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل

---

(١) الحق الواضح المبين / ٥٤، ٥٥، وانظر التفسير ٢/ ١٧٤.
(٢) توضيح الكافية الشافية / ٩٧.
(٣) مسلم ١/ ٣٥٢، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود.
(٤) درء تعارض العقل والنقل ٣/ ٣٣٢، ٣٣٣.
(٥) أخرجه البخاري ٥/ ٢٢٦، والترمذي ٤/ ٦٢٤. من حديث أبي هريرة.

القرآن ربيع قلبي ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحاً)[1].

والشاهد من هذا الحديث قوله ﷺ: (أو استأثرت به في علم الغيب عندك) حيث (دل على أن أسماءه أكثر من تسعة وتسعين، وأن له أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده لا يعلمها غيره)[2].

وبهذا يتبين أن أسماء الله غير محصورة في عدد معين، وهذا هو قول جمهور العلماء، ولم يخالف في ذلك إلا ابن حزم[3].

فهو يرى أنها محصورة بتسعة وتسعين اسما. واستدل على ذلك بقول الرسول ﷺ: (إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة)[4]. فهو يرى أن هذا الحديث أفاد الحصر[5].

ولا دلالة في الحديث لما ذهب إليه؛ لأن الحديث لا يفيد الحصر. يقول ابن القيم رحمه الله: (فقوله إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة، لا ينفى أن يكون له غيره، والكلام جملة واحدة أي له أسماء موصوفة بهذه الصفة، كما يقال لفلان مائة عبد أعدهم للتجارة وله مائة فرس أعدها للجهاد)[6] وأيضاً فإن الأحاديث المتقدمة أفادت عدم الحصر.

هذا وقد تناول ابن سعدى رحمه الله هذه القاعدة في مراطن متعددة وبين أن معنى الإحصاء للأسماء الحسنى الواردة في الحديث المتقدم هو فهمها وحفظها والاعتراف بها ودعاء الله بها[7].

---

(١) أخرجه أحمد ١/٣٩١، والحاكم ١/٥٠٩ وغيرهما. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٣٦: (رواه أحمد وأبويعلى والبزار إلا أنه قال وذهاب غمي مكان همي، والطبراني، ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير الجهني وقد وثقه ابن حبان) أ.هـ.

(٢) شفاء العليل لابن القيم / ٢٧٧.

(٣) شفاء العليل لابن القيم / ٢٧٧، والتلخيص الحبير لابن حجر ٣/١٧٤.

(٤) أخرجه البخاري ٨/١٦٩، ومسلم ٢/٢٠٦٢ عن أبي هريرة رضى الله عنه.

(٥) الفصل لابن حزم ٢/٣٤٥.

(٦) شفاء العليل لابن القيم / ٢٧٧ ـ وانظر أيضا في ذلك درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٣/٣٣٢ ـ والفتاوى لابن تيمية ٢٢/٤٨٦.

(٧) انظر طريق الوصول / ٣٠٨، والمواهب الربانية / ٦٢، والحق الواضح المبين / ١٣ ـ والخلاصة / ١٨، والتفسير ٧/٣٤٦.

كما أهتم رحمه الله بشرح الأسماء الحسنى وتوضيحها، وعقد لذلك فصلاً خاصاً في تفسيره، بين في مقدمته أن الحاجة داعية إلى التنبيه إلى معاني الأسماء الحسنى، ثم أخذ يذكرها اسماً اسماً ويشرحها بإيجاز)[١].

والمقصود أن من أهم القواعد الثابتة في الأسماء والصفات، أن أسماء الله الحسنى غير محصورة في عدد معين.

القاعدة السابعة:

(المضافات إلى الله إذا كانت أعياناً فهي من جملة المخلوقات وإذا كانت أوصافاً فهي من صفات الله).

وبيان ذلك أن المضافات إلى الله تكون على نوعين:

الأول: أعيان مثل عبدالله، بيت الله، ناقة الله فهذه أعيان قائمة بأنفسها.

فهي إذاً من جملة المخلوقات وإضافتها إلى الله تقتضى تفضيلها وتشريفها على غيرها من المخلوقات.

الثاني: أوصاف مثل سمع الله بصر الله قدره الله علم الله.

فهذه الإضافة تقتضى أن هذه الصفة قائمة بالله. وأن الله متصف بها.

وقد أشار ابن سعدى إلى هذه القاعدة وأوضحها فقال:

(والذي يضيفه الله إلى نفسه، إما أعيان يخصها بهذه الإضافة المقتضية للاختصاص والتشريف مثل عبدالله وناقة الله وبيت الله، ومثله **(وعباد الرحمن)**[٢] فهذه أعيان قائمة بأنفسها وهي من جملة المخلوقات لكنه أضافها لنفسه تفضيلاً لها على غيرها وتعظيماً.

وإما إضافة أوصاف كعلم الله وقدرته وإرادته، وكذلك كلامه وحياته. فهذه الإضافة تقتضى قيامها بالله وأنه موصوف بها. وكذلك ما أخبر أنه منه.

فإن كان أعياناً كروح منه **﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه﴾**[٣]. فهذه منه خلقاً وتقديراً.

وإن كان ذلك أوصافاً كقوله **﴿تنزيل الكتاب من الله﴾**[٤] دل على أن ذلك من

---

(١) التفسير ٥/٦٢٠، وما بعدها.
(٢) سورة الفرقان / آية ٦٣.
(٣) سورة الجاثية / آية ١٣.
(٤) سورة الزمر / آية ١ وفي غيرها.

صفاته لا متناع قيام الصفة بنفسها)[1].

ثم أشار - رحمه الله - إلى أهمية هذه القاعدة فقال (ولهذا لما أهتدى السلف لهذا الفرق الذي يحصل به الفرقان بين الحق والباطل هدوا إلى الصراط المستقيم، ولما ضل عنه الجهمية ونحوهم وقعوا في الأقوال الباطلة)[1].

القاعدة الثامنة:

(الإيمان بالأسماء والصفات يدور على أصلين: النفى المجمل، والإثبات المفصل).

وبيان ذلك: أن المؤمن بأسماء الله وصفاته لا بد أن يكون إيمانه مبنياً على هذين الأصلين:

الأول: الإثبات المفصل:

وهو أن يثبت لله جميع ما أثبته لنفسه، وما أثبته له رسوله ﷺ من صفات الكمال، على وجه التفصيل أي أن كل ما ورد في الكتاب والسنة من الصفات الثبوتية كالسمع والبصر والحياة والقدرة والإرادة وغيرها فإنه يثبتها لله عز وجل على الوجه اللائق به.

الثاني: النفي المجمل:

وهو أن ينفى عن الله كل ما نفاه عن نفسه أو نفاه عن رسوله ﷺ من صفات النقص، وأن يثبت له ضد هذه الصفة المنفية؛ لأن النفي المحض لا يكون كمالا. ومثال ذلك إذا نفى الشريك عن الله فإنه يثبت له التوحد بالكمال وإذا نفى الولد والمكافىء عن الله فإنه يثبت له الكمال المطلق وهكذا.

والمنفى عن الله نوعان: متصل، ومنفصل:

فنفى المتصل: هو أن ينفى عن الله ما يناقض ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ من كل ما يضاد الصفات الكمالية. مثل تنزيه الله: عن السنه والنوم واللغوب والنعاس.

ونفى المنفصل: هو أن ينفى عن الله الشريك في خصائصه التي لا تكون لغيره من التوحد والتفرد بالكمال مثل: تنزيه الله عن أن يكون لله صاحبة أو ولد أو شريك في الملك.

---

(١) توضيح الكافية الشافية / ٣١.

وهذه قاعدة جليلة نافعة شاملة لجميع الأسماء والصفات وقد بين ابن سعدى هذه القاعدة بأنواعها، وأطال في شرحها في مواضع متعددة وبين أهميتها.

فقال: (وهذا النوع ـ توحيد الأسماء والصفات ـ مبنى على أصلين عظيمين:

أحدهما: تنزيه البارى وتقديسه عما لا يليق بجلاله، وما ينافى كماله وحاصله يعود إلى تنزيه الله عن مشاركة أحد من المخلوقين في شيء من صفات كماله عن أمور ثلاثة: عن تشبيهها بصفات المخلوقين أو نفيها عن الله، أو نفى بعض معانيها؛ فيعلم أن له الكمال المطلق غايته ومنتهاه وأكمله فهو المنزه عن الشريك والظهير والعوين والشفيع بلا اذنه، وهو الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وهو المنزه عن السنه والنوم والموت والتعب واللغوب، وأن يغيب عن سمعه أو بصره أو علمه شيء، وهو المنزه عن كل ما ينافي كماله وعظمته وجلاله.

والثاني: وهو المقصود الأعظم، وما مضى وسيلة وتتميم له، فإن جميع ما ينزه الله عنه فإنما ذلك لأجل ثبوت ضده، وهذا النوع مبناه على إثبات جميع صفات الله الموجودة في الكتاب والسنة والاسماء الحسنى ومعانيها على وجهها والتفقه في معرفة معانيها والتحقق بها تصديقاً ومعرفه وتعبداً لله بها)[1]

وبين ـ رحمه الله ـ أن النفى نوعان فقال: (ما ينزه الله عنه من النقص نوعان: سلب المتصل: وضابطه نفى ما يناقض ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله من كل ما يضاد الصفات الكاملة.

وسلب المنفصل: وضابطه تنزيه رب العالمين عن أن يشاركه أحد من الخلق في خصائصه التي لا تكون لغيره من التوحد والتفرد بالكمال وأن يفرد بالعبودية)[2].

وبين أن النفي إذا كان محضا لا يكون من صفات الكمال: فقال: (النفي المحض لا يكون كمالاً؛ ولهذا في مقامات المدح كل نفي في القرآن فإنه يفيد فائدتين نفي ذلك النقص المصرح به وإثبات ضده ونقيضه)[3].

والمقصود أن هذه قاعدة هامة، وقد أشار ابن سعدى ـ رحمه الله ـ إلى أهميتها فقال: بعد أن ذكر هذه القاعدة:

---

(١) توضيح الكافية الشافية / ٨٤، ٨٥ وانظر التنبيهات اللطيفة / ١٢، والحق الواضح المبين / ٥ وما بعدها.

(٢) الحق الواضح المبين / ٦.

(٣) الخلاصة / ١٧٧.

(وهذا ضابط نافع في كيفية الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته)[1]. وقال في موضع آخر: (وهذه فائدة عظيمة فاحفظها في خزانة قلبك فإنها خير الكنوز وأنفعها)[2].

وإليك جملة من الأمثلة في أمور ينزه الله عنها مع بيان ابن سعدى لها:

- الله منزه عن النسيان والغفلة، قال ابن سعدى رحمه الله:

(وينزه عن الغفلة والنسيان بوجه من الوجوه؛ لأنه عالم الغيب والشهادة وعلمه محيط لا يعرض له ما يعرض لعلم المخلوق من خفاء بعض المعلومات أو نسيانها والذهول عنها)[3].

قال تعالى: ﴿**قال علمها عند ربى في كتاب لا يضل ربى ولا ينسى**﴾[4].

- ومنزه عن الاحتياج إلى الرزق والطعام قال رحمه الله: (وينزه عن احتياجه إلى الطعام والرزق فإنه تعالى هو الرزاق لجميع الخلق الغنى عنهم وكلهم فقراء إليه قال تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين**﴾[5]، ﴿**وهو يطعم ولا يطعم**﴾[6]) [7].

- ومنزه عن الظلم: قال رحمه الله: (وينزه البارى عن الظلم للعباد بأن يزيد في سيئاتهم أو ينقص من حسناتهم أو يعاقبهم على مالم يفعلوا فإن الظالم لا يفعله إلا من هو محتاج إليه أو من هو موصوف بالجور وأما الله الغنى عن خلقه من جميع الوجوه الحكم العدل الحميد، فما له وظلم العباد. قال الله تعالى: ﴿**وما ربك بظلام للعبيد**﴾[8]) [9].

- ومنزه عن العبث: قال رحمه الله (ويجب تنزيه الله عن العبث في الخلق والأمر فلم يخلق شيئاً عبثاً ولا باطلاً ولا شرع شيئاً إلا لحكمة عظيمة؛ لأنه حكيم حميد فمن تمام حكمته وحمده اتقان المصنوعات وإحكامها وإحكام الشرائع على أكمل وجه وأتمه)[10].

---

(١) التنبيهات اللطيفة / ١٢.

(٢) الخلاصة / ١٧٧.

(٣) الحق الواضح المبين / ١٠.

(٤) سورة طه / آية ٥٢.

(٥) سورة الذاريات / الأيات ٥٦، ٥٧، ٥٨.

(٦) سورة الأنعام / آية ١٤.

(٧) الحق الواضح المبين / ١٠، ١١ والتفسير ١٨٢/٧.

(٨) سورة فصلت / آية ٤٦.

(٩) الحق الواضح المبين / ١٠.

(١٠) الحق الواضح المبين / ١٠.

القاعدة التاسعة:

(القول في بعض الصفات كالقول في بعض)

وهي قاعدة يرد بها على من فرق بين الصفات فأثبت بعضها ونفى البعض أو أثبت الأسماء دون الصفات.

فمثلا الذي ينازع في محبة الله ورضاه فيجعلها مجازاً ويفسرها بالإرادة يقال له: لا فرق بين ما نفيته وما أثبته بل القول في أحدهما كالقول في الآخر، فإن قال إرادته مثل إرادة المخلوق قيل وكذلك محبته ورضاه وهذا هو التمثيل، وإن قال: له إرادة تليق به كما أن للمخلوق إراده تليق به يقال له: وكذلك له محبة تليق به وللمخلوق محبه تليق به.

وهكذا يقال في سائر الصفات لمن فرق بينها. وهؤلاء الذي فرقوا بين الصفات فأثبتوا بعضها ونفوا الآخر فروا من شيء ووقع في شر منه.

ولو أنهم ساروا في الصفات على منهج واحد فأثبتوها جميعها على الوجه اللائق بالله لسلموا)[1].

وقد أشار ابن سعدى إلى هذه القاعدة فقال: (يقال لمن أثبت بعض الصفات ونفى بعضاً، أو أثبت الأسماء دون الصفات، إما أن تثبت الجميع كما أثبته الله لنفسه وأثبته رسوله، وإما أن تنفى الجميع وتكون منكرا لرب العالمين. وأما إثباتك بعض ذلك ونفيك لبعضه فهذا تناقض، ففرق بين ما أثبته وبين ما نفيته ولن تجد إلى الفرق سبيلا، فإن قلت ما أثبته لا يقتضى تشبيها، قال لك أهل السنة والإثبات: لما نفيته لا يقتضى تشبيها فإن قلت لا أعقل من الذي نفيته إلا التشبيه قال لك النفاة: ونحن لا نعقل من الذي أثبته إلا التشبيه فما أجبت به النفاه أجابك به أهل السنة لما نفيته)[2].

ثم بين تناقض من فرق بين الصفات وأنه ليس معه حجة فقال: (والحاصل أن من نفى شيئاً مما دل الكتاب والسنة على إثباته فهو متناقض لا يثبت له دليل شرعي ولا عقلي بل خالف المعقول والمنقول)[3].

القاعدة العاشرة:

(القول في الصفات كالقول في الذات).

وذلك أن الله سبحانه ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله،

---

(١) الرسالة التدمرية / ١١ وما بعدها.

(٢) التفسير ٢٥٨/١ وانظر طريق الوصول / ٧.

فإذا كان له ذات حقيقية لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقية لا تماثل الصفات[1].

وهذه القاعدة من القواعد التي نبه ابن سعدى عليها؛ قال رحمه الله:

(فإن زعموا أن اثباتها يدل على التشبيه بخلقه، قيل الكلام على الصفات، يتبع الكلام على الذات فكما أن لله ذاتاً لا تشبه الذوات، فلله صفات لا تشبهها الصفات فصفاته تبع لذاته، وصفات خلقه تبع لذواتهم فليس في إثباتها ما يقتضي التشبيه بوجه)[2].

القاعدة الحادية عشرة:

(معاني الصفات معلومة وكيفيتها مجهولة، والإيمان بها واجب والسؤال عن كيفيتها بدعة).

سئل الإمام مالك رحمه الله وغيره من السلف عن قوله تعالى: ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ كيف استوى؟

فقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة».

فبين رحمه الله أن الاستواء معلوم، وأن كيفية ذلك مجهولة، وجميع صفات الله يقال فيها هذه القاعدة فمن سئل عن العلو يقال علو الله على خلقه معلوم وكيفيته مجهولة، والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب. وهكذا بقية الصفات.

وقد نبه ابن سعدى إلى هذه القاعدة وبين أن من سأل عن كيفية صفات الباري عز وجل يقال له:

(إن الأمر في الصفات كلها كما قال الإمام مالك لمن سأله عن كيفية الاستواء على العرش:

«الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة».

فمن سأل عن كيفية علم الله أو كيفية خلقه وتدبيره قيل له فكما أن ذات الله تعالى لا تشبهها الذوات فصفاته لا تشبهها الصفات، فالخلق يعرفون الله ويعرفون ما تعرف لهم به من صفاته وأفعاله، وأما كيفية ذلك فلا يعلم تأويله إلا الله)[3].

---

(١) التدمرية. لابن تيمية / ١٥.

(٢) التفسير ٢٥٧/١ وانظر طريق الوصول / ٦.

(٣) بهجة قلوب الأبرار / ٢١٩ وانظر طريق الوصول / ٨.

كلامه في تقسيم الصفات:

بعد ذكر هذه القواعد الهامة في أسماء الله وصفاته وتوضيح ابن سعدى لها، أرى من المناسب أن أذكر المنهج الذي سار عليه في تقسيم صفات الباري، فأقول:

يرى ابن سعدى ما يراه السلف من أن صفات الله تنقسم إلى قسمين ذاتية وفعلية، وقد بين أن هذا أصل متفق عليه بين السلف كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة.

قال: (ومن الأصول المتفق عليها بين السلف التي دلت عليها النصوص أن صفات البارى قسمان:

- صفات ذاتية لا تنفك عنها الذات كصفة الحياة والعلم، والقدرة والقوة والعزة، والملك، والعظمة، والكبرياء، ونحوهما كالعلو المطلق.
- وصفات فعلية: تتعلق بها أفعاله في كل وقت وآن وزمان ولها آثارها في الخلق والأمر فيؤمنون بأنه تعالى فعال لما يريد وأنه لم يزل ولا يزال يقول ويتكلم ويخلق ويدبر الأمور وأن أفعاله تقع شيئا فشيئا تبعا لحكمته وإرادته، فإن شرائعه وأوامره ونواهيه الشرعية لا تزال تقع شيئاً فشيئاً. . إلى أن قال: فعلى المؤمن الإيمان بكل ما نسبه الله لنفسه من الأفعال المتعلقة بذاته كالاستواء على العرش والمجيء والإتيان والنزول إلى السماء الدنيا والقول ونحوها، والمتعلقة بخلقه كالخلق والرزق وأنواع التدبير)[1] وبين أن صفات الأفعال قائمة بذات الله ومتعلقه بما ينشأ عنها من الأقوال والأفعال[2].

وذم من خلف هذا التقسيم من أهل الكلام فقال: (أما تقسيم[3] بعض أهل الكلام الباطل أن صفات الأفعال لا تقوم بذات الله بل الفعل عندهم عين المفعول، فهذا قول باطل بالكتاب والسنة والإجماع من السلف. . . . . .)[4].

وقول أهل الكلام هذا مخالف لما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من عدم التفريق بين الصفات الذاتية والصفات الفعلية المتعلقة بمشيئة الله وقدرته.

لذا يقول ابن سعدى رحمه الله: (أما أهل السنة والجماعة فإنهم أثبتوا كل ما جاء

---

(١) التنبيهات اللطيفة / ٢٠، ٢١.

(٢) الحق الواضح المبين / ٥٢. والفتاوي السعدية / ١١.

(٣) كذا قال ولم يورد تقسيما فالأولى أن يقال أما قول. . . . . الخ.

(٤) الحق الواضح المبين / ٥٢ وتوضيح الكافية الشافية / ٣٠.

به الكتاب والسنة من صفات الله، واعترفوا بها لا فرق عندهم بين الصفات الذاتية والصفات الفعلية المتعلقة بمشيئته وقدرته، وكلها قائمة بالله، والله موصوف بها، وهو القول الذي دل عليه النقل والعقل)[1].

وقسم رحمه الله صفات الأفعال إلى قسمين: قسم متعلق بذات الله والآخر متعلق بخلقه فقال:

(جميع صفات الأفعال المتعلقة بذاته كالاستواء على العرش ونزوله إلى سماء الدنيا على ما وردت به النصوص والمجيء والإتيان والقول ونحو ذلك والمتعلقة بخلقه كالإحياء والإماتة والخلق وأنواع التدبيرات كلها تصدر عن القدرة والإرادة)[2].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض الصفات، قد تكون ذاتيه باعتبار وفعليه باعتبار آخر.

كصفة الكلام مثلاً:

فإنها بإعتبار أصلها صفة ذاتية؛ لأن الله لم يزل ولا يزل متكلماً، وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية لأن الكلام متعلق بمشيئة الله يتكلم بها شاء متى شاء[3].

وفيما يلي سأذكر جملة من الصفات الذاتية، وجملة أخرى من الصفات الفعلية وأذكر كلام ابن سعدى عنها:

وقد نهج - رحمه الله - في إثبات الصفات منهج السلف الصالح من فهم النصوص على مراد الله ومراد رسوله ﷺ منها، وهذا هو المنهج الحق والمسلك المستقيم.

أولاً: ذكر جملة من الصفات الذاتية وكلام الشيخ عنها:

أ - من الصفات الذاتية الحياة قال ابن سعدى في إثبات هذه الصفة: (الحي الذي له جميع معاني الحياة الكاملة من السمع والبصر والقدرة وغيرها من الصفات الذاتية)[4]، (والحي يتضمن جميع الصفات الذاتية)[5].

ب - ومنها السمع قال رحمه الله: (فالسميع الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات،

---

(١) الحق الواضح المبين / ٥٣، وانظر توضيح الكافية الشافية / ١٣، والتفسير ١/٢٥٦.

(٢) الحق الواضح المبين / ١٤.

(٣) انظر الحق الواضح المبين / ٢٣.

(٤) التفسير ١/٣١٣، توضيح الكافية الشافية / ٢١، وغيرهما.

(٥) الخلاصة / ١٣. وانظر توضيح الكافية الشافية / ٤٦.

فكل ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات يسمعها سرها وعلنها وكأنها لديه صوت واحد لا تختلط عليه الأصوات ولا تخفى عليه جميع اللغات والقريب والبعيد والسر والعلانية عنده سواء)[1].

ج - ومنها البصر قال رحمه الله (البصير الذي يبصر كل شيء وإن دق وصغر فيبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ويبصر ما تحت الأرضين السبع كما يبصر ما فوق السموات السبع)[2].
وقال: (فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء وجميع أعضائها الباطنة والظاهرة وسريان القوت في أعضائها الدقيقة، ويرى سريان الماء في أغصان الأشجار وعروقها وجميع النباتات على اختلاف أنواعها وصغرها ودقتها، ويرى نياط عروق النملة والنحلة والبعوضة وأصغر من ذلك)[3].

د - ومنها العلم قال رحمه الله: (فيعلم تعالى الأمور المتقدمة والأمور المتأخرة أزلا وأبداً ويعلم جليل الأمور وحقيرها وصغيرها وكبيرها ويعلم تعالى ظواهر الأشياء وبواطنها غيبها وشهادتها ما يعلم الخلق منها وما لا يعلمون، ويعلم تعالى الواجبات والمستحيلات والجائزات، ويعلم تعالى ما تحت الأرض السفلى كما يعلم ما فوق السموات العلى ويعلم تعالى جزئيات الأمور وخبايا الصدور وخفايا ما وقع ويقع في أرجاء العالم وأنحاء المملكة فهو الذي أحاط علمه بجميع الأشياء في كل الأوقات ولا يعرض لعلمه خفاء ولا نسيان)[4].

هـ - ومنها القدرة قال - رحمه الله -: (فالله كامل القدرة بقدرته أوجد الموجودات وبقدرته دبرها، وبقدرته سواها وأحكمها وبقدرته يحي ويميت ويبعث العباد للجزاء ويجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته إذا أراد شيئا قال له «كن فيكون» وبقدرته يقلب القلوب ويصرفها على ما يشاء ويريد)[5]

و - ومنها الإرادة قال رحمه الله في بيان أعتقاد أهل السنة والجماعة في الإرادة: (ويعتقدون أن له الارادة النافذة في جميع الموجودات، وبها خصص ما شاء من

(١) الحق الواضح المبين / ١٩، وانظر التفسير ٦٢٢/٥.
(٢) التفسير ٦٢٢/٥.
(٣) الحق الواضح المبين / ٢٠.
(٤) المواهب الربانية / ٦٣. والتفسير ١٤٥/٥، وتوضيح الكافية الشافية / ٢١.
(٥) التفسير ٦٢٤/٥، ٦٢٥.

المخلوقات بالصفات المتباينة والنعوت المتنوعة)[1].

ز - ومنها اليدان قال رحمه الله: (فله يدان حقيقة، كما ان ذاته لا تشبهها الذوات، فصفاته لا تشبهها الصفات)[2].

ح - ومنها الوجه قال رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم**﴾[3] قال: (فيه إثبات الوجه لله تعالى على الوجه اللائق به تعالى، وإن لله وجها لا تشبهه الوجوه)[4].

ط - ومنها القدم قال رحمه الله: عند قوله تعالى: ﴿**وتقول هل من مزيد**﴾[5]... (وقد وعدها الله ملأها كما قال تعالى: ﴿**لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين**﴾[6] حتى يضع رب العزة عليها قدمه الكريمة المنزهه عن التشبيه فينزوى بعضها على بعض وتقول قط قط قد أكتفيت وأمتلأت)[7].

ى - ومنها الساق قال رحمه الله: (إذا كان يوم القيامة وانكشف فيه من القلاقل والزلازل والأهوال ما لا يدخل تحت الوهم، وأتى البارى لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء، ورأى الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه....)[8].

ثانيا: ذكر جملة من الصفات الفعلية «الاختيارية» وكلام الشيخ عنها:

أ - من صفات الأفعال القيومية قال - رحمه الله - في إثبات هذه الصفة: (القيوم تدخل فيه جميع صفات الأفعال؛ لأنه القيوم الذي قام بنفسه واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بجميع الموجودات، فأوجدها وأبقاها، وأمده بجميع ما تحتاج إليه في وجودها وبقائها)[9] وهذا من الصفات التي تكون ذاتية باعتبار وفعلية باعتبار فهو قائم بنفسه ومقيم لغيره.

---

(١) توضيح الكافية الشافية / ٢١.
(٢) الخلاصة / ١٠٧.
(٣) سورة البقرة آية ١١٥.
(٤) التفسير ١/١٢٩.
(٥) سورة ق / آية ٣٠.
(٦) سورة هود آية ١١٩.
(٧) التفسير ٧/١٥٥.
(٨) التفسير ٧/٤٥٢.
(٩) التفسير ١/٣١٣، والخلاصة / ١٠.

ب - ومنها الرحمة قال رحمه الله: (الرحمن الرحيم اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل مخلوق)[1].

ج - ومنها الرزق قال رحمه الله: (الرزاق لجميع عباده فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها. ورزقه لعباده نوعان: رزق عام شمل البر والفاجر والأولين والآخرين وهو رزق الأبدان.
ورزق خاص وهو رزق القلوب وتغذيتها بالعلم والإيمان، والرزق الحلال الذي يعين على صلاح الدين وهذا خاص بالمؤمنين على مراتبهم معه بحسب ما تقضتيه حكمته ورحمته)[2].

د - ومنها الإتيان والنزول والاستواء قال ابن سعدى عند قوله تعالى: ﴿**هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً . . .**﴾[3].
قال: (وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى كالاستواء والنزول والإتيان لله تبارك وتعالى من غير تشبيه له بصفات المخلوفين)[4].
وقال عند قوله تعالى: ﴿**هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام**﴾[5]: (هذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة المثبتين للصفات الاختيارية كالاستواء والنزول والمجيء ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى عن نفسه وأخبر بها عنه رسوله ﷺ، فيثبتونها على وجه يليق بجلال الله وعظمته من غير تشبيه ولا تحريف ولا تعطيل)[6].

هـ - ومنها الرضى والغضب والسخط قال - رحمه الله - عند قوله تعالى: ﴿**فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين**﴾[7].

---

(١) الخلاصة / ٩، والمواهب الربانية / ٦٤.
(٢) التفسير ٥/٦٢٦، ٦٢٧ والحق الواضح المبين / ٤٥.
(٣) سورة الأنعام / آية ١٥٨.
(٤) التفسير ٢/٥٠٩
(٥) سورة البقرة / آية ٢١٠.
(٦) التفسير ١/٢٥٦. وانظر سؤال وجواب / ٧.
(٧) سورة التوبة / آية ٩٦.

قال: (وفيها إثبات الرضا لله عن المحسنين والغضب والسخط على الفاسقين)[1].

ز - ومنها الصبر قال - رحمه الله - (الكمال المطلق التام من جميع الوجوه ثابت لله تعالى نقلاً وعقلاً في جميع الأسماء والصفات والنعوت ومن أنواع الكمال الصبر. . .)[2].

ح - منها الحياء قال - رحمه الله -: (هذا مأخوذ من قوله ﷺ «إن الله يستحى من عبده إذا مد يداه إليه أن يردها صفراء»[3] وهذا من رحمته وكرمه وكماله وحلمه أن العبد يجاهر بالمعاصي مع فقره الشديد إليه حتى إنه لا يمكنه أن يعصى إلا أن يتقوى عليها بنعم ربه والرب مع كمال غناه عن الخلق كلهم من كرمه يستحيى من هتكه وفضيحته وإحلال العقوبة به)[4].

د - ومنها المعية قال - رحمه الله -: (أخبار الله أنه مع عباده يرد في القرآن على أحد نوعين:

أحدهما: المعية العامة كقوله ﴿**ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من دلك ولا أكثر إلا هو معهم**﴾[5] أى هو معهم بعلمه وإحاطته.

الثاني: المعية الخاصة وهي أكثر وروداً في القرآن وعلامتها أن يقرنها الله بالاتصاف بالأوصاف التي يحبها والأعمال التي يرتضيها مثل قوله ﴿**وأعلموا أن الله مع المتقين**﴾[6] وقوله: ﴿**لا تحزن إن الله معنا**﴾[7] وقوله ﴿**لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى**﴾[8] وهذه المعية تقتضى العناية من الله والنصر والتأييد والتسديد بحسب قيام العبد بذلك الوصف الذي رتبت عليه المعية)[9].

---

(١) التفسير ٣/٢٨٥.

(٢) الفتاوي السعدية / ٢٩، وانظر الحق الواضح المبين / ٣١.

(٣) أخرجه أحمد ٥/٤٣٨، ٦/٣١٤، وابن ماجه ٢/١٢٧٠، والترمذي ٥/٥٥٦ وقال حديث حسن غريب. والحاكم ١/٤٩٧ وقال صحيح الإسناد على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٤) الحق الواضح المبين ٢٩، ٣٠.

(٥) سورة المجادلة / آية ٧.

(٦) سورة البقرة / آية ١٩٤.

(٧) سورة التوبة / آية ٤٠.

(٨) سورة طه / آية ٤٦.

(٩) الخلاصة / ١٧٤ والتفسير ٥/٦١٧. والمواهب الربانية / ١٤، ١٥.

هذا وبعد ذكر هذه الجملة من صفات الله الثبوتية الذاتية منها والفعلية، يجد القارىء أن ابن سعدى رحمه الله قد سار في إثبات الصفات في جميع مؤلفاته ومن أهمها التفسير على منهج السلف الصالح، وذلك بإثبات جميع ما أثبته الله لنفسه وما أثبته له رسوله من صفات الكمال من غير تكييف ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل وهذا هو المنهج الحق بخلاف غيره من المناهج الباطلة كمذهب الجهمية والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم.

وكما أنه رحمه الله سار على هذا المنهج في التأصيل والتقرير، فإنه كذلك سار عليه في الرفض والرد، وأعنى بذلك أنه رحمه الله دافع عن هذا المنهج على طريقة السلف من رفض كل ما يخالف هذه العقيدة في الأسماء والصفات.

فتناول بالرد من ينكر الصفات أو ينكر بعضها أو يتأولها، أو يشبهها بصفات المخلوقين أو غير ذلك من أنواع الإلحاد في أسماء الله وصفاته وقد تقدم معنا في القواعد التي قررها رحمه الله قاعدة: «القول في الصفات كالقول في الذات»، وقاعدة «القول في بعض الصفات كالقول في بعض»، وقاعدة «الإستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب»، وتقدم معنا شرحه لها وكيف يرد بها على المعطلة والمؤولة وغيرهم، وهي قواعد هامة تبين تهافت أقوالهم وتناقض أرائهم التي ليس عليها برهان من كتاب ولا سنة ولا عقل بل هي مخالفة لما تقرر في الكتاب والسنة من إثبات الصفات ومخالفة للعقل السليم الذي لم ينحرف.

وكما قرر ـ رحمه الله ـ هذه القواعد العامة التي يرد بها على هؤلاء المؤولة فقد ناقشهم في ما ينكرونه من الصفات، وبين أنه ليس معهم حجة ولا برهان. وذكر الأدلة الدالة على بطلان مذاهبهم.

فناقشهم في صفة الإستواء والكلام والعلو، والنزول والإتيان وغيرها من صفات الله الثابتة بالكتاب والسنة.

ولكى نتعرف على منهجه في الرد على هؤلاء أرى من المناسب أن أذكر مناقشاته معهم في بعض الصفات وأكتفى بذكر صفتين فقط وهما:

صفة الكلام، وصفة الاستواء؛ ليكونا كنموذج لمناقشاته معهم في بقية الصفات.

أولاً: صفة الكلام أدلتها، وردود ابن سعدى على من أنكرها:

إن هذه المسألة قد طال الكلام فيها وتنازع الناس فيها نزاعاً كبيراً، وكثرت أقوال المتكلمين فيها، حتى إنه يقال إنما سمي علم الكلام لكثرة التكلم في هذه الصفة.

وسيتركز حديثنا في هذه المسألة في ثلاث نقاط:

أولاً : ذكر أقوال الناس في هذه المسألة.
ثانياً : بيان نصرة الشيخ لمذهب السلف وأدلته على ذلك.
ثالثاً : ردوده على المخالفين.

أولاً: ذكر أقوال الناس في هذه المسألة:

إن من المناسب أن أذكر أقوال الناس في هذه المسألة، قبل بيان المذهب الحق، وقبل الرد على مخالفيه؛ وذلك ليكون عند القارىء تصور لها.

وتتلخص أقوال الناس في هذه الصفة في تسعة أقوال:

أحدها: أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من معاني، إما من العقل الفعال عند بعضهم، أو من غيره وهذا قول الصابئة والمتفلسفة.

وثانيها: أنه مخلوق خلقه الله منفصلا عنه، وهذا قول المعتزلة.

وثالثها: أنه معنى واحد قائم بذات الله، وهو الأمر والنهي والخبر والاستخبار وإن عبر عنه بالعربية كان قرآنا، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة، وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه كالأشعري[1] وغيره.

ورابعها: أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل، وهذا قول طائفة من أهل الكلام ومن أهل الحديث.

وخامسها: أنه حروف وأصوات، لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلماً وهذا قول الكرامية وغيرهم.

وسادسها: أن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته وهذا يقوله صاحب المعتبر، ويميل إليه الرازي في «المطالب العالية».

وسابعها: أن كلامه يتضمن معنى قائماً بذاته هو ما خلقه في غيره وهذا قول أبي منصور الماتريدي.

---

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن أبا الحسن الأشعري قد رجع عن عقيدة الكلابية وألف رسائل على عقيدة السلف وإن كان فيها بعض الشوائب العالقة إثر تركه لعقيدة المعتزلة، ومن ثم تركه لعقيدة الكلابية.

ومن هذه المؤلفات التي سار فيها الأشعري على نهج السلف كتابه الإبانة وكتابه رسالة إلى أهل الثغرة، وكتابه مقالات الإسلاميين.

ولمزيد من الإيضاح راجع رسالة أبي القاسم عبدالملك بن عيسى بن درباس في الذب عن أبي الحسن الأشعري بتحقيق الدكتور على ناصر فقيهي. ورسالة الشيخ حماد الأنصاري في أبي الحسن الأشعري، طبع مؤسسة النور ١٣٨٢هـ.

وثامنها: أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات، وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات وهذا قول أبي المعالي ومن تبعه.

وتاسعها: أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وهو يتكلم به بصوت يسمع وأن كلامه قديم النوع حادث الآحاد، وأنه لا نهاية له؛ لأنه لا نهاية للمتكلم به وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة[1].

ثانياً: بيان نصرة الشيخ لمذهب السلف وأدلته على ذلك:

لا ريب أن المذهب الحق من هذه المذاهب، هو مذهب أهل السنة والجماعة الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة[2]؛ لذا فإن ابن سعدى قد أيد هذا المذهب ونصره وبين أنه المذهب الحق وأطال في ذكر أدلته.

قال ـ رحمه الله ـ: (القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود والله المتكلم به حقا لفظه ومعانيه ولم يزل ولا يزال متكلما بما شاء إذا شاء وكلامه لا ينفذ ولا له منتهى)[3].

وبين ـ رحمه الله ـ أن هذا هو قول أهل السنة والجماعة فقال: (ومن قول أهل السنة والجماعة قولهم في الكلام وأن الله لم يزل ولا يزال له الكمال المطلق فكلامه القرآن هو المقروء بالألسنة المحفوظ في الصدور المسموع بالآذان، وكلامه من جملة صفاته الفعلية فهو متصف به، وهو متعلق بمشيئة وقدرته، وليس مخلوقاً؛ لأن الكلام صفة المتكلم)[4].

أدلة ابن سعدى على هذا المذهب:

تقدم معنا أنه ـ رحمه الله ـ أكثر من ذكر الأدلة على صحة هذا المذهب؛ لذا سأكتفى بذكر جملة منها:

١ ـ قال رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية / **١١٩، ١٢٠**، ومختصر الصواعق لمحمد بن الموصلى / **٤٢٣** وما بعدها.

(٢) الفتاوي لابن تيمية **١٣/١٣٢**.

(٣) سؤال وجواب / **٨**، وانظر الفتاوي / **١٢**، والخطب المنبرية / **٧٥**، والحق الواضح المبين / **٢٣**.

(٤) توضيح الكافية الشافية / **٢٢**.

نجيا﴾[1] (وفي هذا إثبات صفة الكلام لله تعالى وأنواعه من النداء والنجاء كما هو مذهب أهل السنة والجماعة خلافاً لمن أنكر ذلك من الجهمية والمعتزلة ومن نحا نحوهم)[2].

٢ ـ ومن الأدلة قوله تعالى: **﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾**[3] قال ـ رحمه الله ـ: (ففي هذا كلام الرب تعالى لأهل الجنة وسلامه عليهم وأكده بقوله قولاً)[4].

٣ ـ ومنها قوله تعالى: **﴿وكلم الله موسى تكليما﴾**[5] قال رحمه الله: أي مشافهة منه إليه بلا واسطة حتى أشتهر بهذا عند العالمين فيقال «موسى كليم الرحمن»)[6].

٤ ـ ومنه قوله تعالى: **﴿وإن أحد من المشركين أستجارك فأجره حتى يسمع كلام الله﴾**[7] قال رحمه الله: (وفي هذا حجة صريحة لمذهب أهل السنة والجماعة القائلين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق؛ لأنه تعالى هو المتكلم به وأضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها)[8].

٥ ـ ومنها قوله تعالى: **﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾**[9] وقوله: **﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾**[10].

قال رحمه الله: (هذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان؛ لأن هذه الأشياء مخلوقه وصفاته غير مخلوقه ولا لها حد ولا منتهى، فأي سعه وعظمه تصورتها القلوب فالله فوق ذلك؛ وهكذا سائر صفات الله تعالى كعلمه وحكمته وقدرته ورحمته)[11].

٦ ـ ومنها قوله تعالى: **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**[12] قال رحمه الله:

---

(١) سورة مريم / آية ٥٢.
(٢) التفسير ٥/١١٧.
(٣) سورة يس / آية ٥٨.
(٤) التفسير ٦/٣٥٤.
(٥) سورة النساء / آية ١٦٤.
(٦) التفسير ٢/٢١٨.
(٧) سورة التوبة / آية ٦.
(٨) التفسير ٣/٢٠١.
(٩) سورة الكهف / ١٠٩.
(١٠) سورة لقمان / آية ٢٧.
(١١) التفسير ٥/٨٦، وانظر التفسير ٦/١٦٨، ١٦٩.
(١٢) سورة الحجر / آية ٩.

(اشتملت على فوائد عديدة الأولى والثانية أن القرآن كلام الله غير مخلوق وأن الله تعالى عليٌ على خلقه وهذا مأخوذ من قوله (نزلنا الذكر) فإنه نزل به جبريل من الله العزيز العليم فكونه نازلاً من عند الله يدل على علو الله، وكونه من عنده يدل على أنه كلام الله فإن الكلام صفة للمتكلم ونعت من نعوته)[1].

٧ - ومنها قوله تعالى: ﴿الله خالق كل شيء﴾[2] قال رحمه الله: (هذه العبارة وما أشبهها مما هو كثير في القرآن تدل على أن جميع الأشياء غير الله وأسمائه وصفاته مخلوقه . . . وليس كلام الله من الاشياء المخلوقة؛ لأن الكلام صفة المتكلم والله تعالى بأسمائه وصفاته أول ليس قبله شيء.
فأخذُ أهل الاعتزال من هذه الآية ونحوها أن كلام الله مخلوق من أعظم الجهل، فإنه تعالى لم يزل بأسمائه وصفاته، ولم يحدث صفه من صفاته، ولم يكن معطلاً عنها بوقت من الأوقات)[3].

٨ - ومنها قول ﷺ في الحديث القدسي: (فيقول الله تعالى: يا آدم فيقول لبيك وسعديك فينادي بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار)[4].
قال رحمه الله: (ففي هذا الحديث إثبات القول من الله والنداء لآدم وأنه نداء حقيقة بصوت، وهذا من فضل الله لا يشكل على المؤمنين فإن النداء والقول من أنواع الكلام، وكلام الله صفة من صفاته، والصفة تتبع الموصوف)[5].

٩ - ومنها قوله ﷺ: (ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان)[6].
قال رحمه الله: (وهذا أيضا إثباتٌ لتكليمه لجميع العباد بلا واسطة)[7].

واكتفى بهذا القدر من الأدلة وهي في الحقيقة كثيرة جداً ولا تحصر إلا بكلفه.

ثالثا: ردوده على المخالفين:

وأعنى بالمخالفين من خالف هذا المنهج الواضح الذي دلت عليه نصوص الكتاب

---

(١) المواهب الربانية / ٢٦.
(٢) سورة الزمر / آية ٦٢.
(٣) التفسير ٦/٤٨٩.
(٤) أخرجه البخاري ٨/١٩٥.
(٥) التنبيهات اللطيفة / ٢٩.
(٦) أخرجه البخاري ٨/١٨٥، ومسلم ٢/٧٠٣، والترمذي ٤/٦١١، وأحمد في المسند ٤٠/٢٥٦.
(٧) التنبيهات اللطيفة ٣٠.

والسنة، كما تقدم، وذكر هذه الجملة من الأدلة على صحة هذا المذهب يعد رداً على غيره من المذاهب؛ وذلك لأنه إذا تعين أن هذا المذهب هو الحق فإن ما سواه يعد باطلا لا يلتفت إليه.

ومع ذلك فقد تناول السعدى ـ رحمه الله ـ الرد على هؤلاء، ونقض شبههم وبين ضعفها وأنها ليس فيها حجة، وأنها مخالفة لمراد الله ورسوله، من وجوب إثبات هذه الصفة العظيمة لله عز وجل على الوجه اللائق به. كغيرها من صفاته عز وجل.

فناقش الفلاسفة والجهمية والمعتزلة والأشاعرة والكلابية والكرامية وغيرها من الطوائف التي ضلت في هذه الصفة وبين أنهم كلهم عدلوا عن الصراط المستقيم وألحدوا في هذه الصفة إذ لم يثبتوها لله عز وجل.

وقد تقدم معنا أقوال هذه الطوائف في هذه الصفة، والآن سنتناول ردوده عليهم، كل طائفة على حده باختصار.

ذكر قول الفلاسفة في صفة الكلام والرد عليه:

قال الشيخ ابن سعدى ـ رحمه الله ـ مبينا قول الفلاسفة ومن أين أخذوه: (فلما كان من أصولهم القول بقدم العالم وأن العقل الفعال هو المحدث لكل ما تحته وأن هذا العقل دائم الفيض على ما تحته على المحال المستعدة بحسب قابليتها، فيفيض الوجودات وأوصافها وأفعالها وأقولها وآثارها، فيفسرون كلام الله على هذا الأصل الباطل فيقولون لما كان محمد قد اجتمعت فيه القوى الكاملة من الزكاء والذكاء والقوة العملية، فاض عليه من هذا العقل ما يناسب حاله وهو الكلام الراقي فتلقاه وأتى به للعباد ألفاظا وخطابه ومواعظ خالية من البراهين لم تصرح بالحق بل رمزت إليه وأشارت إليه من بعيد)[1].

ومقصود قولهم أن القرآن ليس كلام الله وإنما هو معاني تخيلها الرسول ﷺ ونظمها في عبارات من عنده، وهذا قول باطل لا مريه في بطلانه، وهو ناتج أولا وقبل كل شيء عن عدم إيمانهم بالله عز وجل.

لذا يقول ابن سعدى-رحمه-الله في بيان بطلان هذا المذهب: (ومن تصور أقوالهم جزم بأنهم لا يؤمنون بالله ولا يثبتون وجوده ولا يثبتون الرسالة ولا المعاد الأخروى، وعلم أن ما قالوه مع مخالفته لجميع ما جاءت به الرسل فإنه مخالف لما دلت عليه العقود الصحيحة، وأن ما ادعوه من العقليات هو في الحقيقة جهليات وخيالات. وبسط الكلام على مذهبهم يستدعى أكثر من ذلك، وإنما راج مذهبهم على كثير من الناس لما فيه من

(١) توضيح الكافية الشافية / ٣٣، ٣٤.

التمويهات والتلبيس والنفاق ويصادف مع هذا قلة بصيرة والله المستعان)[1].

ولا شك أن قول هؤلاء الفلاسفة ساقط، ومخالف لما جاءت به الرسل ومخالف للعقول السليمة كما أوضح ذلك ابن سعدى - رحمه الله - إلا أنه مع ذلك فإنه يوجد من أبناء المسلمين من أغتر بهذا القول وأخذ به وصار يدعو إليه.

ومن هؤلاء الذي أغتروا بهذا المعتقد الفاسد القصيمي صاحب الأغلال الذي تقدمت ردود ابن سعدى عليه في مسألة انكار وجود الباري عز وجل، فهو في هذه المسألة أيضاً أخذ بقول الفلاسفة واعتمده كما أنه أخذ بجميع ما يدعون إليه.

وفي رد ابن سعدى على كتاب القصيمي «هذى هي الأغلال» تناول هذه المسألة وبين ضلاله فيها وبين أن قصده من وراء ذلك هو افساد الدين والدعاية إلى نبذه ومحاربته بكل طريقه)[2].

ومن أقوال القصيمي الباطلة في هذه المسألة والتي تناولها ابن سعدى بالرد قوله في بيان مأخذ الرسول ﷺ لنصوص الوحى من أي طريق؟ أنه (كان يعبد الطبيعة وأخذت قلبه وقالبه ولبه وكان يناجى الليل والنهار والضياء والظلمة والنسيم ونحوها مما يشاهد، وافتتح رسالته بمناجاة الطبيعة والخلوة بها في غار حراء، وختم رسالته وحياته بشدة النزع إليها وقت السياق حيث كان يقول في الرفيق الأعلى)[3].

فهو يرى أن النبي ﷺ جاء بالقرآن من عند نفسه، وهذا القول كفر ليس وراءه كفر، لأنه أنكر بذلك الوحي والرسالة.

لذا يقول ابن سعدى: (فهو بهذا التحليل أنكر الوحي والرسالة ورمى النبي ﷺ بأنه طبيعي لا يعرف الله ولا يعرف الوحي فلم ينزل عليه جبريل من عند الله، ولا كان يناجي الله ولا يعبده، ولا كان عند السياق إلا مشتاقاً إلى الطبيعة فقط؛ لأنه لا يعرف الله ولا يريده، ولا يحبه[4] ولا يطلبه، وظهر بهذا غرض القصيمي الوحيد، وهو الدعاية إلى نبذ الدين ومحاربته)[5].

(١) توضيح الكافية الشافية / ٣٤.

(٢) انظر تنزيه الدين / ١٩، ٢٠.

(٣) هذى الأغلال للقصيمي / ٥٦، ١٥٧.

(٤) هذه المسألة قد استوفى ابن تيمية الرد فيها على أسلاف القصيمي من الفلاسفة والمعتزلة وغيرهم في أكثر كتبه، ولا سيما كتابه «النبوات» انظر ص٢٤٨ وما بعدها من كتاب النبوات فقد ذكر أقوال المتكلمين ورد عليها.

(٥) تنزيه الدين / ١٨، ١٩ بتصرف يسير.

وهذا من قلة بصيرة هذا الشخص بدين الله ؛ لأن هذا الكلام لا يقوله عاقل مؤمن بالله مصدق برسوله ﷺ.

والمقصود أن قول الفلاسفة المتقدم ذكره والذي أيده هذا القصيمي، لا يلتفت إليه لمخالفته جميع ما جاءت به الرسل ولمخالفته للعقول السليمة.

قول الجهمية والمعتزلة ورد ابن سعدى عليه

تقدم أن قول الجهمية والمعتزلة في صفة لكلام، هو أنهم يرون أن الكلام ليس صفة لله عز وجل، وإنما هو مخلوق من مخلوقاته حلقه كما خلق السموات والأرض خارجاً عن ذات الله لا يقوم بذاته كلام ولا قول، قال ابن سعدى ـ رحمه الله ـ في بيان بطلان هذا القول وأنه أمر مستنكر عند الناس غير مستساغ: (فلما قال الناس لهم هذا أمر معلوم بطلانه فإن الكلام صفة للمتكلم، والله قد أضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها فزعموا أن إضافته إليه إضافة تشريف كإضافة ناقة الله وعبدالله.

فأجابهم الناس بما هو معروف ومتقرر عند كل أحد مع دلالة الكتاب والسنة إليه، فقالوا إن الإضافة نوعان:

أحدهما: ما يضيفه الله إلى نفسه من الأعيان كبيت الله وناقة الله ونحوهما، فهذه الإضافة لبعض مخلوقاته تفيد تشريفه وتكريمه بما امتاز به ذلك المضاف من الأوصاف الفاضلة.

والثاني: إضافة معاني وأوصاف تقوم بغيرها كعلم الله وقدرته وإرادته وكلامه فهذه الإضافة من باب إضافة الأوصاف إلى موصوفها تقتضى قيامها به واتصافه بها.

ومن خالف هذا الفرق فهو منكر للمحسوسات)[1].

ويستدل الجهمية والمعتزلة لقولهم هذا بقوله تعالى **﴿الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار﴾**[2].

فهم يجعلون لذلك مقدمة وهي أن القرآن شيء وكل شيء مخلوق إذا فالقرآن مخلوق. وهذا كلام باطل، لأن الآية لم تدل على ذلك، وإنما دلت على أن كل شيء غير أسماء الله وصفاته مخلوق؛ لذا يقول ابن سعدى رحمه الله: (وليس كلام الله من الأشياء المخلوقة؛ لأن الكلام صفة المتكلم والله تعالى بأسمائه وصفاته أول ليس قبله شيء)[3].

---

(١) توضيح الكافية الشافية / ٢٥، وانظر القاعدة السابعة من قواعد الأسماء والصفات المتقدمة.

(٢) سررة الرعد / آية ١٦.

(٣) التفسير ٦/٤٨٩.

ثم بين أنه لا دلالة في هذه الآية لما ذهب إليه المعتزلة فقال: (فأخذُ أهل الاعتزال من هذه الآية ونحوها أن كلام الله مخلوق من أعظمِ الجهل، فإنه تعالى لم يزل بأسمائه وصفاته ولم يحدث صفة من صفاته، ولم يكن معطلاً عنها بوقت من الأوقات)[1].

قول الكلابية والأشعرية ورد ابن سعدى عليه:

وهم القائلون (بأن القرآن نوعان ألفاظ ومعان، فالألفاظ مخلوقة وهي هذه الألفاظ الموجودة والمعاني قديمة قائمة في النفس وهي معنى واحد لا تبعض فيه ولا تعدد، إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة، أو بالسريانية كان إنجيلا)[2].

ولا شك أن هذا القول معلوم البطلان، ولا دلالة عليه من كتاب أو سنة ولا مستند من لغة العرب.

قال ابن سعدى رحمه الله في معرض رده على هذا القول: (وهذا القول تصوره كاف بمعرفة بطلانه وليس لهم دليل ولا شبهة على هذا القول الذي لم يقله أحد غيرهم)[2].

أما عن أستشهادهم على هذا القول بقول الشاعر:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما   جُعل اللسان على الفؤاد دليلاً

فأجاب عنه بقوله: (هذا البيت معروف معناه، وإن الكلام يخرج من القلب ويعبر عنه اللسان، وأما الكلام الذي في اللسان فقط فهذا يشبه كلام النائم والهاذي ونحوهما.

وهب أنه دل على القول الذي قالوه فكيف يتركون لأجله أدلة الكتاب والسنة والذي يعقله العقلاء بعقولهم أن الكلام صفة للمتكلم، وأنه الكلام المسموع منه، وأن ما في النفس لا يسمى كلاماً بوجه من الوجوه)[2].

ثم إنه من المعلوم أن هذا البيت للأخطل النصراني فكيف يجوز أن يترك الكتاب والسنة لأقوال النصارى مع العلم بكثرة أخطائهم في العقيدة والفروع.

لذا يقول ابن سعدى: (وأيضاً فإن غلطهم في الأصول والفروع معروف)[2] ومقصوده أنه كيف يؤخذ بقولهم وهذه حالهم.

وقول الكلابية والأشعرية قريب من قول المعتزلة؛ لأن مؤداه ومعناه أن القرآن

---

(١) التفسير ٦/٤٨٩.

(٢) توضيح الكافية الشافية / ٢٣.

مخلوق. كما أعترف بذلك بعضهم قال ابن سعدى رحمه الله: (وهذا القول كما قال من اعترف منهم أنه لا فرق بينه وبين قول المعتزلة إلا في اللفظ)[1].

والمقصود أن هذا القول ظاهر البطلان من أوجه متعددة قال رحمه الله: (وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية هذا القول وبين بطلانه في رسالته التسعينية فبين من تسعين وجهاً كل واحد منها يدل على بطلانه أدلة نقلية وأدلة عقلية)[1].

قول الاقترانية ورد ابن سعدى عليهم:

الاقترانية هم القائلون بأن كلام الله حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل.

وأما عن سبب تسميتهم بذلك يقول ابن سعدى رحمه الله (لما قيل لهم هذا مخالف للمحسوس المعلوم بالبديهة أن حروف الكلام طبعاً لابد أن يسبق بعضها بعضاً، قالوا إنما ترتيبها بالنسبة إلى سمع الإنسان، وإلا فهي ما زالت متصاحبة مقترنة)[2].

وقال في رده عليهم: (ولا شك أن هذا القول إلى التخليط والهذيان أقرب منه إلى التحقيق والبرهان)[2].

وقال: (وهو مخالف لأصل الأئمة وموافق لبعض قول الكلابية)[3]. وقد تقدم رده على الكلابية.

وبعد ذكر هذه الجملة من ردود ابن سعدى رحمه الله على المخالفين لمذهب السلف الصالح في صفة الكلام أنتقل إلى الصفة الأخرى وهي صفة الاستواء لنرى كيفية مناقشة ابن سعدى للمخالفين في هذه الصفة.

ثانيا: صفة الاستواء وأدلتها ودحض ابن سعدى شبه من أنكرها:

الاستواء من الصفات الثابتة لله عز وجل بالكتاب والسنة، واتفاق سلف الأمة، وهو من الصفات التي تدل على عظمة الله وعلوه على عباده وأنه القاهر فوقهم، وأنه سبحانه بذاته وأسمائه وصفاته له العلو المطلق من جميع الوجوه.

وكلامي عن هذه الصفة سيكون مقتصراً على ما يلي:

أولا : ذكر معاني الاستواء الورادة في القرآن مع بيان السعدى لها.

ثانيا : إثبات الشيخ للاستواء على طريقة السلف وأدلته على ذلك.

ثالثا : دحض شبه من أنكر هذه الصفة.

---

(١) توضيح الكافية الشافية / ٢٣.

(٢) توضيح الكافية الشافية / ٢٤.

(٣) توضيح الكافية الشافية / ٢٥.

ثالثا : دحض شبه من انكر هذه الصفة.

أولا: ذكر معاني الاستواء الواردة في القرآن:

ذكر ابن سعدى في مؤلفاته أن لفظة استوى ترد في القرآن الكريم على ثلاثة أحوال:

فتارة تكون متعدية بنفسها، وتارة تكون متعدية بـ«على» وتارة تكون متعدية بـ«إلى». وذكر أيضا أن لها في كل موضع من هذه المواضع معنى خاصاً: فإن كانت متعدية بنفسها فمعناها التمام والكمال، وإن كانت متعدية بـ«على» فمعناها العلو والارتفاع وإن كانت متعدية بـ«إلى» فمعناها القصد، ومن ذلك قوله رحمه الله.

(استوى ترد في القرآن على ثلاثة معان:

فتارة لا تعدى بالحرف فيكون معناها الكمال والتمام كما في قوله عن موسى: ﴿**ولما بلغ أشده واستوى**﴾[1]، وتارة تكون بمعنى «علا» و«ارتفع» وذلك إذا عديت بـ«على» كقوله تعالى: ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾[2] **وقوله**: ﴿**لتستووا على ظهوره**﴾[3].

وتارة تكون بمعنى قصد[4] كما إذا عديت بـ«إلى» كما في قوله تعالى: ﴿**ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات**﴾[5] أي لما خلق تعالى الأرض قصد إلى خلق السماوات فسواهن سبع سموات فخلقها، وأحكمها وأتقنها وهو بكل شيء عليم)[6].

ثانيا: إثبات الشيخ للاستواء على طريقة السلف وأدلته على ذلك:

قال ـ رحمه الله ـ في بيان عقيدة السلف الصالح في هذه الصفة العظيمة: (.. ويقرون ويعتقدون بجميع ما ثبت في الكتاب والسنة من أسماء الله وصفاته وأفعاله،

---

(١) سورة القصص / آية ١٤.

(٢) سورة طه / آية ٥ وعيرها.

(٣) سورة الزخرف / آية ١٣.

(٤) تنبيه: الصواب أن استوى وإن عديت بـ «إلى» فهي بمعنى علا وارتفع، كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وقد نقلا عن جمع من السلف هذا التفسير، كما حكى ابن القيم إجماع السلف على ذلك. انظر الفتاوى ٥١٨/٥ وما بعدها. ومختصر الصواعق المرسلة / ٣٢٠.

(٥) سورة البقرة / آية ٢٩.

(٦) التفسير ٦٩/١، وانظره / ٦١٨، ٦١٩ والخلاصة / ١٧٤.

ويقولون أنه على خلقه مستو على عرشه. . .)[1].

وقال (نعرف ربنا بأنه عليٌ بكل معنى واعتبار علو الذات وعلو القدر وعلو القهر، وأنه بائن من خلقه مستوٍ على عرشه كما وصف لنا نفسه بذلك، والاستواء معلوم والكيف مجهـول، فقد أخبرنا أنه استوى ولم يخبرنا عن الكيفية، وكذلك نقول في جميع صفات البارى أنه أخبرنا بها ولم يخبرنا عن كيفيتها فعلينا أن نؤمن بكل ما أخبرنا في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ ولا نزيد على ذلك ولا ننقص منه)[2].

وقال رحمه الله (وأما استواؤه على العرش العظيم فيستفاد من النقل الكتاب والسنة)[3].

أدلته على أثبات هذه الصفة:

لقد ورد في القرآن والسنة أدلة كثيرة تبين أن الله سبحانه مستو على عرشه بائن من خلقه، وهي كثيرة جدا.

وقد أشار ابن سعدى رحمه الله في توضيحه للكافية الشافية إلى كثرة الأدلة في ذلك وتنوعها فقال:

(ذكر المصنف ـ يعنى ابن القيم ـ واحداً وعشرين نوعاً من الأدلة على هذه المسألة العظيمة كل نوع منها تحته من الأفراد ما لا يعد ولا يحصى)[4].

ثم أخذ رحمه الله يعدد هذه الأنواع من الأدلة، ومن أجل عدم الإطالة سأختصر جملة من هذه الأدلة فيما يلي:

١ ـ أخبر الله سبحانه بأنه مستو على عرشه في سبعة مواضع من القرآن وكلها جاءت بلفظ على العرش؛ وعلى تدل على العلو والارتفاع.

٢ ـ تكرر في الكتاب وصف الله العلى الأعلى، وهذا يدل على علوه من جميع الوجوه.

٣ ـ ورد في القرآن التصريح بالفوقية مثل قوله تعالى: ﴿**يخافون ربهم من فوقهم**﴾[5]، والفوقية وصف ثابت لله، دال على علوه.

٤ ـ إخبار الله أن القرآن نزل منه، ومن المعلوم أن النزول لا يكون إلا من علو.

---

(١) توضيح الكافية الشافية / ٢٠.

(٢) سؤال وجواب / ٧.

(٣) الحق الواضح المبين / ١٣.

(٤) توضيح الكافية الشافية / ٤٥.

(٥) سورة النحل / الآية ٥٠.

٥ - ورد في القرآن أن بعض المخلوقات والأعمال تصعد إليه وهذا تصريح بعلوه.

٦ - إخبار الله أنه في السماء كقوله: ﴿**أأمنتم من في السماء**﴾[1] ومعناه عند جميع المفسرين أنه في العلو.

٧ - إجماع الكتب السماوية والرسل عليهم الصلاة والسلام على التصريح بعلو الله على خلقه وفوقيته.

٨ - إجماع أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين وتابعيهم من أئمة المسلمين المعتبرين، على ذلك[2].

هذه جملة من الأدلة التي ذكرها الشيخ ابن سعدى - رحمه الله - على علو الله تعالى على جميع خلقه، ثم أحال - رحمه الله - من أراد الاستزادة من هذه الأدلة إلى كتاب ابن القيم «اجتماع الجيوش الإسلامية»[3].

وكان الشيخ ابن سعدى في تفسيره للقرآن إذا مر على الآيات الدالة على استواء الله على عرشه ينبه عليها، ويشير إلى دلالته على علو الله على جميع خلقه.

ومن ذلك قوله رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**ثم استوى على العرش**﴾[4]: «استواء يليق بجلاله فوق جميع خلقه»[5].

ثالثا: دحضه لشبه المنكرين:

سأورد هنا بعض الشبه التي يطرحها من ينكر هذه الصفة من الجهمية وغيرهم، ثم أذكر أجوبة الشيخ عن هذه الشبه.

الشبهة الأولى: «قولهم إن للاستواء عدة معان»

فإذا قال الجهمي لأتباعه: إن قال لكم المجسم ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾[6]. فقولوا له هذه لفظة فإن «العرش» له عدة محامل فأى المعاني تريد، و«على» أيضاً تأتي في العربية لعدة معاني.

وقد أجاب ابن سعدى على هذه الشبهه فقال:

---

(١) سورة الملك / الآية ١٦.

(٢) انظر توضيح الكافية الشافية / ٤٥ وما بعدها.

(٣) انظر هذه الأدلة في ص٤٩ وما بعدها من كتاب «اجتماع الجيوش الإسلامية» لابن القيم.

(٤) سورة الحديد / الآية ٤.

(٥) التفسير ٢٨٣/٧، وانظر في ذلك التفسير ٣٨/٣، ٤٨٩/٥، ١٧٧/٦، ١٤٤/٥ وغيرها.

(٦) سورة طه الآية ٥.

(إذا سمع الجاهل هذا التلبيس والتمويه استعظم ذلك ورآه إشكالاً يعسر الانحلال عنه، وأما المتبصر الذي نور الله قلبه فإنه يعرف أن هذا ليس محل إشكال ولا لبس بل هو من أوضح الأشياء وأبينها.

فإن الألف واللام في العرش للعهد الذي يفهمه كل مسلم أنه عرش الرب العظيم لا غيره من عروش الكرم ونحوها، ولو قيل له يحتمل واحدا غير هذا لبادر لإنكاره.

هذا مع اتفاق جميع الرسل وشهادتهم أنه استوى على العرش العظيم فكل مؤمن يفهم المعنى من قوله ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾[1].

وكذلك لفظ الاستواء المعدى بعلى فإنه واضح جداً دال على العلو والظهور فإن الاستواء حيث عُدي بعلى فإنه يدل على العلو والظهور، وأما إذا عدى بإلى نحو (استوى إلى السماء)[2] فإنه يدل على القصد[3]، وإذا قيل استوى كذا وكذا دل على معية الأول للثاني كقوله ﴿**ولما بلغ أشده واستوى**﴾[4] فهذه المعاني المتباينة بحسب تعديته كما ذكرنا.

فعلم علماً يقيناً أن قوله ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ لا اشكال فيه ولا اجمال خصوصا وقد طرد اتيانه بهذا السياق في جميع موارده ومصادره ولم يأت هذا المعنى بلفظ فيه إجمال، فلو كان المراد ما قصده الجهمي لأتى به ولو في موضع واحد ليستبين المراد)[5].

الشبهه الثانية: «قولهم إن إثبات الاستواء يقتضي التجسيم».

فالأشاعرة وغيرهم من الذين يثبتون بعض الصفات وينكرون البعض الآخر، يقولون إن إثبات الاستواء وغيره من الصفات الاختيارية يقتضي التجسيم.

وأجاب ابن سعدى عن هذه الشبهه، بأن جميع الصفات وردت في الكتاب والسنة فكيف جاز لكم تأويل بعضها وترك البعض، فإن قالوا بأن ما يقتضي التجسيم تأولناه؛ لأن الجسم من خصائص المحدثات المخلوقه فهذا الذي تأولناه ما نعقل منه إلا التجسيم فتعين تأويله.

---

(١) سورة طه / الآية ٥ وغيرها.

(٢) سورة البقرة / الآية ٢٩.

(٣) تقدم معنا ص ١٤٢ أن هذا القول مخالف لأقوال السلف، وان استوى وان عديت بـ «إلى» فمعناها علا وارتفع، فليراجع.

(٤) سورة القصص / الآية ١٤.

(٥) توضيح الكافية الشافية / ٥٧، ٥٨.

يقال لهم بأن تفريقكم بين الأمرين تفريق بين متماثلين، إذ أنكم إذا تأولتم صفة وقعتم في مثل ما فررتم منه، فأثبتوا جميع الصفات فالباب واحد، وإلا فبينوا فرقاً بين ما نفيتم وبين ما أثبتم، ومن المعلوم أنهم لا يهتدون إلى فرق بين الصفات بإثبات بعضها ونفي بعضها فالواجب إذا هو أتباع السلف الصالح وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه وما أثبته له رسوله من صفات الكمال)[1].

الشبهه الثالثة: «قولهم استوى بمعنى استولى»

وهـذا قول الجهمية وغيرهم فهم يقولون إن المراد بقوله تعالى **﴿ثم استوى على العرش﴾** أي استولى على العرش.

واستدلوا على ذلك بقول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف أو دم مهراق.

وأجاب ابن سعدى عن هذه الشبهه بأن الله أخبر أنه مستو على العرش في سبعة مواضع من القرآن وكلها جاءت بلفظ (على العرش) وعلى تدل على العلو والارتفاع، وهذا نص لا يقبل الاحتمال ولا الاشتباه في معناه. ولو كان استوى بمعنى استولى كما يقول الجهمية وأتباعهم لأتت اللام في موضع واحد أو أكثر لأجل أن يحمل الباقي عليها فلما لم ترد في موضع واحد بذلك كانت نصا صريحا في العلو والفوقية؛ لأن العرب جرت عادتهم في كلامهم الفصيح أن يضمروا بعض القيود في بعض كلامهم ويذكروه في كلام لفظ آخر فيحمل مطلق الكلام على مقيده، وأما هذا الموضع فالحمل متعذر.

وهم بعملهم هذا مشابهين لليهود، لأن اليهود لما قيل لهم **﴿ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة﴾**.

دخلوا على آساتهم وقالوا حبة في حنطة تهكماً وجرأة على الله فاليهود زادوا النون في

---

(١) انظر توضيح الكافية الشافية / ٦١.

قولهم حنطة بدل حطة والجهمية زادوا اللام في قولهم استولى بدل استوى(*).

وهذا قول باطل قد بين الأئمة بطلانه من وجوة كثيرة[1].

هذا آخر ما رأيت إيراده في هذا المبحث المتعلق بتوحيد الأسماء والصفات، ويمكن أن نصل إلى خلاصة لما تقدم، وهي: أن الواجب على كل مسلم أن يكون منهجه في توحيد الأسماء والصفات منهج السلف الصالح.

وذلك بإثبات جميع ما أثبته الله لنفسه، وما أثبته له رسوله ﷺ من صفات الكمال، وأن ينفي عنه ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله من صفات النقص من غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل.

هذا وليعلم أن الإنسان لو أتى بهذا التوحيد وسابقه توحيد الربوبية على الوجه المطلوب، ولم يأت مع ذلك بتوحيد الألوهية، فإن توحيده هذا لا ينفعه؛ لأنه لازم على من أقر بربوبية الله وأقر بأسمائه وصفاته أن يوحده بجميع أنواع العباده، فكما أن الله واحد في ذاته وأسمائه وصفاته، فالواجب أن يوحد ويفرد بجميع أنواع العباده، وهذا هو موضوع المبحث التالي.

---

(١) انظر توضيح الكافية / ٥٤، و ٥٦.

* قال العلامة ابن القيم رحمة الله في نونيته:

أمر اليهود بأن يقولوا حطة	فأبوا وقالوا حنطة لهوان
وكذلك الجهمي قيل له استوى	فأبى وزاد الحرف للنقصان
قال استوى استولى وذا من جهلة	لغة وعقلاً ماهما سيان
نون اليهود ولام جهمي هما	في وحي رب العرش زائدتان

المبحث الثالث
توحيد الالوهية

تقدم معنا في المبحثين الماضيين الإشارة إلى أهمية هذا المبحث، وتقدم أيضا أن الإتيان بتوحيدى الربوبية والأسماء والصفات لا يكفي ولا ينجي بل لابد من الإتيان مع ذلك بتوحيد الألوهية؛ وذلك لأن هذا النوع من التوحيد يعد أهم المطالب على الإطلاق، إذ من أجل تحقيقه خلق الله الخلق، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل، كما سيأتي بيان ذلك.

وهذا ما جعل علماء الإسلام من السلف الصالح الذين هم ورثة الأنبياء، يهتمون بهذا النوع اهتماما كبيراً، فبينوه وحذروا من الوقوع في ضده وأكثروا في ذلك التأليف والكتابة.

وقد اعتنى الشيخ ابن سعدى في مؤلفاته بهذا النوع من التوحيد عناية بالغة وأولاه اهتماماً كبيراً، فلقد لمست من خلال قراءاتي لكتبه اهتمامه البالغ به، فهو في أكثر مؤلفاته يتحدث عن هذا التوحيد، ويحذر من الوقوع في مخالفته، ويبدى ويعيد في ذلك بعبارات متنوعة وأساليبَ مختلفة.

ولا ريب أن هذا النوع من التوحيد جدير بالعناية والاهتمام، بل هو أهم الأمور التي يجب العناية والاهتمام بها.

ولهذا فقد أشار رحمه الله في مواطن متعددة من مؤلفاته إلى أهميته، وأنه الغاية من خلق الأنس والجن، وأن الإيمان به يوصل إلى كل خير وصلاح.

قال: (وهذا الأصل أعظم الأصول على الإطلاق وأكملها وأفضلها وأوجبها وألزمها لصلاح الإنسانية، وهو الذي خلق الله الجن والانس لأجله وخلق المخلوقات. وشرع الشرائع لقيامه وبوجوده يكون الصلاح وبفقده يكون الشر والفساد، وجميع الآيات القرآنية إما أمر به أو بحق من حقوقه أو نهي عن ضده، أو إقامة حجة عليه، أو بيان جزاء أهله في الدنيا والآخرة، أو بيان الفرق بينهم وبين المشركين.

ويقال له توحيد الألوهية، فإن الألوهية وصفه تعالى الذي ينبغي أن يؤمن به كل بني آدم، ويوقنوا أنه الوصف الملازم له سبحانه، الدال عليها الأسم العظيم وهو الله، وهو مستلزم جميع صفات الكمال.

ويقال له: توحيد العبادة باعتبار وجوب ملازمة وصف العبودية بكل معانيها للعبد بصفته الملازمة له من مقتضيات العبودية للربوبية بإخلاص العبادة لله تعالى، وتحقيقها في العبد أن يكون عارفاً بربه مخلصا له جميع عباداته محققا ذلك بترك الشرك صغيرة وكبيرة، وباتباع النبي ﷺ ظاهراً وباطناً، والبراءة من كل بدعة وضلاله، والحب في الله والبغض في الله)[1] ثم قال:

(وهذا الأصل الذي هو أكبر الأصول وأعظمها قد قرره شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب في رسائل لا تحصى وبالأخص في كتاب التوحيد، وذكر من تقريره وتفاصيله وتحقيقه ونفى كل ما يضاده مالم يوجد في كتاب غيره)[2].

وقال في موضع آخر: (وهذان الأمران وهما معرفة الله وعبادته هما اللذان خلق الله الخلق لأجلهما، وهي الغاية المقصودة منه تعالى لعباده، وهما الموصلان إلى كل خير وفلاح وصلاح وسعادة دنيوية وأخروية، وهما أشرف عطايا الكريم لعباده وهما أشرف اللذات على الإطلاق وهما اللذان إن فاتا فات كل خير وحضر كل شر)[3].

وبين رحمه الله أن الأعمال جميعها متوقفه في قبولها على توفره فقال: (ولا يكون العمل صالحاً إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد والإيمان المخرج عن الكفر والشرك الذي هو شرط لكل عمل صالح)[4].

وبين أيضاً أن هذا النوع هو خلاصة دعوة الرسل، وأنهم إنما قاتلوا أقوامهم من أجل تحقيقه.

فقال: (وهذا النوع زبدة رسالة الله لرسله، فكل نبي يبعثه الله يدعو قومه، يقول: **﴿اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾**[5]، **﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا**

---

(١) القواعد الحسان / ١٩٢، ١٩٣.

(٢) القواعد الحسان / ١٩٣.

(٣) التفسير ١/٥٤١، وانظر ٧/١٨١.

(٤) التفسير ٣/٢٩١.

(٥) سورة الأعراف / ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥ وغيرها.

الله واجتنبوا الطاغوت﴾[1] وهو الذي خلق الله الخلق لأجله، وشرع الجهاد لأقامته، وجعل الثواب الدنيوى والأخروي لمن قام به وحققه والعقاب لمن تركه.

وبه يحصل الفرق بين أهل السعادة القائمين به، وأهل الشقاوة التاركين له)[2].

وقال رحمه الله: (فجميع الكتب السماوية وجميع الرسل دعوا إلى هذا التوحيد، ونهوا عن ضده من الشرك والتنديد، وخصوصا محمد ﷺ، وهذا القرآن الكريم فإنه أمر به وفرضه وقرره أعظم تقرير، وبينه أعظم بيان، وأخبر أنه لا نجاة ولا فلاح ولا سعادة إلا بهذا التوحيد، وإن جميع الأدلة العقلية والنقلية والأفقية والنفسية أدلة وبراهين على الأمر بهذا التوحيد ووجوبه.

فالتوحيد هو حق الله الواجب على العبيد، وهو أعظم أوامر الدين وأصل الأصول كلها، وأساس الأعمال)[3].

وقال رحمه الله (وبالجملة: فكل خير عاجل وآجل، فإنه من ثمرات التوحيد وكل شر عاجل وآجل فإنه من ثمرات الشرك)[4].

وكما أنه رحمه الله بين هذا التوحيد هذا البيان ونبه عليه هذا التنبيه، فقد حث على تعلمه ومعرفته والعمل به والحذر من مخالفته.

فقال: (فعلى العبد أن يبذل جهده في معرفته وتحقيقه والتحقق به ويعرف حده وتفسيره، ويعرف حكمه ومرتبته، ويعرف آثاره ومقتضياته وشواهده وأدلته وما يقويه وينميه، وما ينقضه، وشروطه ومكملاته، ويعرف نواقضه ومفسداته لأنه الأصل الأصيل الذي لا تصح الأصول إلا به فكيف بالفروع)[5].

تعريف ابن سعدى لهذا التوحيد:

عرف ابن سعدى توحيد الألوهية بتعريف جامع، ذكر فيه حد هذا التوحيد وتفسيره وأركانه فقال:

(فأما حده وتفسيره وأركانه فهو أن يعلم ويعترف على وجه العلم واليقين أن الله هو المألوه وحده المعبود على الحقيقة، وأن صفات الألوهية ومعانيها ليست موجودة بأحد

(١) سورة النحل / الآية ٣٦.
(٢) الحق الواضح المبين / ٥٦.
(٣) القول السديد / ١٨.
(٤) القواعد الحسان / ١٨.
(٥) الحق الواضح المبين / ٥٧.

من المخلوقات ولا يستحقها إلا الله تعالى. فإذا عرف ذلك واعترف به حقاً أفرده بالعباده كلها الظاهرة والباطنة فيقوم بشرائع الإسلام الظاهرة كالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبر الوالدين وصلة الأرحام والقيام بحقوق الله وحقوق خلقه، ويقوم بأصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ويقوم بحقائق الإحسان وروح الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة مخلصاً ذلك كله لله، لا يقصد به غرضاً من الأغراض غير رضا ربه وطلب ثوابه، متابعاً في ذلك رسول ﷺ فعقيدته مادل عليه الكتاب والسنة. وأعماله وأفعاله ما شرعه الله ورسوله. وأخلاقه وآدابه الاقتداء بنبيه ﷺ في هديه وسمته وكل أحواله؛ ولهذا فإن كمال هذا التوحيد وقوامه بثلاثة أشياء:

- (توحيد الإخلاص لله وحده) فلا يكون للعبد مراد غير مراد واحد وهو العمل لله وحده.
- (وتوحيد الصدق) وهو توحيد إرادة العبد في إرادته وقوة إنابته لربه وكمال عبوديته.
- (وتوحيد الطريق) وهو المتابعة.

. . . فمن اجتمعت له هذه الثلاثة نال كل كمال وسعادة وفلاح ولا ينقص من كمال العبد إلا بنقص واحد من هذه الأشياء)[1].

أدلة هذا النوع من التوحيد:

تقدم معنا أن هذا التوحيد هو المقصود من إنزال الكتب وإرسال الرسل؛ فلذا كانت الأدلة عليه في الكتاب والسنة كثيرة، لأنه كلما كان الأمر مهما كلما كثر إيضاحه وبيانه والحث على العمل به.

ولقد تضافرت الأدلة في الكتاب والسنة على وجوب إفراد الله بالعبادة بجميع أنواعها، وتنوعت فتارة تأتي النصوص لبيان أن هذا الأمر هو المقصود من خلق الإنس والجن وتارة تأتي لبيان أنه المقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب، وتارة تأتي للأمر به، والحث عليه، والتحذير من مخالفته، وتارة تأتي لبيان ثواب من عمل به وعقاب من تركه، وعلى هذا فإن النصوص الواردة في الكتاب والسنة جميعها لا تخلو من ذكر هذا النوع أو الإشارة إليه.

وسأورد الآن جملة من الآيات القرآنية الدالة على ذلك. ثم أذكر كلام ابن سعدى عنها إجمالا:

---

(١) الحق الواضح المبين / ٥٨، وانظر الفتاوى السعدية /٨،٩، والقول السديد /١٦ ، ١٧.

قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾[1].

وقال: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا﴾[2].

وقال: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾[3].

وقال: ﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا﴾[4].

وقال ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[5].

وقال: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾[6].

وقال ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا....﴾[7].

قال ابن سعدى رحمه الله بعد ذكر جملة من هذه الأدلة:

(هذه الآيات الكريمة فيها الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والدخول تحت رق عبوديته التي هي غاية شرف العبد والانقياد لأوامره واجتناب نواهية محبة له وذلة وإخلاصًا لله وإنابة له في جميع الحالات وفي جميع العبادات الظاهره والباطنة وفيها النهي عن الشرك به شيئا.

إلى أن قال: بل الواجب المتعين إخلاص العبادة لمن له الكمال المطلق من جميع الوجوه والتدبير الكامل الشامل الذي لا يشركه ولا يعينه عليه أحد)[9].

وقال في موضع آخر: (يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له، وهو الدخول تحت رق عبودبته والانقياد لأوامره ونواهيه محبة وذلاً وإخلاصاً له في جميع العبادات الظاهرة والباطنة وينهي عن الشرك به شيئا...)[1].

وقال في كتابه «القول السديد في مقاصد التوحيد» بعد ذكره للأدلة التي ساقها الشيخ محمد بن عبدالوهاب للدلالة على هذا التوحيد قال: (ذكر المصنف في هذه الترجمة

---

(١) سورة الذاريات / الآية ٥٦.

(٢) سورة النساء / الآية ٣٦.

(٣) سورة الإسراء / الآية ٢٣.

(٤) سورة الإسراء / الآية / ٣٩.

(٥) سورة الأنبياء / الآية ٢٥.

(٦) سورة النحل / الآية ٣٦.

(٧) سورة الأنعام / الآية / ١٥١.

(٨) الخلاصة / ٣٤، ٣٥.

(٩) التفسير ٢/٦٣.

من النصوص ما يدل على أن الله خلق الخلق لعبادته والاخلاص له، وأن ذلك حقه الواجب المفروض عليهم)[١].

أدلة استحقاق الله للعبادة:

هناك أمور كثيرة جداً تدل على أن الله وحده هو المستحق للعبادة دون من سواه، فبما أنه المتفرد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة والتدبير فيجب أن يفرد بجميع أنواع العبادة وهذه تسمي دلالات التوحيد. وقد اهتم ابن سعدي بهذه الدلالات وبإيضاحها والتنبيه عليها، وذلك عند تفسيره للآيات التي اشتملت على هذه الدلالات فعند ذكره للآية يبين ما اشتملت عليه من دلالات وما تضمنته من براهين على وجوب إفراد الله بالعبادة. وفيما يلي ذكر بعض الأمثلة على ذلك:

١ - «دقة صنع الله».

فمن أدلة استحقاق الله للعباده، دقة صنعه لمخلوقاته:

قال ابن سعدى: (كلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات، وازداد تأمله للصنعه وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة علم بذلك أنها خلقت للحق وبالحق وأنها صحائف آيات وكتب دلالات على ما أخبر به الله عن نفسه ووحدانيته وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر وأنها مسخرات ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها.

فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون وإليه صامدون وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات فلا إله إلا الله ولا رب سواه)[٢].

٢ - «تعدد النعم».

وهذه من أدلة استحقاق الله للعبادة، قال ابن سعدى رحمه الله: (إذا علم أن ما بالعباد من نعمة فمن الله، وأن أحداً من المخلوقين لا ينفع أحدا، علم أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة، وأن يفرد بالمحبة والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل وغير ذلك من أنواع الطاعات، وأن من أظلم الظلم وأقبح القبح أن يعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد، وأن يشرك المخلوقين من تراب برب الأرباب، أو يعبد المخلوق المدبَر العاجز من جميع الوجوه مع الخالق المدبِر القادر القوى الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء)[٣].

---

(١) القول السديد / ١٧.

(٢) التفسير ١/١٩٤.

(٣) التفسير ١/١٨٨، ١٨٩، وانظر الخطب المنبرية / ٧٤ ، ٧٥.

٣ ـ «تفرد الله بالأسماء الحسنى والصفات العلى».

فيستدل بتفرد الله وحده بالأسماء الحسنى والصفات العلى على وجوب إفراده بالعبادة :ـ

قال ابن سعدى رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى ﴿**والهكم إله واحد لا إله إلا هو**﴾[1] : (يخبر تعالى وهو أصدق القائلين أنه (إله واحد) أي متوحد متفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

فليس له شريك في ذاته ولا سمي له ولا كفو له ولا مثل ولا نظير ولا خالق ولا مدبر غيره.

فإذا كان كذلك فهو المستحق؛ لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة ولا يشرك به أحد من خلقه)[2].

وقال : (ومن الأدلة على ذلك معرفة تفرد الرب بالكمال المطلق وأن له كل صفة كمال، وأن المخلوقات كلها كل وصف حميد فيها فإنه من الله تعالى، ليس بها وليس منها وهذا من أعظم البراهين على أنه هو المخصوص بالتأله والعبودية)[3].

٤ ـ «نعمة إنزال المطر».

وهذه النعمة العظيمة من جملة الأدلة الدالة على وجوب إفراد الله بالعبادة.

قال عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿**والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون**﴾[4] قال : (يذكر الله تعالى في هذه الآية نعمة من أعظم النعم ليعقلوا عن الله مواعظه وتذكيره فيستدلوا بذلك على أنه وحده المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده)[5].

٥ ـ «تفرد الله بالربوبية».

وهذه من أعظم أدلة وجوب إفراد الله بالعباده :ـ

قال رحمه الله : (إذا كان الله تعالى هو الذي خلقك ورزقك وأنعم عليك بالنعم الظاهرة والباطنه لم يشاركه في ذلك مشارك فعليك أن لا تتأله لغيره ولا تتعبد لغيره، وعليك أن تخصه بالتوحيد والسؤال واللجأ والفزع في أمورك كلها، وهذا من أعظم الأدلة على توحيد الألوهية، وهو الاستدلال بربوبية الله الذي لا يستحق الألوهية ولا شيئاً من العبودية غيره)[6].

---

(١) سورة البقرة / الآية ١٦٣.

(٢) التفسير ١/١٨٨.

(٣) الحق الواضح المبين / ٥٨.

(٤) سورة النحل / الآية ٦٥.

(٥) التفسير ٤/٢١٦.

(٦) الحق الواضح المبين / ٥٨.

٦ - «كونه النافع الضار المعطي المانع».

فمن اتصف بهذه الصفات فهو المعبود بحق ولا معبود بحق سواه وهذا دليل عظيم على وجوب إفراد الله بالعباده.

قال رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿**وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم**﴾[١].

قال: (هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة، فإنه النافع الضار المعطي المانع الذي إذا مس بضر كفقر ومرض ونحوها فلا كاشف له إلا هو؛ لأن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء لم ينفعوا إلا بما كتبه الله ولو اجتمعوا على أن يضروا أحداً لم يقدروا على شيء من ضرره اذا لم يرده)[٢].

هذا وإن هناك عدة أمور إذا تأملها الإنسان وتبصر فيها هدته إلى أن الله هو المعبود بحق ولا معبود بحق سواه. أجملها الشيخ ابن سعدى في تسعة أمور ذكرها عند تفسيره لقوله تعالى ﴿**فاعلم أنه لا إله إلا الله**﴾[٣].

قال: (العلم لابد فيه من إقرار القلب ومعرفته بمعنى ما طلب منه علمه وتمامه أن يعمل بمقتضاه.

وهذا العلم الذي أمر الله به وهو العلم بتوحيد الله فرض عين على كل إنسان لا يسقط عن أحد كائنا من كان، بل كل مضطر إلى ذلك.

والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله أمور:

أحدها: بل أعظمها تدبر أسمائه وصفاته الدالة على كماله وعظمته وجلاله فإنها توجب بذل الجهد في التأله والتعبد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبته والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة ومن عقوبته لأعدائه المشركين به فإن هذا داع إلى العلم بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

---

(١) سورة يونس / الآية ١٠٧.

(٢) التفسير ٣/٣٩٧.

(٣) سورة محمد / الآية ١٩.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله، واتخذت آلهه وأنها ناقصة من جميع الوجوه فقيرة بالذات لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعاً ولا ضراً ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ولا ينصرون من عبدهم ولا ينفعونهم بمثقال ذرة من جلب خير أو دفع شر، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا الله وبطلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك وتواطؤها عليه.

السابع: أن خواص الخلق الدين هم أكمل الخليقة أخلاقاً وعقولاً ورأياً وصواباً وعلماً وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية التي تدل على التوحيد أعظم دلالة تنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطف صنعته وبديع حكمته وغرائب خلقه)[1].

وذكر هذه الأمور الثمانية في خلاصة التفسير وزاد عليها **تاسعاً** وهو: (ما أودعه الله في شرعه من الآيات المحكمة والأحكام الحسنة والحقوق العادلة والخير الكثير وجلب المنافع كلها ودفع المضار، ومن الإحسان المتنوع وذلك يدل أكبر دلالة أنه الله الذي لا يستحق العبادة سواه وأن شريعته التي أنزلت رسالة شاهدة بذلك)[2].

ثم قال رحمه الله في تفسيره بعد ذكره هذه الأمور التي يحصل بها العلم بوجوب إفراد الله بالعبادة: (فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا الله وأبداها في كتابه وأعادها عند تأمل العبد في بعضها لابد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتفقت وقامت أدلة للتوحيد من كل جانب فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد بحيث يكون كالجبال الرواسي لا تزلزله الشبه والخيالات ولا يزداد على تكرار الباطل والشبه الا نمواً وكمالاً هذا وإن نظرت إلى الدليل العظيم والأمر الكبير وهو تدبر هذا القرآن العظيم والتأمل في آياته فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجملة مالا يحصل في غيره)[3].

كلامه في فضل التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله:-

إن الشهادة لله بالوحدانية وإفراده بجميع أنواع العبادة يترتب عليه حصول فوائد عظيمة وفضائل كثيرة لا تحصى لكثرتها. وقد عدد الشيخ ابن سعدى رحمه الله جملة من هذه الفوائد والفضائل التي لا تحصل إلا لمن وحد الله بالعبادة ولم يشرك به.

---

(١) التفسير ٧/٧٣ / ٧٤، ٧٥، وانظر التوضيح والبيان لشجرة الإيمان / ٢٣ وما بعدها، والقواعد الحسان / ١٩٣.

(٢) الخلاصة / ١٦.

(٣) التفسير ١/٧٥.

فقال رحمه الله:

١ - (من فضائل التوحيد أنه السبب الأعظم لتفريج كربات الدنيا والآخرة ودفع عقوبتهما.

٢ - ومن فضائله أنه يكفر الذنوب.

٣ - ومن أجل فوائده أنه يمنع الخلود في النار إذا كان في القلب منه أدنى مثقال حبة خردل.

٤ - وأنه إذا كمل في القلب يمنع دخول النار بالكلية.

٥ - ومنها: نه يحصل لصاحبه الهدى الكامل، والأمن التام في الدنيا والأخرة.

٦ - ومنها: إنه السبب الوحيد لنيل رضا الله وثوابه، وأن أسعد الناس بشفاعة محمد ﷺ من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه.

٧ - ومن أعظم فضائله أن جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة. في قبولها وفي كمالها وفي ترتيب الثواب عليها على التوحيد، فكلما قوى التوحيد والاخلاص لله كملت هذه الأمور وتمت.

٨ - ومن فضائله أنه يسهل على العبد فعل الخير وترك المنكرات ويسليه عن المصيبات. فالمخلص لله في إيمانه وتوحيده تخف عليه الطاعات لما يرجو من ثواب ربه ورضوانه ويهون عليه ترك ما تهواه النفس من المعاصي لما يخشى من سخطه وعقابه.

٩ - ومنها أن التوحيد إذا كمل في القلب حبب الله لصاحبه الإيمان وزينه في قلبه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان وجعله من الراشدين.

١٠ - ومنها أنه يخفف عن العبد المكاره ويهون عليه الآلام، فبحسب تكميل العبد للتوحيد والإيمان يتلقى المكاره والآلام بقلب منشرح ونفس مطمئنه وتسليم ورضا بأقدار الله المؤلمة.

١١ - ومن أعظم فضائله أنه يحرر العبد من رق المخلوقين والتعلق بهم وخوفهم ورجائهم والعمل لأجلهم وهذا هو العز الحقيقي والشرف العالي، ويكون مع ذلك متألها متعبدا لله لا يرجو سواه ولا يخشى إلا اياه ولا ينيب إلا إليه، وبذلك يتم فلاحه ويتحقق نجاحه.

١٢ - ومن فضائله التي لا يلحقه فيها شيء إن التوحيد إذا تم وكمل في القلب وتحقق تحققاً كاملاً بالإخلاص التام، فإنه يصير القليل من عمله كثيراً، وتضاعف أعماله وأقواله بغير حصر ولا حساب، ورجحت كلمة الإخلاص في ميزان العبد بحيث لا تقابلها السموات والأرض، وعمارها من جميع خلق الله)[١].

هذا قليل من كثير من فوائد التوحيد، وفضائل لا إله إلا الله. لا ينالها إلا من فهم معناها وعمل بمقتضاها.

---

(١) القول السديد / ١٩ وما بعدها.

كلامه في معنى كلمة التوحيد «لا إله إلا الله»:

وردت أحاديث كثيرة في فضل هذه الكلمة، ولا ينال أحد ثوابها والفضل الذي فيها إلا إذا فهم معناها وعمل بمقتضاها. منها حديث عباده بن الصامت قال قال رسول الله ﷺ: (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)[1].

ومنها: حديث عتبان ان رسول الله ﷺ قال (إن الله حرم على النار من قال لاإله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)[2].

ومنها حديث أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: (من قال لا إله إلا الله صادقا بها دخل الجنة)[3].

وغيرها من الأحاديث التي تدل على فضل هذه الكلمة، ولكن كما تقدم هذا الفضل مختص بمن فهم معناها وعمل بمقتضاها.

وهذه الأحاديث المتقدمة متضمنه لمعنى لا إله إلا الله، وهو أن يفرد الله وحده بجميع أنواع العبادة ولا يشرك معه غيره[4].

وقد فسرت لا إله إلا الله بتفسيرات باطلة، وذلك لعدم فهم مراد الله منها.

من هذه التفسيرات:

أن معنى لا إله إلا الله: أي لا موجود إلا الله وهذا يفهم منه الاتحاد.

ومنها أن معناها أي لا معبود موجود إلا الله وهذا باطل، لأنه يلزم منه أن كل معبود عبد بحق أو باطل هو الله.

ومنها أن معناها أي لا خالق إلا الله، وهذا تدل عليه هذه الكلمة ولكن ليس هو المراد منها.

وإنما معنى هذه الكلمة باتفاق السلف الصالح.

---

(١) أخرجه البخاري ٤/١٣٩ ومسلم ١/٥٧.

(٢) أخرجه البخاري ١/١١٠ ومسلم ١/٦١.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/٤١١، والطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد ١/١٦ واسناده صحيح. ورجاله رجال الشيخين.

(٤) فتح المجيد / ٤١.

أنه لا معبود بحق إلا الله، «لا إله» نافية لجميع ما يعبد من دون الله فلا يستحق أن يعبد غيره، «إلا الله» مثبتة العبادة لله فهو الإله المستحق للعبادة[1].

وقد أوضح الشيخ ابن سعدى هذا المعنى الأخير وبين أنه المراد بهذه الكلمة في مواطن متعددة في تفسيره.

قال رحمه الله: (لا إله إلا الله: أى لا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له)[2].

وقال عند تفسيره لآية الكرسي: (فأخبر أنه الله الذي له جميع معاني الألوهية وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو فألوهية غيره، وعبادة غيره باطله)[3].

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**هو الله الذي لا إله إلا هو**....﴾[4] (فأخبر أنه الله المألوه المعبود، الذي لا إله إلا هو، وذلك لكماله العظيم وإحسانه الشامل وتدبيره العام.

وكل إله غيره فإنه باطل، لا يستحق من العبادة مثقال ذرة؛ لأنه فقير عاجز ناقص لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئا)[5].

فمن شهد لله بالألوهية ونطق بهذه الكلمة لابد أن يفرده بالعبادة، وأن يحذر من الوقوع بالإشراك فيه.

وأما من قال هذه الكلمة ولم يعمل بمقتضاها فإنها لا تنفعه؛ ولهذا يقول ابن سعدي.

(إن الشاهد لله بالوحدانية وعدم الشريك يقتضي كمال اعتقاده ذلك. وكمال الإخلاص لله، والقيام بحقوق العبودية كلها، فإنها من التأله لله تعالى، فأقام الصلاة، وإيتاء الزكاة والصيام والحج ونحوها داخلة في ألوهية الله تعالى، كما تدخل أعمال القلوب فيها من الإنابة لله خوفاً ورجاءً ومحبةً وتعظيماً ورغبةً ورهباً)[6].

ولهذا فإن على من إراد أن يحقق معنى لا اله الا الله أن يفهم معنى العبودية ليفرد الله بها.

---

(١) معارج القبول للحكمي ١/٣٧٥، وتطهير الاعتقاد للصنعاني / ١٩.
(٢) التفسير ٣/١٠٢.
(٣) التفسير ١/٣١٣.
(٤) سورة الحشر / الآية ٢٢.
(٥) التفسير ٧/٣٤٥.
(٦) الفتاوى السعدية / ٨٨.

كلامه في تعريف العبادة:-

اهتم الشيخ ابن سعدى رحمه الله بتعريف العبادة إذ هي المقصود من خلق الجن والإنس كما تقدم بيان ذلك.

وتظهر أهمية معرفة معنى هذه الكلمة إذا عرفنا أن جميع من عبد غير الله أو أكثرهم إنما عبدوهم لعدم فهمهم لمعنى العبادة، وأنها حق الله لا يجوز صرفها لغيره.

كما بين ذلك رسول الله ﷺ في حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه حيث قال ﷺ في هذا الحديث: (وحق الله على العبا أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا)[1].

فإذا كانت العبودية بهذه المكانة، فهي جديرة بأن توضح وتبين ويظهر معناها.

وقد عرف شيخ الإسلام ابن يمية العبادة بأنها «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة».

فيدخل تحت هذا التعريف أمور كثيرة من الأعمال الظاهرة كالصلاة والزكاة والحج والصوم والصدقة والإحسان وبر الوالدين وإماطة الأذى عن الطريق وغيرها. وأمور من الأعمال الباطنة كالخشية والإنابة والخوف والرجاء وغيرها.

وهذا يبين خطأ تصور كثير من الناس من أن العبادة متقصرة على المباني الخمسة للإسلام.

فقد دلت النصوص على أن كل أمر يحبه الله ويرضاه يجب أن يتعبد الله به ولا يجوز أن يتعبد به غيره.

وهذا التعريف الذي ذكره شيخ الإسلام للعبادة يعد تعريفا جامعاً للعبادة؛ ولهذا فقد نقل الشيخ ابن سعدى رحمه الله هذا التعريف في عدة مواطن من مؤلفاته[2].

قال عند تفسيره لقوله تعالى ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾.

(أي نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة؛ لأن تقديم المعمول يفيد الحصر وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه، فكأنه يقول نعبدك ولا نعبد غيرك ونستعين بك ولا نستعين بغيرك... إلى أن قال: والعبادة اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة)[3].

---

(١) أخرجه البخارى ١٦٤/٨، ومسلم ٥٨/١، والترمذي ٢٧/٥، وابن ماجه ١٤٣٥/٢، وأحمد ٣٠٩/٢.

(٢) انظر التفسير ٣٥/١، والخلاصة / ١٠ وغيرهما.

(٣) التفسير ٣٥/١، والخلاصة / ١٠.

وقال رحمه الله: (العبادة روحها وحقيقتها تحقيق الحب والخضوع لله فالحب التام والخضوع الكامل لله هو حقيقة العبادة، فمتى خلت العبادة من هذين الأمرين أو من أحدهما فليست عبادة، فإن حقيقتها الذل والانكسار لله ولا يكون ذلك إلا مع محبته المحبة التامة التي تتبعها المحاب كلها)[1].

وقال: (العبادة والعبودية لله: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من العقائد وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، فكل ما يقرب إلى الله من الأفعال والتروك فهو عباده؛ ولهذا كان تارك المعصية لله متعبداً متقرباً إلى ربه بذلك)[2].

وقول ابن سعدى إن تارك المعصية إذا تركها لأجل الله صار متعبداً لله بها تشهد له نصوص كثيرة.

منها حديث ابن عباس قال ﷺ «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنه فلم يعملها كتبها الله عنده حسنه كاملة وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة»[3].

ومنها حديث الثلاثة الذين أووا إلى غار في الجبل فانطبقت عليهم صخرة وسدت فم الغار. فأخذ كل واحد منهم يتوسل إلى الله بأعماله الصالحة فقال أحدهم: «اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجل النساء وطلبت منها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار، فتعبت حتى جمعت مائة دينار. فجئتها بها. فلما وقعت بين رجليها قالت يا عبدالله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه. فقمت عنها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة. ففرج لهم... الحديث»[4].

وهذه نعمة عظيمة ومنّة جسيمة من الله على خلقه، فترك المعصية لأجل الله عباده يثاب عليها صاحبها، فلله الحمد والشكر.

بيانه وتوضيحه أن العبادة لا تقبل إلا بشرطين هما الإخلاص والمتابعة:-

هذا وإن العبادة أياً كان نوعها وأياً كانت صفتها لا تقبل من فاعلها إلا إذا توفر فيها شرطان.

---

(١) الحق الواضح المبين / ٥٩، ٦٠.

(٢) الخلاصة / ٢٠١.

(٣) أخرجه البخاري ١٨٧/٧، ومسلم ١١٨/١.

(٤) جزء من حديث أخرجه البخاري ٦٩/٧، ومسلم ٢٠٩٩/٤، عن أنس بن مالك.

فإن عدما أو عدم أحدهما فلن تقبل من فاعلها، بل يكون من الخاسرين الذين قال الله عنهم:

﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾[1].

ولأهمية هذين الشرطين ولتحتم معرفتهما على كل مسلم، فقد اهتم بهما علماء الإسلام قديماً وحديثاً.

وأول هذين الشرطين: أن تكون العبادة خالصة لوجه الله، فلا يشرك مع الله أحداً في العبادة.

وثانيهما: أن تكون العبادة مطابقة لسنة الرسول ﷺ.

هذا ولقد تضافرت الأدلة في الكتاب والسنة على هذين الشرطين، فوردت نصوص كثيرة في القرآن الكريم وفي سنة الرسول ﷺ تدل على وجوب إفراد الله وحده بالعبادة وترك الشرك. ووردت نصوص كثيرة تدل على وجوب متابعة الرسول ﷺ والتمسك بسنته والسير على نهجه.

من أدلة الشرط الأول:

قوله تعالى: **﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله ملخصين له الدين﴾**[2]. وقوله تعالى: **﴿إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين﴾**[3] وقوله تعالى: **﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين﴾**[4] إلى قوله: **﴿قل الله أعبد مخلصا له ديني﴾**[5].

وقوله: **﴿فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون﴾**[6].

وقوله: **﴿إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾**[7].

وقوله: **﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾**[8].

---

(١) سورة الكهف / الآية ١٠٣.
(٢) سورة البينة / آية ٥.
(٣) سورة الزمر / آية ٢.
(٤) سورة الزمر / آية ١١.
(٥) سورة الزمر / آية ١٤.
(٦) سورة غافر / آية ١٤.
(٧) سورة النساء / آية ٤٨.
(٨) سورة المائدة / آية ٧٢.

وفي الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1] واللفظ للبخاري.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه مرفوعا قال الله تعالى: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه)[2].

وغيرها من النصوص الدالة على وجوب إخلاص العبادة لله وحده.

من أدلة الشرط الثاني:

قوله تعالى: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾[3] وقوله ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم، قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين**﴾[4].

وقوله ﴿**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**﴾[5].

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)[6].

وفي رواية لمسلم: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)[7].

وعن العرباض بن سارية رضى الله عنه قال «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا قال: أوصيكم بتقوى الله عز وجل والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى عضوا

---

(١) البخاري ١/٢، ومسلم ٣/١٥١٥.
(٢) مسلم ٤/٢٢٨٩، وأخرجه ابن ماجه ٢/١٤٠٥.
(٣) سورة الحشر / آية ٧.
(٤) سورة آل عمران / آية ٣١،٣٢.
(٥) سورة النور / آية ٦٣.
(٦) البخاري ٣/١٦٧ ومسلم ١٣٤٣ واخرجه ابن ماجه ١/٧ وابو داود ٤/٢٠٠ وأحمد ٦/٢٧٠.
(٧) مسلم ٣/١٣٤٤ ورواه أحمد في المسند ٦/١٤٦.

عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»[1].

وغيرها من النصوص الدالة على هذا الأصل العظيم.

والمقصود أن إخلاص العمل لله ومتابعة رسوله ﷺ من أوجب الواجبات على كل عبد، ولا يستقيم دين عبد ولا تصلح حاله ولا يطيب مآله إلا اذا تمسك بهما.

لذا صار التنبيه عليهما مهماً في جميع الأحوال؛ ولهذا فقد أهتم الشيخ ابن سعدى ببيان هذين الأصلين اهتماماً كبيراً، ونبه عليهما وبين أنهما أصلان متفق عليهما بين سلف الأمة، وبين أن الأعمال لا تقبل إلا بهما، وبين أنهما معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

قال رحمه الله: (مذهب أهل السنة والجماعة أنهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وأن الله متفرد بالخلق والملك والسلطان والتدبير، فليس له في ذلك شريك ولا عوين، وأنه الإله الحق الذي لا معبود سواه، وأن كل من عبد من دونه من ملك مقرب أو نبى مرسل أو غيرهما فعبادته من أبطل الباطل وأعظم الشرك ويقومون بعبودية ربهم بكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، يخلصونها لله ويتابعون فيها رسول الله، ويتقربون بها إلى ربهم على وجه المحبة التامة والذل الكامل، فإن عبادة الله مبنية على هذين الأصلين: الإخلاص والمتابعة، الناشئين عن محبة الله وتعظيمه، فعبودية الله الظاهرة والباطنة تدور على هذا، ولا نجاة ولا فلاح إلا بذلك، ويرون أعظم التقربات إلى الله الجد في إحسان الأعمال وإكمالها وإيقاعها على أكمل الوجوه مع استحضار مقام المراقبة لله وقت تلبس العبد بها، فيجتهدون في إتقان العمل وتنقيته من جميع المنقصات، ويعلمون أن هذا مراد الله من عباده كما قال تعالى: ﴿**ليبلوكم أيكم أحسن عملا**﴾[2])[3].

وقال رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: (أي ليمتحنكم إذ خلق لكم ما في السموات والأرض بأمره ونهيه، فينظر أيكم أحسن عملا.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «دين الله أخلصه وأصوبه».

---

(١) أخرجه أبوداود ٤/٢٠٠ وابن ماجه ١/١٥ والدارمى ١/٤٣، وأحمد في لمسند ٤/١٢٦ والمروزي في السنة ٤/١٢٦ وابن ابي عاصم في السنة بتحقيق الألباني ١/٢٩. وقال الألباني. إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(٢) سورة هود / آية ٧. وسورة الملك / آية ٢.

(٣) توضيح الكافية الشافية / ٢٠.

قيل: يا أبا علي «ما أخلصه وأصوبه»؟

فقال: إن العمل إذا كان صوابا، ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً.

والخالص: أن يكون لوجه الله والصواب: أن يكون متبعاً فيه الشرع والسنة)[1].

ومن الآيات الجامعة لهذين الشرطين قوله تعالى في آخر سورة الكهف: **﴿قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إلـهٌ واحدٌ فمن كان يرجوا لقاء ربهِ فليعملْ عملاً صالحاً ولا يشركْ بعبادة ربه أحداً﴾**[2].

قال رحمه الله في تفسيرها: (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاٍ وهو الموافق لشرع الله من واجب ومستحب، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً أي لا يرائى بعمله بل يعمله خالصاً لوجه الله تعالى.

فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة هو الذي ينال ما يرجو، ويطلب، وأما من عدا ذلك فإنه خاسر في دنياه وأخراه وقد فاته القرب من مولاه ونيل رضاه)[3].

تقسيمه للعبودية من حيث عموم الخلق:

إن الخلق كلهم عبيد الله وذلـك باعتبار أنهم كلهم مخلوقون مربوبون له. وأما باعتبار أداء الواجب الذي خلقوا من أجله وهو تحقيق العبادة لله وحده وعدم الاشراك به فليسوا كلهم عبيد لله بل منهم العبيد ومنهم المشركون.

وعـلى هذا فإن العبـودية بهذا الاعتبار تكون على قسمين، عبودية لربوبية الله، وعبودية لألوهيته.

وقد تناول الشيخ السعدى هذا التقسيم بالبيان فقال رحمه الله: (العبودية لله نوعان:

عبودية لربوبيته: فهذه يشترك فيها سائر الخلق مسلمهم وكافرهم برهم وفاجرهم، فكلهم عبيد لله مربوبون مدبرون **﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا﴾**[4].

---

(١) التفسير ٣/٤٠٤ وانظر التفسير ٧/٤٢٨، والنظر الخلاصة / ٢٠١.

(٢) سورة الكهف / آية ١١٠.

(٣) التفسير ٥/٨٨.

(٤) سورة مريم / آية ٩٣.

وعبودية للألوهيته وعبادته ورحمته: وهي عبودبة أنبيائه وأوليائه وهي المراده بقوله ﴿**وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا**﴾[1]؛ ولهذا أضافها إلى اسمه إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته)[2].

ذكر بعض أنواع العبادة مع بيان ابن سعدى لها:

تقدم معنا أن العبادة أنواع كثيرة، إذ كل عمل يحبه الله ويرضاه وفيه تذلل وخضوع ومحبه، فهو عبادة، ولا يجوز أن يصرف لغير الله فهو المعبود بحق ولا معبود بحق سواه.

وسأورد فيما يلي بعض أنواع العبادة، وأذكر كلام ابن سعدى عنها فإنه رحمه الله كما أهتم ببيان العقيدة إجمالاً فقد أهتم ببيانها على وجه التفصيل.

إذ أن القارىء في كتابه التفسير وخلاصته وغيرهما من كتبه يلمس هذا الاهتمام ويجد أنه رحمه الله يقف عند كثير من الآيات التي فيها ذكر نوع من أنواع العبادة ويتكلم عن هذا النوع المذكور ويبين أنه حق من حقوق الله التي لا يجوز صرفها لغيره ويذكر ما يتعلق بهذا النوع من التفصيلات وما يندرج تحته من أقسام وغير ذلك من الأمور التي تتعلق به على ما سيتبين من خلال كلامنا عن بعض أنواع العبادة.

وسأبدأ أولا بذكر الدعاء. فالدعاء كما قال ﷺ «هو العبادة»[3].

ـ من العبادة الدعاء

إن الدعاء هو أعظم أنواع العبادة، وهو لبها ومخها، وقد وردت آيات كثيرة في كتاب الله في الحث عليه، وعدم الاستكبار عنه، والترغيب فيه. منها قوله تعالى: ﴿**وقال ربكم أدعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين**﴾[4].

وقال: ﴿**ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين**﴾[5].

---

(١) سورة الفرقان / آية ٦٣.

(٢) التفسير ٥/٢٩٣ والخلاصة / ٣٩.

(٣) أخرجه الامام احمد في المسند ٤/٢٦٧، وابن ماجه ٢/١٢٥٨، والترمذي ٥/٢١١، وقال حديث حسن صحيح. والبغوى في شرح السنة ٥/١٨٤ وأبونعيم في الحلية ٨/١٢٠ والحاكم في المستدرك ١/٤٩٠ وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) سورة غافر / آية ٦٠.

(٥) سورة الأعراف / آية ٥٥،٥٦.

وقال سبحانه: ﴿**واذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون**﴾[١].

وقد ورد في السنة أيضاً أحاديث كثيرة في الترغيب فيه منها: حديث النعمان بن بشير قال: قال ﷺ: «الدعاء هو العبادة»[٢] وتلى قوله تعالى: ﴿**وقال ربكم ادعونى أستجب لكم**﴾[٣].

ومنها ما رواه الترمذي عن ابن مسعود مرفوعاً «سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل»[٤].

ومنها: حديث ابن عباس رضى الله عنه قال: قال ﷺ: «إذا سألت فاسأل الله وإذا أستعنت فاستعن بالله»[٥].

وغيرها من الأحاديث.

والمقصود أن الدعاء من أفضل العبادات، ومن أعظم القربات التي يقوم به العبد لربه وخالقه ورازقه ومليكه؛ ولهذا فقد ظهر اهتمام ابن سعدى بهذه المسألة، حيث تناول بيانها وأشار إلى أهميتها في العديد من مؤلفاته، وفي مقدمتها التفسير.

قال رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾[٦].

«هذا من لطفه بعباده ونعمته العظيمة حيث دعاهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، وأمرهم بدعائه، دعاء العبادة ودعاء المسألة، ووعدهم أن يستجيب لهم، وتوعد من استكبر عنها فقال: ﴿**إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾ أي ذليلين حقيرين، يجتمع عليهم العذاب والإهانة جزاء على استكبارهم»[٧].

---

(١) سورة البقرة / آية ١٨٦.

(٢) تقدم تخريجه في ص ١٦٧.

(٣) سورة غافر / آية ٦٠.

(٤) الترمذي ٥/٥٦٥. ورواه أبو داود ٢/٧٦ وابن ماجة ٢/١٢٥٨ والحاكم (١/٤٩٠) والبغوي في شرح السنة ٥/١٨٤، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه أحمد ١/٢٩٣، والترمذي ٤/٦٦٧ وقال: حديث حسن صحيح، والآجرى في الشريعة / ١٩٨، والحاكم ٣/٥٤١، وقد أفرد فيه ابن رجب رسالة أسماها «نور الاقتباس» حسن فيها اسناد هذا الحديث من رواية حنش عن ابن عباس.

(٦) سورة غافر / الآية ٦٠.

(٧) التفسير ٦/٥٤٠.

وقال عند قوله تعالى: ﴿**ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين**﴾[1]: «فأمر بدعائه تضرعاً أي إلحاحاً في المسألة ودءوبا في العبادة وخفية أي لا جهر أو علانية يخاف منه الرياء، بل خفية وإخلاصا لله تعالى»[2].

وقال في بيان أهمية الدعاء (. . . وكل القربات الظاهرة والباطنة تدخل في دعاء العبادة؛ لأن المتعبد لله طالب بلسان مقاله ولسان حاله من ربه قبول تلك العبادة والإثابة عليها)[3].

وقال أيضاً في بيان أهميته عند قوله تعالى: ﴿**فادعوا الله مخلصين له الدين**﴾[4].

(فوضع كلمة الدين موضع كلمة العبادة، وهو في القرآن كثير جداً، يدل على أن الدعاء هو لب الدين وروح العبادة)[5].

كلامه عن أقسام الدعاء:

بين الشيخ ـ رحمه الله ـ في مؤلفاته إن الدعاء ينقسم إلى قسمين دعاء مسألة ودعاء عبادة، فكل أمر في القرآن أو السنة بالدعاء لا يخرج عن هذين القسمين، قال ـ رحمه الله ـ في تفسيره (الدعاء نوعان: دعاء عبادة ودعاء مسألة)[6].

وقال في القاعدة الحادية والخمسين من كتابه القواعد الحسان: (كل ما ورد في القرآن من الأمر بالدعاء، والنهي عن دعاء غير الله والثناء على الداعين: يتناول دعاء المسألة ودعاء العبادة.

وهذه قاعدة نافعة فإن أكثر الناس إنما يتبادر لهم من لفظ الدعاء والدعوة دعاء المسألة فقط، ولا يظنون دخول جميع العبادات في الدعاء، وهذا خطأ جرهم إلى ما هو شر منه، فإن الآيات صريحة في شموله لدعاء المسألة والعبادة، ويدل على ذلك عموم قوله تعالى: ﴿**وقال ربكم ادعونى استجب لكم**﴾ أي أستجب طلبكم واتقبل عملكم)[7].

---

(١) سورة الأعراف / ٥٥.

(٢) التفسير ٣/٤٠.

(٣) الخلاصة / ٥٧.

(٤) سورة غافر / الآية ١٤

(٥) القواعد الحسان / ١٥٥.

(٦) التفسير ١/٢٤٤، و ٣/٤٠.

(٧) القواعد الحسان / ١٥٦.

كلامه عن آداب الدعاء:

إن الالتزامَ بآداب الدعاء أمرٌ مطلوب من كل مسلم؛ وذلك لأن التزامَ آدابه سببٌ لقبولهِ.

وقد أشار رحمه الله إلى جملة من آداب الدعاء التي ينبغي للمسلم أن يلتزمها.

قال رحمه الله في تفسيره: (.... من آداب الدعاء: الإخلاص فيه لله وحده وإخفاؤه وأسراره، وأن يكون القلب خائفاً طامعاً لا غافلاً ولا آمنا ولا غير مبال بالإجابة)[1].

وقال: (من شروط الدعاء وآدابه حضور قلب الداعي واستحضاره لمعاني ما يدعو به)[2].

وهذا الشرط الأخير جعله يذكر في كتابه المواهب الربانية جملة من الأدعية الواردة في الكتاب والسنة ويقوم بشرحها ليسهل استحضارها، وهي في الحقيقة جملة من الأدعية الجامعة النافعة فلتراجع لأهميتها.[3].

وكذلك من آداب الدعاء أن لا يعتدى فيه ولا يتجاوز فيه الحد، وقد نهى عن الاعتداء في جميع الأمور.

قال رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿**إنه لا يحب المعتدين**﴾[4].

(ومن الأعتداء كون العبد يسأل الله مسائل، لا تصلح له، أو ينقطع في السؤال، أو يبالغ في رفع صوته بالدعاء، فكل هذا داخل في الاعتداء المنهي عنه)[5].

فعلى العبد أن يكثر من دعاء الله سبحانه، وأن يتأدب بآداب الدعاء، وأن يحسن في دعائه والله قريب من المحسنين.

ومن أنواع العبادة المحبة:

إن نصوص الكتاب والسنة الدالة على وجوب محبة الله سبحانه وتقديم محبته على سائر المحاب كثيرة جداً.

قال الله تعالى: ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله**

---

(١) التفسير ٣/٤٠، ٤١.

(٢) المواهب الربانية / ٢٨.

(٣) المواهب الربانية / ٢٨ وما بعدها، وانظر بهجة قلوب الأبرار / ٢٤٩.

(٤) سورة الأعراف / الآية ٤٠.

(٥) التفسير ٣/٤٠.

وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[1].

وقال: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾[2].

وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[3].

وفيهما عنه رضى الله عنه أن رجلا سأل النبي ﷺ «متى الساعة»؟ فقال «ما أعددت لها»؟ قال ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله فقال رسول الله ﷺ «أنت مع من أحببت»[4].

وقد تناول ابن سعدي هذا النوع من العبادة وبين أهميته وشدة الحاجة إليه وبين معناه، وأنواعه وما يتعلق به.

قال في بيان أهميته: (أصل التوحيد وروحه إخلاص المحبة لله وحده وهي أصل التأله والتعبد، بل هي حقيقة العبادة، ولا يتم التوحيد حتى تكمل محبة العبد لربه، وتسبق محبته جميع المحاب وتغلبها ويكون لها الحكم عليها بحيث تكون سائر محاب العبد تبعاً لهذه المحبة التي بها سعادة العبد وفلاحه)[5].

وقال (العبادة روحها وحقيقتها تحقيق الحب والخضوع لله، فالحب التام والخضوع الكامل لله هو حقيقة العبادة فمتى خلت العبادة من هذين الأمرين أو من أحدهما فليست عبادة، فإن حقيقتها الذل والانكسار لله، ولا يكون ذلك إلا مع محبته المحبة التامة التي تتبعها المحاب كلها)[6].

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم . . .)[7] الآية: (وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله وعلى تقديمها على محبة كل شيء)[8].

---

(١) سورة التوبة / الآية ٢٤.

(٢) سورة آل عمران / الآية ٣١.

(٣) البخاري ١/٩، ومسلم ١/٦٦.

(٤) البخاري ٧/١١٣، ومسلم ٤/٢٠٣٢.

(٥) القول السديد / ١١٠.

(٦) الحق الواضح المبين / ٥٩، ٦٠.

(٧) سورة التوبة / الآية ٢٤.

(٨) التفسير ٣/٣١٤.

كلامه في معنى محبة الله:

قال رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم**﴾[1].

(وهذه الآية هي الميزان التي يعرف بها من أحب الله حقيقة، ومن ادعى ذلك دعوى مجردة.

فعلامة محبة الله اتباع محمد ﷺ الذي جعل متابعته وجميع ما يدعو إليه، طريقاً إلى محبته ورضوانه.

فلا تنال محبة الله ورضوانه وثوابه إلا بتصديق ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة وامتثال أمرهما واجتناب نهيهما)[2].

وقال: (ومن لوازم محبة العبد لربه، أنه لابد أن يتصف بمتابعة الرسول ﷺ، ظاهراً وباطناً، في أقواله وأعماله وجميع أحواله)[3].

والمقصود أن مجرد الادعاء لا يكفي بل لابد من المتابعة للرسول ﷺ ويظهر ذلك ويتبين فيما إذا عرض للإنسان أمران أحدهما يحبه الله ورسوله وليس لنفسه فيه هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه ولكنه يفوت عليه محبوبا لله ورسوله، وينقصه، فإن قدم ما يحبه الله ورسوله صار صادقاً في دعواه، وإن قدم ما تحبه نفسه وتهواه على ما يحبه الله دل ذلك على أنه ظالم تارك لما يجب عليه[4].

تقسيمه للمحبة:

قسم الشيخ ابن سعدى المحبة إلى أربعة أقسام فقال:

«واعلم أن أنواع المحبة ثلاثة أقسام:

الأول: محبة الله التي هي أصل الإيمان والتوحيد.

الثاني: المحبة في الله وهي محبة أنبياء الله ورسله وأتباعهم، ومحبة ما يحبه الله من الأعمال والأزمنة والأمكنة وغيرها، وهذه تابعة لمحبة الله ومكملة لها.

الثالث: محبة مع الله وهي محبة المشركين لآلهتهم وأندادهم من شجر، وملك وغيرها وهي أصل الشرك وأساسه.

---

(١) سورة آل عمران / الآية ٣١.

(٢) التفسير ١/٣٧٤.

(٣) التفسير ٢/٢٠٧.

(٤) التفسير ٣/٣١٤.

وهنا قسم **رابع**: وهو المحبة الطبيعية التي تتبع ما يلائم العبد، ويوافقه من طعام وشراب ونكـاح ولباس وعشرة وغيرها. وهذه إذا كانت مباحة إن أعانت على محبة الله وطاعته دخلت في باب العبادات، وإن صدت عن ذلك وتوسل بها إلى ما لا يحبه الله دخلت في المنهيات. وإلا بقيت من أقسام المباحات»[1].

نسأل الله أن يرزقنا حبه، وحب من يحبه، وحب العمل الذي يقرب إلى حبه. إنه جواد كريم.

ومن أنواع العبادة الخوف:

الخـوف من أفضل مقامات الدين وأجلها، وقد ذكره الله في كتابه عن سادات المقربين من الملائكة والأولياء والصالحين.

قال تعالى ﴿**يخافون ربهم من فوقهم**﴾[2].

وقال: ﴿**وهم من خشيته مشفقون**﴾[3].

وقال: ﴿**إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون**﴾[4].

وقال: ﴿**الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله**﴾[5].

وهو من العبادات العظيمة ولا يجوز صرفه لغير الله، وقد أمر الله بإخلاصه له في أكثر من آية.

قال تعالى: ﴿**فلا تخشوا الناس واخشون**﴾[6].

وقال: ﴿**أفغير الله تتقون**﴾[7].

وقال: ﴿**إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين**﴾[8].

وقال: ﴿**وإياى فارهبون**﴾[9].

---

(١) القول السديد / ١١٢، ١١٣.

(٢) سورة النحل / الآية ٥٠.

(٣) سورة الأنبياء / الآية ٢٨.

(٤) سورة المؤمنون / الآية ٥٧.

(٥) سورة الأحزاب / الآية ٣٩.

(٦) سورة المائدة / الآية ٤٤.

(٧) سورة النحل / الآية ٥٢.

(٨) سورة آل عمران / الآية ١٧٥.

(٩) سورة البقرة / الآية ٤٠.

هذا وقد تناول الشيخ ابن سعدى هذا النوع من العبادة بالبيان والإيضاح.

فقال رحمه الله في بيان إخلاص هذا النوع من العبادة لله وحده عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**فلا تخافوهم وخافون**﴾[1].

قال: (أي فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان، فإن نواصيهم بيد الله، لا يتصرفون إلا بقدره.

بل خافوا الله، الذي ينصر أولياءه الخائفين إياه المستجيبين لدعوته وفي هذه الآية. وجوب الخوف من الله وحده، وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله، والخوف المحمود ما حجز العبد عن محارم الله)[2].

وقال في بيان أهمية الخوف: «فالخوف يمنع العبد عن محارم الله وتشاركه الخشية في ذلك...»[3] وقال: «فإن خشية الله جالبة لكل خير مانعة من كل شر»[4].

تقسيمه للخوف:

يقسم ابن سعدى الخوف إلى أربعة أقسام:

(١) خوف تأله لله، وتعلقه بالله من أعظم الواجبات.

(٢) خوف تأله لغير الله وهذا شرك أكبر.

(٣) خوف طبيعي كالخوف من الأسد والحية والنار وغير ذلك.

(٤) خوف وهمي كالخوف الذي ليس له سبب أصلاً وهذا مذموم يدخل صاحبه في وصف الجبناء.

قال رحمه الله في بيان هذه الأقسام:

«اعلم أن الخوف والخشية تارة يقع عبادة وتارة يقع طبيعة وعادة، وذلك بحسب أسبابه ومتعلقاته.

فإن كان الخوف والخشية خوف تأله وتعبد وتقرب بذلك الخوف إلى من يخافه، وكان يدعو إلى طاعة باطنه وخوف سرى يزجر عن معصية من يخافه كان تعلقه بالله من أعظم واجبات الإيمان.

وتعلقه بغير الله من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله؛ لأنه أشرك في هذه العبادة ـ

---

(١) سورة آل عمران / الآية ١٧٥.

(٢) التفسير ١/٤٥٧ وانظر القول السديد / ١١٤.

(٣) الخلاصة / ٢٠١.

(٤) التفسير ٦/٢٢٥.

التي هي من أعظم واجبات القلب ـ غير الله مع الله، وربما زاد خوفه من غير الله على خوفه لله.

وأيضاً فمن خشى الله وحده على هذا الوجه فهو مخلص موحد. ومن خشي غيره فقد جعل لله نداً في الخشية كمن جعل لله نداً في المحبة، وذلك كمن يخشى من صاحب القبر أن يوقع به مكروها أو يغضب عليه فيسلبه نعمه أو نحو ذلك مما هو واقع من عباد القبور.

وإن كان الخوف طبيعياً كمن يخشى من عدو أو سبع أو حية أو نحو ذلك مما يخشى ضرره الظاهري، فهذا النوع ليس عبادة، وقد يوجد من كثير من المؤمنين، ولا ينافي الإيمان، وهذا إذا كان خوفاً محققا قد انعقدت أسباب الخوف فليس بمذموم.

وإن كان هذا خوفاً وهمياً كالخوف الذي ليس له سبب أصلاً. أو له سبب ضعيف فهذا مذموم يدخل صاحبه في وصف الجبناء، وقد تعوذ ﷺ من الجبن فهو من الأخلاق الرذيلة)[1].

من أنواع العبادة التوكل:

قال تعالى: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾[2].

وقال ﴿**وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا**﴾[3].

وقال: ﴿**فاعبده وتوكل عليه**﴾[4].

وغيرها من الآيات. والتوكل فريضة يجب إخلاصه لله إذ هو من أفضل العبادات وأعظم القربات وهو أعلى مقامات التوحيد.

وقد اهتم ابن سعدى ببيان هذه العبادة كما اهتم ببيان غيرها من العبادات وأشار إلى أهمية التوكل وشدة الحاجة إليه.

قال رحمه الله: «التوكل على الله من أعظم واجبات التوحيد والإيمان. وبحسب قوة توكل العبد على الله يقوى إيمانه ويتم توحيده، والعبد يضطر إلى التوكل على الله والاستعانة به في كل ما يريد فعله أو تركه من أمور دينه أو دنياه»[5].

---

(١) القول السديد / ١١٥، ١١٦.

(٢) سورة المائدة / الآية ٢٣.

(٣) سورة الفرقان / الآية ٥٨.

(٤) القول السديد / ١١٧.

(٥) القول السديد / ١١٧.

وقال في إحدى خطبه: «فالاستعانة بالله، والتوكل عليه من أعظم واجبات الإيمان وأفضل الأعمال المقربة للرحمن. فإن الأمور كلها لا تحصل ولا تتم إلا بالاستعانة بالله، ولا عاصم للعبد سوى الاعتماد على الله. فإن ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن ولا تحول للعباد من حال إلى حال إلا بالله، ولا قدرة لهم على طاعة الله إلا بتوفيق الله، ولا مانع لهم من الشر والمعاصي إلا عصمة الله، وكذلك أسباب الرزق لا تحصل وتتم إلا بالسعي في الطلب مع التوكل على الله»[1].

وكما بين رحمه الله أهمية التوكل فقد بين حقيقته وكيفيته فقال: (وحقيقة التوكل على الله: أن يعلم العبد أن الأمر كله لله وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وانه النافع الضار المعطي المانع، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله فبعد هذا العلم يعتمد بقلبه على ربه في جلب مصالح دينه ودنياه وفي دفع المضار، ويثق غاية الوثوق بربه في حصول مطلوبه، وهو مع هذا باذل جهده، في فعل الأسباب النافعة. فمتى استدام العبد هذا العلم وهذا الاعتماد والثقة فهو المتوكل على الله حقيقة، وليبشر بكفاية الله له ووعده للمتوكلين، ومتى علق ذلك بغير الله فهو شرك، ومن توكل على غير الله وتعلق به وكل إليه وخاب أمله)[2].

كلامه في التوسل:

قال تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون**﴾[3].

وقال: ﴿**أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا**﴾[4].

وهذه أيضا من العبادات التي تناولها الشيخ ابن سعدى وبين معناها وأقسامها.

قال رحمه الله في بيان معنى التوسل إلى الله وذلك عند قوله تعالى: ﴿**وابتغوا إليه الوسيلة**﴾.

«أي القرب منه والحظوة لديه والحب له، وذلك بأداء فرائضه القلبية كالحب له وفيه، والخوف والرجاء والإنابة والتوكل.

والبدنية كالزكاة والحج.

---

(١) الفواكه الشهية / ٢٢.

(٢) القول السديد / ١١٧، ١١٨.

(٣) سورة المائدة / الآية ٣٥.

(٤) سورة الإسراء / الآية ٥٧.

والمركبة من ذلك كالصلاة ونحوها . . . .»[1].

وبين أن التوسل ثلاثة أقسام فقال: (التوسل يطلق على التوسل إلى الله بما جعله وسيلة إليه في مثل قوله تعالى: ﴿**ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة**﴾[2].

وذلك يشمل التقرب إلى الله بالواجبات والمستحبات، وكذلك التقرب إليه بترك المكروهات.

فهذا توسل إليه بعبادته التي خلق الخلق لأجلها، ومن هذا التوسل إليه في دعاء المسأله بأسمائه وصفاته، والتوسل إليه بمنته ونعمه كالتوسل إليه بالإيمان به وبرسله وكتبه أو دفع نقمه، وبالإيمان بالرسول ﷺ ومحبته واتباعه بالصلاة والسلام عليه، فهذه الوسيلة لا يتم الإيمان إلا بها.

النوع الثاني: التوسل إلى الله بذوات المخلوقين، وجاههم فهذا الصواب أنه لا يحل؛ لأنه لا يتقرب إلى الله إلا بما شرع، وهذا ليس بمشروع، وأيضاً فذوات المخلوقين وإن كان لهم عند الله مقام وقدر وجاه، فهذا ليس لغيرهم وليس التوسل بهم سبباً لشفاعتهم للمتوسل عند الله ولم يجعله الله من الأمور المقربة إليه، وليس ذلك إلا توسلاً بما منّ الله على المتوسل فتعين أنه لا يجوز.

النوع الثالث: ما يسميه المشركون توسلاً وهو التقرب إلى المخلوقين بالدعاء والخوف والرجاء والطمع ونحو ذلك فهذا توسل إلى الشيطان وهو الشرك الأكبر الذي لا يغفر لصاحبه إن لم يتب)[3].

كلامه عن الشرك:

تمهيد: إن معرفة الشرك وخطره وأسبابه وأدلة بطلانه وأنواعه من أهم الأمور، وذلك أنه لايمكن للإنسان أن يحذر منه ويحذر غيره إلا إذا عرفه وعرف خطره.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما أنه قال: «كان الصحابة يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني»[4].

---

(١) التفسير ٢/٢٨٥.

(٢) سورة المائدة / الآية ٣٥.

(٣) الفتاوى السعدية / ٣١، ٣٢، وانظر التفسير ١/٣٦٣، والمواهب الربانية / ٣١، ٣٢ ٣٣.

(٤) البخاري ٨/٩٣، ومسلم ٣/١٤٧٥. وأخرجه الإمام أحمد ٥/٤٠٣، وأبوداود ٤/٩٥.

وهذا المعنى تمثل به أحد الشعراء بقوله:

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه ... ومن لم يعرف الشر من الناس يقع فيه

ومن هنا يتلخص لنا أن في معرفة الشرك وما يتعلق به فوائد عديدة:

أحدها : إن الإنسان يمكنه بمعرفة الشرك أن يحذر من الوقوع فيه.

الثاني : إنه يمكنه بذلك أن يُحذر غيره.

الثالث : إنه يظهر له بذلك حسن الإسلام والتوحيد، وذلك أنه إذا عرف الشرك وظهر له بطلانه، عرف أن ضده وهو التوحيد أفضل الأعمال، وبضدها تتميز الأشياء.

إلى غير ذلك من الفوائد.

ولهذه الأسباب وغيرها فقد ظهر اهتمام الشيخ ابن سعدى ببيان الشرك وأقسامه وأسبابه وخطره وجميع ما يتعلق به، وبين أن توحيد العبادة المتقدم بيانه لا يتم ولا يقبل من صاحبه إلا بترك الشرك والبعد عنه. قال: (ولا يتم توحيد العبادة حتى يخلص العبد لله في جميع إرادته وأقواله وأفعاله، وحتى يدع الشرك الأكبر المنافي للتوحيد كل المنافاة، وهو أن يصرف نوعاً من أنواع العبادة لغير الله تعالى، وتحقيق هذا التوحيد وتمامه أن يدع الشرك الأصغر وهو: كل وسيلة يتوسل بها إلى الشرك الأكبر كالحلف بغير الله، ويسير الرياء ونحو ذلك)[1].

لهذا فإني سأذكر فيما يلي تعريفه للشرك وبيانه لأقسامه وأسبابه وذمه له وبيانه لبطلانه إلى غير ذلك من الأمور التي تتعلق بهذا الجانب.

تعريفه للشرك وبيانه لأقسامه:

قال رحمه الله في تعريف الشرك: (وحقيقة الشرك بالله: أن يُعبد المخلوق كما يعبد الله أو يُعظم كما يعظم الله أو يُصرف له نوع من خصائص الربوبية والألهية)[2].

وقسم الشرك إلى نوعين: شرك في الربوبية، وشرك في الألوهية فقال: (الشرك نوعان: شرك في ربوبيته تعالى كشرك الثانوية الذين يثبتون خالقاً مع الله، وشرك في ألوهيته كشرك المشركين الذين يعبدون الله ويعبدون غيره ويشركون بينه، وبين المخلوقين، ويسوونهم مع الله في شيء من خصائص ألوهيته)[3].

---

(١) الفتاوى السعدية / ١٣.

(٢) التفسير ٢/٤٩٩.

(٣) الخلاصة / ٢٠٣ وانظر الرياض الناضرة / ٢٥٦، وسؤال وجواب / ١١.

وكلامنا هنا سيكون مقتصراً على النوع الثاني من أنواع الشرك وهو «الشرك في الألوهية»، أما النوع الأول فقد تقدم الكلام عليه ضمن توحيد الربوبية.

ذم الشرك:

وردت نصوص كثيرة في الكتاب والسنة في التحذير من الشرك، وبيان خطره، وأنه أعظم ذنب عصى الله به، وأنه لا أضل من فاعله، وأنه مخلد في النار أبداً لا نصير له ولا حميم ولا شفيع يطاع.

بل إن الآيات والأحاديث الواردة في ذلك لا تحصى إلا بكلفة.

قال تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما**﴾[1].

وقال: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا**﴾[2].

وقال: ﴿**إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار**﴾[3].

وقال: ﴿**ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق**﴾[4].

وقال للرسل وهم صفوة الخلق: ﴿**ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون**﴾[5].

وقال لخاتمهم محمد ﷺ: ﴿**ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين**﴾[6].

وغيرها من الآيات. ومن الأحاديث الواردة في ذلك.

حديث عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار»[7].

---

(١) سورة النساء / الآية ٤٨.

(٢) سورة النساء / الآية ١١٦.

(٣) سورة المائدة / الآية ٧٢.

(٤) سورة الحج / الآية ٣١.

(٥) سورة المائدة / الآية ٨٨.

(٦) سورة الزمر / الآية ٦٥.

(٧) أخرجه البخاري ٢/٦٩، ومسلم ١/٩٤.

وحديث جابر بن عبدالله قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة»(١).

وحديث أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «أتاني جبريل عليه السلام فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة. قلت: وإن زنى وإن سرق قال: وإن زنى وإن سرق»(٢).

وحديث أبي بكرة رضى الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر» ثلاثاً: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس، فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت»(٣).

وغيرها من الأحاديث.

ولقد اهتم ابن سعدى ببيان خطورة الإشراك بالله وشناعته، وقبح فاعله وضلاله، وبين أن الله وملائكته ورسله قد حذروا من هذا العمل وبين أن ما عبد من دون الله لا يملك لنفسه ضراً ولا رشداً وان النافع الضار هو الله إلى غير ذلك من الجوانب التي تناولها في سبيل بيان قبح الشرك.

قال رحمه الله: (فالله وملائكته ورسله قد نهوا عن الشرك، وذموا من عمله أشد الذم، ورتبوا عليه من الأسماء المذمومة والأوصاف المقبوحة ما كان به متعاطيه أشنع الخلق وصفاً وأقبحهم نعتاً، وله في الخذلان في أمر دينه ودنياه بحسب ما تركه من التعلق بربه.

فمن تعلق بغيره فهو مخذول، قد وكل إلى من تعلق به، ولا أحد من الخلق ينفع أحداً إلا بإذن الله)(٤).

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**ياأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا**﴾(٥).

(فهذا برهان جلي دال على أن عبادة الناقص في ذاته وأفعاله مستقبح عقلاً وشرعاً، ودل تنبيهه وإشارته أن الذي يجب ويحسن عبادته من له الكمال الذي لا ينال العباد نعمه إلا منه ولا يدفع عنهم نقمه إلا هو وهو الله تعالى)(٦).

---

(١) أخرجه مسلم /١/ ٩٤.
(٢) أخرجه البخاري ٢/ ٦٩، ومسلم ١/ ٩٤.
(٣) أخرجه البخاري ٣/ ١٥٢ ومسلم ١/ ٩١.
(٤) التفسير ٤/ ٢٦٩ وانظر ٦/ ١٣٠.
(٥) سورة مريم / الآية ٤٢.
(٦) التفسير ٥/ ١١٠.

وقال عند قوله تعالى: ﴿**الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار**﴾[1]:

(.. فالمخلوقات كل مخلوق فوقه مخلوق يقهره ثم فوق ذلك القاهر قاهر أعلى منه حتى ينتهي القهر للواحد القهار فالقهر والتوحيد متلازمان متعينان لله وحده.

فتبين بالدليل العقلي القاهر أن ما يُدعىٰ من دون الله ليس له شيء من خلق المخلوقات وبذلك كانت عبادته باطلة)[2].

وقال عند قوله تعالى ﴿**ان الله لا يغفر أن يشرك به....**﴾[3].

(... الشرك لا يغفره الله لتضمنه القدح في رب العالمين، ووحدانيته وتسوية المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، بمن هو مالك النفع والضر، الذي ما من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه والغنى التام بجميع وجوه الاعتبارات.

فمن أعظم الظلم، وأبعد الضلال، عدم إخلاص العبادة لمن هذا شأنه وعظمته، وصرف شيء منها للمخلوق الذي ليس له من صفات الكمال شيء، ولا له من صفات الغنى شيء، بل ليس له إلا لعدم، عدم الوجود، وعدم الكمال وعدم الغنى من جميع الوجوه)[4].

وقال في بيان وجه كون الشرك ظلماً عظيماً عند قوله تعالى: ﴿**إن الشرك لظلم عظيم**﴾[5]. (ووجه كونه ظلماً عظيماً، أنه لا أفظع ولا أبشع ممن سوّى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسوّى الذي لا يملك من الأمر شيئاً بمالك الأمر كله وسوى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسوى من لا يستطيع أن ينعم بمثقال ذرة من النعم بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم ودنياهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم إلا منه ولا يصرف السوء إلا هو. فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟

وهل أعظم ظلماً ممن خلقه الله لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة فجعلها في أخس المراتب؟ جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئاً)[6].

---

(١) سورة الرعد / الآية ١٦.

(٢) التفسير ٤/٩٩.

(٣) سورة النساء / الآية ١١٦.

(٤) التفسير ٢/١٦٥.

(٥) سورة لقمان / الآية ١٣.

(٦) التفسير ٦/١٥٥، ١٥٦، وانظر التفسير ٦/٢٧٦.

وبين أن كل من عبد أحداً غير الله وأشركه معه في العبادة يكون بعمله هذا طائعاً عابداً للشيطان؛ لأنه امتثل أمره وحقق مراده ومقصوده.

فقال عند قوله تعالى: ﴿**ياأبت لا تعبد الشيطان**﴾[1] «لأن من عبد غير الله، فقد عبد الشيطان كما قال تعالى: ﴿**ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين**﴾[2]»[3].

وقال عند قوله: ﴿**لا تعبدوا الشيطان**﴾ أي لا تطيعوه، وهذا التوبيخ يدخل فيه التوبيخ عن جميع أنواع الكفر والمعاصي؛ لأنها كلها طاعة للشيطان وعبادة له)[4].

ويكفي في بيان ذم الشرك وخطره قوله تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾[5].

فهو الذنب الوحيد المتميز عن بقية الذنوب بعدم المغفرة لصاحبه إذا مات ولم يتب منه، وأما بقية الذنوب فإن صاحبها إن مات ولم يتب منها فإنه تحت مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له.

قال رحمه الله: (فالذنوب التي دون الشرك قد جعل الله لمغفرتها أسبابًا كثيرة كالحسنات الماحية والمصائب المكفره في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة وكدعاء المؤمنين، بعضهم لبعض وشفاعة الشافعين، ومِن دون ذلك كله رحمته التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد.

وهذا بخلاف الشرك فإن المشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة، فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد، ولا تفيده المصائب شيئاً)[6].

كلامه عن سبب أول شرك حصل في بني آدم:

بين الشيخ ابن سعدى عند تفسيره لسورة نوح. ما قرره ابن عباس وغيره من أئمة السلف أن أول شرك حصل من بني آدم سببه هو تعظيم الصالحين وقبورهم، ورفعهم فوق منزلتهم حيث بين أن الناس مكثوا بعد آدم على ملة الإسلام يعبدون الله وحده

(١) سورة مريم / الآية ٤٤.
(٢) سورة يس / الآية ٦٠.
(٣) التفسير / ٥/١١١.
(٤) التفسير ٦/٣٥٦.
(٥) سورة النساء / الآية ٤٨.
(٦) التفسير ٢/٨٠.

فأفسد الشيطان عليهم دينهم بأن أملى لهم تعظيم الصالحين ثم ترقى بهم إلى أن جعلهم يعبدونهم من دون الله.

قال في خلاصة التفسير: (مكث البشر بعد آدم قروناً طويلة وهم أمة واحدة على الهدى، ثم اختلفوا وأدخلت عليهم الشياطين الشرور المتنوعة بطرق كثيرة فكان قوم نوح قد مات منهم أناس صالحون فحزنوا عليهم فجاءهم الشيطان فأمرهم أن يصوروا تماثيلهم ليتسلوا بهم وليتذكروا بها أحوالهم، فكان هذا مبتدأ الشر.

فلما هلك الذين صوروهم لهذا المعنى جاء من بعدهم وقد اضمحل العلم فقال لهم الشيطان: إن هؤلاء وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسرا قد كانوا أولوكم يدعونهم ويستشفعون بهم، وبهم يسقون الغيث وتزول الأمراض، فلم يزل بهم حتى انهمكوا في عبادتهم على رغم نصح الناصحين.

ثم بعث الله فيهم نوحاً عليه السلام يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته وكمال أخلاقه فقال ﴿**ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره**﴾[1]) [2].

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا**﴾[3].

(وهذه أسماء رجال صالحين لما ماتوا زين الشيطان لقومهم أن يصوروا صورهم لينشطوا بزعمهم على الطاعة إذا رأوها.

ثم طال الأمد وجاء غير أولئك فقال لهم الشيطانُ إن أسلافكم كانوا يعبدونهم ويتوسلون بهم، وبهم يسقون المطر فعبدوهم)[4].

كلامه عن فطرية التوحيد وأن الشرك طارىء على البشرية:

هذه المسألة للناس فيها قولان:

القول الأول: هو أن الله خلق الناس حنفاء على عقيدة واحدة وهي عقيدة التوحيد ثم عرضت لهذه العقيدة انحرافات فمال الناس وانحرفوا إلى الوثنية والشرك بالله وهذا القول هو القول الحق، الذي لا شك فيه والذي تدل عليه نصوص الكتاب والسنة، ولا يعرف أحد من العلماء المعتبرين قال بخلافه.

---

(١) سورة الأعراف / الآية ٥٩.

(٢) الخلاصة / ١٠٧.

(٣) سورة نوح / ٢٣.

(٤) التفسير ٤٨٥/٧.

أما القول الثاني: فهو أن التدين بدأ بالخرافة والشرك وعبادة غير الله ثم أخذ يتطور إلى أن أفرد الله وحده بالعبادة[1].

ولا شك أن هذا القول باطل فاسد يخالف نصوص الكتاب والسنة، بل إن نصوص الكتاب والسنة تدل على بطلانه[2].

قال تعالى: ﴿**وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا**﴾[3].

وقال: ﴿**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين**﴾[4] وقال ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾[5].

وقال ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾[6] وفي الحديث القدسي قال الله تعالى: (إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم)[7].

وقال ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)[8].

وغيرها من النصوص، وهي كلها تدل على بطلان القول الثاني، وأن الصواب الموافق للكتاب والسنة هو القول الأول، من أن الأصل في الناس التوحيد والشرك طارىء وحادث فيهم.

وقد بين ابن سعدى أن الأصل في الناس التوحيد وأنهم مفطورون على العقيدة، وأن الشرك والانحراف عن هذه العقيدة طارىء على البشرية.

قال عند قوله تعالى: ﴿**وما كان الناس إلا أمة واحدة**﴾[3].

(متفقين على الدين الصحيح، ولكنهم اختلفوا فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين)[9].

---

(١) ذكر هذين القولين الدكتور محمد دراز في كتابه الدين / ٨٠.

(٢) انظر في بيان بطلانه الفتاوى لابن تيمية ١٠٦/٢٠.

(٣) سورة يونس / الآية ١٩.

(٤) سورة البقرة / الآية ٢١٣.

(٥) سورة الروم / الآية ٣٠.

(٦) سورة النحل / الآية ٣٦.

(٧) تقدم تخريجه ص ٦٩.

(٨) تقدم تخريجه ص ٦٨.

(٩) التفسير ٣٣٨/٣.

وقال: (مكث البشر بعد آدم قروناً طويلة وهم أمة واحدة على الهدى ثم اختلفوا)[1].

وقال عند قوله تعالى: ﴿**فطرت الله التي فطر الناس عليها**﴾ بعد أن بين أن الناس جميعا مفطورون على التوحيد وأن هذا الأصل في جميع الناس قال: (ومن خرج عن هذا الأصل فلعارض عرض لفطرته أفسدها كما قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[2])[3].

تنبيه:

قال الشيخ ابن سعدى عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين**﴾[4].

قال: (أي كان الناس مجتمعين على الكفر والضلال والشقاء ليس لهم نور ولا ايمان فرحمهم الله تعالى بإرسال الرسل إليهم)[5].

وهذه الآية ذكر ابن كثير فيها قولين عن السلف وكلاهما ينسب إلى ابن عباس.

أحدهما: أنهم كانوا على الهدى جميعهم.

والثاني: أنهم كانوا كفاراً.

ثم قال بعد ذكر هذين القولين: «والقول الأول عن ابن عباس أصح سنداً ومعنى؛ لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض»[6].

ولا ريب أن قول ابن سعدى المذكور آخراً يتعارض مع أقواله المتقدمة إلا إذا حمل على أن المراد بالناس في الآية الأقوام التي كفرت بالله بعد أن فطرت على التوحيد، وهذا له وجه من الصحة.

ومن أمعن النظر في أقواله المتقدمة التي ذكر فيها أن الناس كانوا على التوحيد ثم حصل منهم الكفر، عرف صحة هذا المحمل.

والمقصود أن ابن سعدى يرى أن الشرك طارىء على الناس بعد أن خلقوا حنفاء موحدين.

---

(١) الخلاصة / ١٠٧.

(٢) تقدم تخريجه ص ٦٨.

(٣) التفسير ٦/١٢٦.

(٤) سورة البقرة / الآية ٢١٣.

(٥) التفسير ١/٢٦٠.

(٦) تفسير ابن كثير ١/٢٥٠.

كلامه في الفرق بين الكفر والشرك:

ذكر الشيخ ابن سعدى فارقاً بين الكفر والشرك وهو أن الكفر أشمل من الشرك بحيث أنه كل شرك كفر وليس كل كفر شركاً.

ومثال ذلك الاستهزاء برسول الله ﷺ أو القرآن كفر وليس شركاً.

قال تعالى ﴿**ولئن سألتهم ليقولون إنما كنا نخوض ونلعب قل أبا لله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن، لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم**﴾(١).

فهذا العمل كفر وليس بشرك، أما الأمور الشركية كعبادة غير الله من الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم ودعائهم من دون الله، وطلب الحوائج منهم، وغير ذلك من الشركيات، فإنها كلها كفرية.

قال ابن سعدى في بيان هذا الفارق بين الكفر والشرك: (الكفر أعم من الشرك فمن جحد ما جاء به الرسول أو جحد بعضه بلا تأويل فهو الكافر من أي دين يكون سواء كان صاحبه معانداً أو جاهلاً ضالاً...)(٢).

وبين أن الكفر نوعان كفر أكبر مخرج من الدين كالتكذيب لله ورسوله، وكفر أصغر كالاقتتال بين المسلمين والنياحة والتبرؤ من النسب(٣).

كلامه في أنواع الشرك:

قسم ابن سعدى الشرك إلى نوعين: شرك أكبر مخرج من الملة وشرك أصغر. وبين أن العبد لا يتم له توحيد العبادة حتى يتبرأ من الشرك بنوعيه.

فقال: (الشرك المناقض لتوحيد الألوهية نوعان:

جلي ظاهر مخرج من دائرة الإسلام وهو الشرك الأكبر، وهذا النوع لا يقبل الغفران. قال تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾(٤).

وتفسيره: أن يتخذ العبد لله نداً يحبه كمحبة الله أو يرجوه أو يخافه كخوفه من الله

---

(١) سورة التوبة / الآيتان ٦٥، ٦٦.

(٢) الخلاصة / ٢٠٣، وانظر الرياض الناضرة / ٢٥٥.

(٣) الفتاوى السعدية / ١٠٣ وهو يشير في ذلك إلى قول النبي ﷺ (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر) أخرجه البخاري ١/١٧ ومسلم ١/٨١، وقوله: (اثنتان في الناس هما بهم كفر، الطعن في النسب، والنياحة على الميت) أخرجه مسلم ١/٨٢.

(٤) سورة النساء / الآية ٤٨.

أو يدعوه أو يصرف له نوعاً من أنواع العبادة الظاهرة والباطنة. وفي هذا المقام لا فرق بين الملائكة والأنبياء والأولياء الصالحين والطالحين والأشجار والأحجار وغيرها.

فمن صرف لشيء منها نوعاً من العبادة فهو مشرك كافر قد سواها بربه في هذا الحق الذي يختص به، فإن العبودية لا حق فيها لملك مقرب ولا نبي مرسل ولا غيرهما، بل هم مفتقرون غاية الافتقار إلى تألههم وتعبدهم لله.

وأما الشرك الأصغر: فهو كل وسيلة يتوسل بها ويتطرق إلى الشرك الأكبر بشرط أن لا يبلغ مرتبة العبادة كالحلف بغير الله وكالرياء والتصنع للمخلوقين ونحو ذلك من الأقوال والأفعال المؤدية إلى الشرك.

فلا يتم للعبد توحيد حتى يتبرأ من الشرك كله جليه وخفيه ظاهره وباطنه الأقوال منه والأفعال، وتكون أعماله كلها خالصة. متبعاً سنة رسول الله ﷺ)[1].

الفوارق بين الشرك الأكبر والأصغر:

وقد ذكر ابن سعدى جملة من الفوارق بين الشرك الأكبر والأصغر، وهي فوارق هامة.

قال رحمه الله: (اعلم أن الشرك الأكبر، والشرك الأصغر يفترقان في أحكام كثيرة دل عليها الكتاب والسنة والإجماع: يفترقان في حدهما: أما الشرك الأكبر فهو: صرف نوع من العبادة لغير الله تعالى فكل ما ثبت في الكتاب والسنة من العبادات إذا صرف العبد منها شيئاً لغير الله فهو مشرك كافر.

وأما حد الشرك الأصغر فهو كل وسيلة يخشى أن توصل صاحبها إلى الشرك الأكبر كالحلف بغير الله، وكالرياء والسمعة وكالغلو في المخلوق الذي لا يصل إلى رتبة عبادته، فهذا هو أصل الفروق بينهما.

الفرق الثاني: والثالث: أن الشرك الأكبر محكوم على صاحبه بالكفر والخروج من الإسلام، ومحكوم عليه أيضاً بالخلود في النار، وتحريم دخول الجنة.

وأما الشرك الأصغر فهو بخلاف ذلك في الحكمين فإنه لا يحكم على صاحبه بالكفر ولا الخروج من الإسلام، ولا يخلد في النار إذا لم يفعل مكفراً آخر.

---

(١) الحق الواضح المبين / ٥٩ وانظر القول السديد / ٢٩ و ٥٢ والرياض الناضرة / ٢٥٦. وسؤال وجواب / ١١.

فهذه الأحكام الثلاثة وما يترتب عليها من التفريعات المبنية عليها لم يختلف فيها أهل العلم لأن نصوص الكتاب والسنة فيها كثيرة قاطعة صريحة)[1].

هل الشرك الأصغر تحت المشيئة مثل الكبائر أم هو مثل الشرك الأكبر:

تقدم معنا من النصوص ما يدل على أن ذنب الشرك لا يغفره الله إذا مات صاحبه وهو لم يتب منه.

قال تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾.

وهنا يرد سؤال هل الشرك الأصغر داخل في عموم هذه الآية بحيث أن فاعله إذا مات عليه يكون معاقباً بإدخاله نار جهنم أم أنه كبقية الذنوب التي دون الشرك.

هذه المسأله بحثها الشيخ ابن سعدى وذكر فيها كلاما نفيساً. حيث يقول: (من لحظ إلى عموم الآية، وأنه لم يخص شركاً دون شرك ادخل فيها الشرك الأصغر وقال إنه لا يغفر بل لابد أن يعذب صاحبه، لأن من لم يغفر له لابد أن يعاقب، ولكن القائلين بهذا لا يحكمـون بكفره ولا بخلوده في النار وأنه يعذب عذاباً أبدياً - لأن هذا مذهب الخوارج المنحرفين - وإنما يقولون يعذب عذاباً بقدر شركه ثم بعد ذلك مآله إلى الجنة.

وأما من قال إن الشرك الأصغر لا يدخل في الشرك المذكور في هذه الآية، وإنما هو تحت المشيئة فإنهم يحتجون بقوله تعالى: ﴿**إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار**﴾[2] فيقولون كما إنه بإجماع الأئمة أن الشرك الأصغر لا يدخل تحت هذه الآية التي حكم الله بها للمشرك بتحريم الجنة والخلود في النار فلا يدخل في تلك الآية وكذلك لا يدخـل في قولـه تعـالى: ﴿**لئن أشركت ليحبطن عملك**﴾[3]، لأن العمل هنا مفرد مضاف ويشمل الأعمال كلها، ولا يحبط الأعمال الصالحة كلها إلا الشرك الأكبر.

قالوا وإذا فارق الشرك الأكبر في تلك الأحكام السابقة بأنه لا يحكم عليه بالكفر والخروج من الإسلام ولا بالخلود في النار، فارقه في كونه مثل الذنوب التي دون الشرك وأنه تحت مشيئة الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه؛ ولأن مشاركته للكبائر في أحكامها الدنيوية والأخروية أكثر من مشاركته للشرك الأكبر.

---

(١) ضمن فتاوى بعثها السعدى إلى الشيخ عبدالرحمن بن عبدالعزيز الحصين، وهذه الفتاوي مؤرخة بتاريخ ١٣٧٤/٦/٢٩هـ / مخطوطه.

(٢) سورة المائدة / الآية ٧٢.

(٣) سورة الزمر / الآية ٦٥.

ويؤيد قولهم أن الموازنة واقعة بين الحسنات وبين السيئات التي هي دون الشرك الأكبر لأن الشرك الأكبر؛ لا موازنه بينه وبين غيره فإنه لا يبقى معه عمل ينفع.

وأما السيئات التي دونه فيقع بينها الموازنة من رجحت حسناته على سيئاته دخل الجنة بلا عذاب، ومن رجحت سيآته على حسناته، استحق دخول النار بقدر ذنوبه، ومن تساوت حسناته وسيئاته فهو من أهل الأعراف الذين مآلهم إلى دخول الجنة، ولكن الأولون قد يجيبون عن هذا بأنه قد يعذب صاحب الشرك الأصغر قبل الموازنة، إما في البرزخ، وإما قبل ذلك أو بعده في عرصات القيامة، فيقول الآخرون: وكذلك الكبائر قد يعذب صاحبها قبل الموازنة فتسقط الموازنة بها فلا يختص بذلك الشرك الأصغر، ومن تأمل الأدلة من الكتاب والسنة أمكنه أن يعرف الراجح من القولين)[1].

وتقدم عند كلامه عن الفروق بين الشرك الأكبر والأصغر قوله: «وأما الشرك الأصغر فهو بخلاف ذلك في الحكمين فإنه لا يحكم على صاحبه بالكفر ولا الخروج من الإسلام ولا يخلد في النار إذا لم يفعل مكفراً آخر».

وهذا يبين أنه يرى أن الشرك الأصغر مثل الكبائر داخل تحت مشيئة الله إن شاء عذب فاعله وان شاء عفا عنه.

ذكر جملة من أنواع الشرك وكلام السعدي عنها:

من أنواع الشرك دعاء غير الله:

قال رحمه الله: (ومن دعا غيره من نبي أو ملك أو ولي أو غيرهم أو استغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك كافر)[2].

ومنها الذبح لغير الله:

قال تعالى: ﴿**قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له**﴾[3].

وقال: ﴿**فصل لربك وانحر**﴾[4].

وقال صلى الله عليه وسلم: «لعن الله من ذبح لغير الله»[5].

---

(١) ضمن الفتاوي السابقة.

(٢) القول السديد / ٥٩.

(٣) سورة الأنعام / الآية ١٦٢.

(٤) سورة الكوثر / الآية ٢.

(٥) أخرجه مسلم ١٥٦٧/٣، وأحمد ١١٨/١، وغيرهما.

قال ابن سعدى بعد أن ذكر جملة من النصوص في ذلك: (وإذا ثبت أن الذبح لله من أجل العبادات وأكبر الطاعات، فالذبح لغير الله شرك أكبر مخرج عن دائرة الإسلام)[1].

ومنها الاستعاذة والاستغاثة بغير الله:

قال تعالى: ﴿**قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس**﴾.
وقال: ﴿**وأنّه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا**﴾[2].
وقال: ﴿**ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين، وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو**﴾[3].

قال ابن سعدى في بيان وجوب إخلاص هاتين العبادتين لله، وأن صرفهما لغير الله شرك «أمر الله بالاستعاذة به وحده من الشرور كلها، وبالاستغاثة به في كل شدة فهذه إخلاصها لله إيمان وتوحيد وصرفها لغير الله شرك وتنديد»[4].

كلامه في لبس الحلقة والخيط:

بين ابن سعدى أن الحكم في هذه المسألة يتوقف على معرفة الأسباب التي دعت إلى لبسها، إذ إنه باختلاف الأسباب قد تختلف الأحكام.
وبين أن الأسباب الشرعية الجائزة لا تخرج عن ثلاثة أمور:

(**أحدها**: أن لا يجعل منها سبباً إلا ما ثبت إنه سبب شرعاً وقدراً. **ثانيها**: أن لا يعتمد العبد عليها بل يعتمد على مسببها، ومقدرها مع قيامه بالمشروع منها وحرصه على النافع منها.

ثالثها: أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره لا خروج لها عنه)[5].

والذي يلبس الحلقة أو الخيط أو غيرهما لا يخرج عن أمرين إما أن يعتقد في الذي لبس إنه قادر على رفع الضر وكشف البلاء عنه، أو يعتقد أن هذا مجرد سبب وأن النافع

---

(١) القول السديد / ٥١، وانظر التفسير ٢/ ٥١٠.
(٢) سورة الجن / الآية ٦.
(٣) سورة يونس / الآيتان ١٠٦، ١٠٧.
(٤) القول السديد / ٥٨، وانظر التفسير ٣/ ٢٢٣.
(٥) القول السديد / ٤١، ٤٢.

الضار هو الله، وعلى هذا الضوء حكم ابن سعدى، فقال: (من لبس الحلقة والخيط أو نحوهما قاصداً بذلك رفع البلاء بعد نزوله أو دفعه قبل نزوله فقد أشرك، لأنه اعتقد أنها هي الدافعة الرافعة فهذا الشرك الأكبر. . .

وإن اعتقد أن الله هو الدافع الرافع وحده ولكن اعتقدها سببا يستدفع بها البلاء فقد جعل ما ليس سبباً شرعياً ولا قدرياً سبباً، وهذا محرم وكذب على الشرع والقدر)[1].

كلامه في زيارة القبور:

قسم ابن سعدى زيارة القبور إلى نوعين: نوع مشروع، ونوع ممنوع. قال: (أما المشروع فهو ما شرعه الشارع من زيارة القبور على الوجه الشرعي من غير شد رحل، يزورها المسلم متبعا للسنة فيدعو لأهلها عموماً ولأقاربه ومعارفه خصوصاً، فيكون محسناً إليهم بالدعاء لهم وطلب العفو والمغفرة والرحمة لهم، ومحسنا إلى نفسه بإتباع السنة وتذكرة الآخرة والاعتبار بها والاتعاظ.

وأما الممنوع فإنه نوعان:

أحدهما محرم ووسيلة للشرك كالتمسح بها والتوسل إلى الله بأهلها، والصلاة عندها، وكإسراجها والبناء عليها، والغلو فيها وفي أهلها إذا لم يبلغ رتبة العبادة.

والنوع الثاني شرك أكبر كدعاء أهل القبور والاستغاثة بهم وطلب الحوائج الدنيوية والأخروية منهم، فهذا شرك أكبر، وهو عين ما يفعله عباد الأصنام مع أصنامهم)[2].

وهذا آخر ما يتعلق بموضوع الشرك وأسبابه وأنواعه، وقد تبين شدة خطره وضرره.

فالواجب على المسلم أن يحذر منه أشد الحذر وأن يبذل وسعه في سبيل تحقيق التوحيد، ولا يكون ذلك إلا بالسلامة من الشرك بنوعيه والسلامة من البدع والخرفات.

قال ابن سعدى: (إن تحقيق التوحيد تهذيبه وتصفيته من الشرك الأكبر والأصغر ومن البدع القولية والاعتقادية، والبدع الفعلية العملية، ومن المعاصي وذلك بكمال الإخلاص لله في الأقوال والأفعال والإرادات، وبالسلامة من الشرك الأكبر المناقض لأصل التوحيد، ومن الشرك الأصغر المنافي لكماله وبالسلامة من البدع)[3].

---

(١) القول السديد / ٤٣.
(٢) القول السديد / ٨١، ٨٢.
(٣) القول السديد / ٢٥.

كلامه عن البدعة وأقسامها:

إن من شروط قبول العبادة أن تكون مطابقة لسنة رسول الله ﷺ ولا يجوز أن يتعبد الله بعبادة لم يشرعها رسول الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾[1].

وقال ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم**﴾[2].

وقد دلت النصوص على أن كل عبادة لم يشرعها الله ولا رسوله فهي بدعة محدثة في الدين مردودة على صاحبها غير مقبولة منه.

ففي الصحيحين من حديث عائشة قال ﷺ «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[3].

وفي رواية «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[4].

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله قال: كان رسول الله ﷺ: «إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم، ويقول «أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة»[5].

وهنا تظهر خطورة الإحداث في دين الله؛ لما يترتب على هذا العمل المحدث من عدم قبوله ورده على صاحبه ووصفه بأنه ضلالة وشر، وأنه في النار، قال تعالى: ﴿**قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا**﴾[6]، وقد بين ابن كثير في تفسيره أن هذه الآية «عامة في كل من عبدالله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول وهو مخطىء وعمله مردود»[7].

وقد اعتنى ابن سعدى بهذا الموضوع في مؤلفاته، وبين خطورة الابتداع في دين الله وأضرارٌ وأنه عناء ومشقة على صاحبه دون فائدة بل إنه يترتب عليه أضرارٌ كثيرة.

---

(١) سورة الحشر / الآية ٧.

(٢) سورة آل عمران / الآية ٣١.

(٣) تقدم تخريجه ص - ١٦٣.

(٤) تقدم تخريجه ص - ١٦٣.

(٥) مسلم ٥٩٢/٢.

(٦) سورة الكهف / الآيتان ١٠٣، ١٠٤.

(٧) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٠٧/٣.

قال عند قوله تعالى: ﴿**ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم**﴾[1]: «دل تقييد التطوع بالخير، أن من تطوع بالبدع التي لم يشرعها الله ولا رسوله، أنه لا يحصل له إلا العناء وليس بخير له بل قد يكون شراً له إن كان متعمداً عالماً بعدم مشروعية العمل»[2].

وهذا شامل لجميع البدع لا فرق بينها، فليس هناك بدعة حسنة وبدعة ضلالة بل جميع البدع ضلالة مردودة على أصحابها.

وقد أشار ابن سعدى إلى هذا الجانب الهام الذي غلط فيه كثير من الناس في مواضع متعددة.

فقال: «وكل من تعبد الله بعبادة لم يشرعها الله ولا رسوله فهو متعبد ببدعة»[3].

وقال في شرحه لحديث عائشة المتقدم: «وأما حديث عائشة... فإنه يدل على أن كل بدعة أحدثت في الدين ليس لها أصل في الكتاب ولا في السنة، سواء كانت من البدع القولية الكلامية كالتجهم والرفض والاعتزال وغيرها، أو من البدع العملية كالتعبد لله بعبادات لم يشرعها الله ولا رسوله، فإن ذلك كله مردود على أصحابه، وأهله مذمومون بحسب بدعهم وبعدها عن الدين فمن أخبر بغير ما أخبر الله به ورسوله، أو تعبد بشيء لم يأذن الله به ورسوله، ولم يشرعه فو مبتدع، ومن حرم المباحات أو تعبد بغير المشروعات فهو مبتدع»[4].

وكما تناول جانب البدعة وخطرها وأنها بجميع أنواعها ضلالة، فقد تناول جانب السنة وبين أن الدين كامل وأن الرسول ﷺ ما مات حتى أتم الله الدين وأكمله، وبين أن الرسول ﷺ ما ترك خيراً إلا دل أمته عليه ولا شراً إلا حذرهم منه.

فقال عند قوله تعالى: ﴿**يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته...**﴾[5]. «... فبلغ ﷺ أكمل تبليغ ودعا وأنذر وبشر ويسر وعلم الجهال الأميين حتى صاروا من العلماء الربانيين وبلغ بقوله وفعله وكتبه ورسله. فلم يبق خير إلا دل أمته عليه ولا شر إلا حذرها عنه.

---

(١) سورة البقرة / الآية ١٥٨.

(٢) التفسير ١/١٨٤.

(٣) التفسير ١/٢٣١.

(٤) بهجة قلوب الأبرار / ١٢، ١٣.

(٥) سورة المائدة / الآية ٦٧.

وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة، فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال المسلمين»[1].

وقال عند قوله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾[2]، «ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية في أحكام الدين وأصوله وفروعه.

فكل متكلف يزعم، أنه لابد للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة من علم الكلام وغيره فهو جاهل مبطل في دعواه، قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه، وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ولرسوله»[3].

والمقصود أن الدين كامل بأخباره وبأوامره ونواهيه وفرائضه وسننه وجميع أحكامه فما ترك الرسول الكريم من خير إلا دل أمته عليه ورغبها في العمل به، وما ترك من شر إلا ودل أمته عليه وحذرها منه، وإن من أعظم الشرور التي حذر الرسول الأمة منها الإحداث والابتداع في الدين.

تعريفه للبدعة:

ذكر ابن سعدى تعريفاً جامعاً للبدعة فقال: (البدعة هي الابتداع في الدين فإن الدين: هو ما جاء به النبي ﷺ في الكتاب والسنة وما دلت عليه أدلة الكتاب والسنة. فهو من الدين وما خالف ذلك فهو البدعة، هذا هو الضابط الجامع)[4].

وقال: «البدعه هي خلاف السنة»[5].

تقسيمه للبدعة

قسم ابن سعدى كغيره من العلماء البدعة إلى قسمين:-

بدعة قوليه، وبدعة عملية.

فقال: «تنقسم البدعة بحسب حالها إلى قسمين: بدع اعتقاد ويقال لها البدع القولية وميزانها قوله ﷺ في الحديث الذي في السنن «ستفترق هذه الأمة على ثلاث

---

(١) التفسير ٢/٣٢٠.

(٢) سورة المائدة / الآية ٣.

(٣) التفسير ٢/٢٤٢، ٢٤٣.

(٤) الفتاوي السعدية / ٧٣.

(٥) سؤال وجواب / ١٧.

وسبعين فرقه كلها في النار إلا واحدة قالوا من هي يا رسول الله قال: من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي»[1].

فأهل السنة المحضة السالمون من البدع الذين تمسكوا بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه في الأصول كلها أصول التوحيد والرسالة والقدر ومسائل الإيمان وغيرها، وغيرهم من خوارج ومعتزلة وجهمية وقدرية ورافضه ومرجئه ومن تفرع عنهم كلهم من أهل البدع الاعتقادية وأحكامهم متفاوته بحسب بعدهم عن أصول الدين وقربهم، وبحسب عقائدهم أو تأويلهم، وبحسب سلامة أهل السنة من شرهم في الأقوال والأفعال وعدمه وتفصيل هذه الجملة يطول جداً.

والنوع الثاني: بدعة عملية وهو: أن يشرع في الدين عبادة لم يشرعها الله ولا رسوله وكل عبادة لم يأمر بها الشارع أمر إيجاب أو استحباب فإنها من البدع العملية وهي داخله في قوله ﷺ «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[2].

ولهذا كان من أصول الأئمة الإمام أحمد وغيره: أن الأصل في العبادات الحظر والمنع فلا يشرع منها إلا ما شرعه الله ورسوله، والأصل في المعاملات والعادات الإباحة فلا يحرم منها إلا ما حرمه الله ورسوله.

ولهذا نقول من قصور العلم: جعل بعض العادات التي ليست عبادات بدعاً لا تجوز مع أن الأمر بالعكس، فإن الذي يحكم بالمنع منها وتحريمها هو المبتدع فلا يحرم من العادات إلا ما حرمه الله ورسوله بل العادات تنقسم إلى أقسام ما أعان منها على الخير والطاعة فهو من القرب، وما أعان على الاثم والعدوان فهو من المحرمات. وما ليس فيه هذا ولا هذا فهو من المباحات)[3].

وهذا النوع الأخير قسمه ابن سعدى إلى قسمين:

فقال: (البدعة نوعان:

نوع يتعبد لله بعبادة لم يشرعها أصلاً.

ونوع يتعبد له بعباده شرعها على صفة مخصوصة فتفعل على غير تلك الصفة)[4].

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٦/٥. والمروزي في السنة/١٨. والآجرى في الشريعة ١٦، ١٧ واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/١٠٠، وانظر في الكلام عن هذه الحديث مقال الشيخ عبدالكريم مراد بعنوان: حديث تفترق الأمة. في مجلة الجامعة الإسلامية، عدد/٥٩ ص٤٧.

(٢) تقدم تخريجه ص ـ ١٦٤.

(٣) الفتاوى السعدية / ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥. وانظر سؤال وجواب / ١٧.

(٤) التفسير ١/١٨٤.

هذا وإن البدع بجميع أنواعها مردودة لا يقبل منها شيء، وكلها قبيحه ليس فيها حسن، وكلها ضلالة ليس فيها هدى، وكلها أوزار ليس فيها أجر وكلها باطلة ليس فيها حق.

وما على المسلم إلا أن يتمسك بسنة الرسول ﷺ ويعض عليها بنواجذه، ففي ذلك السلامة من البدع، والبعد من الشرور، قال تعالى: ﴿**وإن تطيعوه تهتدوا**﴾[1].

وقال: ﴿**يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا، وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا**﴾[2].

ويمكن أن نصل في نهاية هذا المبحث إلى خلاصة جامعة:

وهي أن توحيد الألوهية أعظم المطالب على الإطلاق فمن أجل تحقيقه خلق الله الخلق، وأنزل الكتب وأرسل الرسل، ومن أجل تحقيقه حارب الرسل أقوامهم وعادوهم.

ولا يتحقق هذا التوحيد إلا بأمور:

أولا : السلامة من الشرك وذلك بتحقيق العبادة لله وحده بجميع أنواعها.

ثانيا : السلامة من البدع وهذا يتحقق بمتابعة الرسول ﷺ.

ثالثا : **السلامة من الذنوب والمعاصي بالبعد عنها، وعدمِ اقترافها، وبالتوبة منها عند اقترافها. ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾**(٣).

---

(١) سورة النور / الآية ٥٤.

(٢) سورة الأحزاب / الآيتان ٦٦ ، ٦٧.

(٣) سورة الكهف / الآية ١١٠.

الفَصل الثاني

جهُوده في توضيح الإيمَان بالنبوَات

إن الرابطة بين هذا الفصل وبين الذي قبله وثيقة جداً، إذ أن الفصل الأول في الحديث عن معرفة الله ووجوب إفراده بالعبادة والحذر من الشرك والبدع.

وهذا لا يكون ولا يحصل إلا بإرسال هداة للناس يبينون لهم هذا الأمر العظيم ويوضحونه لهم ويرشدونهم إليه.

(ومن هنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدى الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضى الله البته إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال.

وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه والعين إلى نورها والروح إلى حياتها.

فأي ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديهُ وما جاء به طرفة عين فسد قلبك وصار كالحوت إذا فارق الماء ووضع في المقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يحس بهذا إلا قلب حي، «وما لجرح بميت إيلام»[1]) [2].

وهذا يبين لنا أهمية الإيمان بالأنبياء، وشدة الحاجة إليهم إذ أن السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة لا يحصل إلا عن طريقهم وبإرشادهم وهدايتهم.

---

(١) عجز بيت للمتنبي وأوله: من يهن يسهل الهوان عليه. من قصيدة يمدح بها أبا الحسين علي بن أحمد المرى. ديوان المتنبي/١٦٤ ط دار بيرت.

(٢) زاد المعاد لابن القيم ١/٦٩.

لذا فإن ورثة الأنبياء، وهم العلماء الصالحون المصلحون السائرون على منهج الأنبياء، قد اهتموا غاية الاهتمام ببيان هذا النوع من الإيمان وبينوا أهميته وشدة الحاجة إليه.

وممن سار في هذا الركب وسلك هذا المنهج الصالح الشيخ ابن سعدى فقد اهتم رحمه الله ببيان هذا النوع اهتماماً عظيماً وتناوله من جميع جوانبه في أكثر مؤلفاته.

فتناول الإيمان بنبوة جميع الأنبياء جملة وتفصيلاً وخص بالذكر خاتمهم وسيدهم محمد ﷺ.

وتناول كل ما يتعلق بالإيمان بالنبوات من جميع الجوانب على ما سيأتي بيانه في هذا الفصل.

كلامه في أهمية الإيمان بالنبوات.

إن من نظر وتأمل في الفوائد التي تحصل لمن آمن بالنبوات جميعها على الوجه المطلوب، عرف أهمية ذلك وتبين له شدة الحاجة إليه.

وقد عدد ابن سعدى جملة من الفوائد تحصل بسبب معرفة الأنبياء والإيمان بهم.

فبعد أن بين جملة من العلوم التي اشتمل عليه القرآن الكريم. قال: (ومنها ـ أي هذه العلوم ـ ذكر الأنبياء وما أرسلوا به وما جرى لهم مع أممهم وفي ذلك فوائد:

- منها أن من تمام الإيمان بهم معرفتهم بصفاتهم وسيرهم وأحوالهم وكلما كان المؤمن بذلك أعرف كان أعظم إيمانا بهم ومحبة لهم وتعظيماً لهم وتعزيراً وتوقيراً.
- ومنها: أن من بعض حقوقهم علينا خصوصا النبي محمد ﷺ معرفتهم ومحبتهم محبة صادقة ولا سبيل لذلك إلا بمعرفة أحوالهم.
- ومنها: أن معرفة الأنبياء موجبه لشكر الله تعالى على ما من به على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً منهم يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة بعد أن كانوا في ضلال مبين.
- ومنها: أن الرسل هم المربون للمؤمنين الذي ما نال المؤمنون مثقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر إلا على أيديهم وبسببهم، فقبيح بالمؤمن أن يجهل حاله مربيه ومزكيه ومعلمه، وإذا كان من المستنكر جهل الإنسان بحال أبويه ومباعدته لذلك فكيف بحالة الرسول الذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبوهم الحقيقي الذي حقه مقدم على سائر الحقوق بعد حق الله تعالى.
- ومنها: أن في معرفة ما جرى لهم وما جرى عليهم تحصل للمؤمنين الأسوة والقدوة ويخف عنهم كثير من المقلقات والمزعجات؛ لأنها مهما بلغت من الثقل والشدة فلا تصل

إلى بعض ما جرى على الأنبياء. قال تعالى: **﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾**[1].

ومن أعظم الاقتداء بهم، الاقتداء بتعليماتهم وكيفية إلقاء العلم على حسب مراتب الخلق والصبر على التعليم والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن؛ وبهذا وأمثاله كان العلماء ورثة الأنبياء.

ومن فوائد معرفة الرسول ﷺ معرفة الآيات القرآنية المنزله عليه، وفهم المعنى والمراد منها موقوف على معرفة أحوال الرسول وسيرته مع قومه وأصحابه وغيرهم من الناس، فإن الأزمنة والأمكنه والأشخاص تختلف اختلافاً كثيراً، فلو أراد الإنسان أن يصرف همه لمعرفة معاني القرآن من دون معرفة منه لذلك لحصل من الغلط على الله وعلى رسوله وعلى مراد الله من كلامه شيء كثير، وهذا إنما يعرفه من عرف كيف كثر حمل مراد الله ورسوله على العرف الحادث فوقع الخلل الكثير.

ولغير ذلك من الفوائد المفيدة والنتائج السديدة)[2].

وذكر هذه الجملة من الفوائد الحاصلة لمن عرف الرسل وآمن بهم يشعر بأهمية الإيمان بهم وشدة الحاجة إليهم.

كلامه في الإيمان بالنبوات على وجه الإجمال:

قبل الشروع في تفاصيل موضوع النبوات أرى من المناسب أن أذكر كلام الشيخ ابن سعدى عن الإيمان بالأنبياء على وجه الإجمال.

قال ابن سعدى في بيان هذا الأصل وما ينبغي للمسلم أن يقوم به نحوه إجمالاً:

(وهذا الأصل مبناهُ على أن يعترف ويعتقد بأن جميع الأنبياء قد اختصهم الله بوحيه وإرساله، وجعلهم وسائط بينه وبين خلقه في تبليغ شرعه ودينه وأن الله أيدهم بالبراهين الدالة على صدقهم وصحة ما جاءوا به، وأنهم أكمل الخلق علماً وعملاً، وأصدقهم وأبرهم، وأكملهم أخلاقا وأعمالا، وأن الله خصهم بخصائص وفضلهم بفضائل، لا يلحقهم فيها أحد.

وأن الله برأهم من كل خلق دنيء ورذيل، وأنهم معصومون في كل ما يبلغونه عن الله، وأنه لا يستقرفي خبرهم وتبليغهم إلا الحق والصواب. وأنه يجب الإيمان بهم وبكل ما أتوه من الله ومحبتهم وتعظيمهم)[3].

---

(١) سورة الأحزاب / الآية ٢١.

(٢) التفسير ٢٦/١ ، ٢٧ ، وانظر الخلاصة / ١٠١.

(٣) الفتاوي السعدية / ١٤. وانظر سؤال وجواب / ١٣، ١٤، ١٥

ثم أشار إلى أهمية الإيمان بهم وأن الإيمان لا يتم إلا بالإيمان بهم فقال (. . . فلا يتم الإيمان إلا بذلك، وكل من كان أعظم علماً بذلك وتصديقاً واعترافاً وعملاً، كان أكمل إيماناً)[1].

وبين أن الإيمان بالأنبياء على هذه الصفة يُعد من الإيمان بالغيب فقال: (ومن الإيمان بالغيب الإيمان بجميع رسل الله الذين أرسلهم الله على وجه الإجمال والتفصيل لأشخاصهم ولدعواتهم وشرعهم. . . إلى أن قال: فتمام الإيمان بالغيب أن يؤمن العبد بجميع رسل الله، ويعرف من صفاتهم ومن دعوتهم ما يحقق به هذا الأمر)[2].

كلامه في الفرق بين النبوة والرسالة:

النبي لغة: مشتق من النبأ وهو الخبر، وقيل النبوة مشتقة من النبوة وهي ما ارتفع من الأرض[3].

والرسول لغة: مشتق من رسل التي تدل على الانبعاث والامتداد فيقال أرسلت فلاناً في رسالة أي بعثته فهو مرسل ورسول ويجمع على رسُل ورسْل[4].

هذا من حيث اللغة أما تعريف النبي وتعريف الرسول من حيث الاصطلاح فللعلماء فيهما أقوال عديدة:

فقيل: النبي من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، والرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه[5].

وهذا التعريف عليه مآخذ إذ فيه إشارة إلى أن النبي غير مأمور بالإبلاغ، وهذا في كتمان للعلم.

والله يقول: **﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾**[6].

---

(١) الفتاوي السعدية / ١٥.

(٢) المواهب الربانية / ٦٥.

(٣) انظر الصحاح للجوهري ١/٧٤، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ٥/٣٨٥ وبصائر ذوى التمييز للفيروز آبادي ٥/١٤.

(٤) انظر الصحاح للجوهري ٤/١٧٠٨، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢/٣٩٢، وبصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي ٢/٩٨.

(٥) لوامع الأنوار البهية ١/٤٩، وشرح العقيدة الطحاوية / ١٠٧.

(٦) سورة آل عمران / الآية ١٨٧.

إضافة إلى هذا فهو يتعارض مع نصوص كثيرة تفيد أن النبي مأمور بالإبلاغ منها قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء﴾[1] وقوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته. . .﴾[2].

وقول الرسول ﷺ: «عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي ليس معه أحد. . . .»[3] وهؤلاء إنما حصل لهم اتباع بسبب إبلاغهم وحي الله إلى الناس.

إلى غير ذلك من النصوص الد ة على أنه النبي مأمور بالإبلاغ.

وهذا التعريف هو الشائع عند علماء[4]. وعليه يكون بين الرسول والنبي عموم وخصوص مطلق. فالنبوة داخلة في الر الة، والرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا، فالأنبياء أعم والنبوة نفسها جزء من الرسالة، فالرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف النبوة فإنها لا تتناول الرسالة[5].

وقيل: الرسول من أوحي إليه بشرع جديد، والنبي هو المبعوث لتقرير شرع من قبله[6].

وهذا أيضاً يرد عليه اعتراض، وهو أن النبي ﷺ مكث أعواماً بعد النبوة لم يؤمر فيها بالتبليغ، حتى نزلت عليه سورة المدثر. واصبح رسولا فأخذ يبلغ[7].

ومن خلال تتبعي لمؤلفات السعدي، لم أره تعرض لهذه المسألة إلا في موضع واحد، مال فيه إلى القول الأول.

فقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولا نبيا﴾[8].

(. . . . فالرسالة تقتضي تبليغ كلام المرسل، وتبليغ جميع ما جاء به من الشرع

---

(١) سورة الأعراف / الآية ٩٤.

(٢) سورة الحج / الآية ٥٢.

(٣) أخرجه البخاري ٧/١٩٩ ومسلم ١/١٩٩ عن ابن عباس، واللفظ لمسلم.

(٤) لوامع الأنوار البهية ١/٤٩، وشرح العقيدة الطحاوية / ١٠٧، معارج القبول للحكمي ٢/٩٧.

(٥) الإيمان لابن تيمية / ٦،٧.

(٦) تفسير الألوسي ١٧/١٥٧، والكشاف للزمخشري ٢/٤١٤.

(٧) تفسير القرآن العظيم ٤/٤٤٠.

(٨) سورة مريم / الآية ٥٦.

دقة وجلة، والنبوة تقتضي إيحاء الله إليه وتخصيصه بإنزال الوحي إليه، فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق)[1].

وقد تقدم معنا ما يرد على هذا التعريف من مآخذ واعتراضات؛ لذا فإني أرى أن أسلم تعريف للنبوة والرسالة.

هو ما ذكره شيخ الإسلام في كتابه النبوات حيث قال في بيان الفرق بين النبوة والرسالة: (والمقصود هنا الكلام على النبوة فالنبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبيء بما أنبأ الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول)[2]. والله أعلم.

كلامه عن التفاضل بين الأنبياء وأن بعضهم أفضل من بعض:

لقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على أن الأنبياء متفاضلون، وأن بعضهم أفضل من بعض.

قال الله تعالى: ﴿**تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس**﴾[3].

وقال: ﴿**ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا**﴾[4]. فالآية الأولى تدل على أن هناك مفاضلة بين الرسل وأن بعض الرسل أفضل من بعض، والآية الثانية تدل أيضا على أن هناك مفاضلة بين الأنبياء وأن بعضهم أفضل من بعض.

وقد أجمعت الأمة على أن الرسل أفضل من الأنبياء؛ لأنه كما تقدم الرسول أشمل وأعم من النبي إذ كل رسول نبي وليس كل نبي رسول.

وهذه المسألة «مسألة المفاضلة بين الرسل» تناولها ابن سعدي في مؤلفاته وبين أن هناك مفاضلة بين الرسل والأنبياء، كما بين من هو أفضلهم ومنهم أولو العزم من الرسل.

فقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض**﴾[5]. (يخبر الباري أنه فاوت بين الرسل في الفضائل الجليلة والتخصيصات الجميلة بحسب ما من

(١) التفسير ٥/١١٦.

(٢) النبوات لابن تيمية / ٢٥٥.

(٣) سورة البقرة / الآية ٢٥٣.

(٤) سورة الإسراء / الآية ٥٥.

(٥) سورة البقرة / الآية ٢٥٣.

الله به عليهم، وقاموا به من الإيمان الكامل واليقين الراسخ والأخلاق العالية والآداب السامية والدعوة والتعليم والنفع العميم. فمنهم من اتخذه خليلاً ومنهم من رفعه فوق الخلائق درجات. . .)[1].

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وربك أعلم بمن في السموات والأرض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض**﴾[2].

قال: (فيعطي كلاً منهم ما يستحقه وتقتضيه حكمته، ويفضل بعضهم على بعض في جميع الخصال الحسية والمعنوية، كما فضل بعض النبيين المشتركين بوحيه على بعض، بالفضائل والخصائص الراجعة إلى ما من به عليهم، من الأوصاف الممدوحة، والأخلاق المرضية، والأعمال الصالحة وكثرة الأتباع ونزول الكتب على بعضهم المشتملة على الأحكام الشرعية والعقائد المرضية)[3].

وبين رحمة الله أن الرسل الذين قصهم الله في كتابه وذكر شيئا من خبرهم أفضل ممن لم يقصص، كما قال تعالى:

﴿**ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك**. . .﴾[4]. قال ابن سعدى: (. . فالرسل الذين قصهم الله في كتابه، أفضل ممن لم يقصص علينا نبأهم بلا شك)[5].

أولو العزم من الرسل:

وكما تناول ابن سعدى مسألة المفاضلة بين الرسل والأنبياء فقد تناول وبين أولى العزم منهم.

قال رحمه الله (أفضل أنبياء الله المرسلون منهم، وأفضل المرسلين أولوا العزم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ خاتم النبيين وإمام المتقين وسيد ولد آدم)[6].

وهؤلاء الخمسة أولو العزم من الرسل خصهم الله بالذكر مجتمعين في بعض الآيات.

---

(١) التفسير ١/٣١٠.
(٢) سورة الإسراء / الآية ٥٥.
(٣) التفسير ٤/٢٨٩ ، ٢٩٠.
(٤) سورة النساء / الآية ١٦٤.
(٥) التفسير ٢/٤٣٠.
(٦) طريق الوصول / ٢٩٩، وانظر التفسير ٦/٢٠١، و ٦/٥٩٨.

فقال سبحانه: ﴿**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب**﴾(1).

وقال: ﴿**وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، وأخذنا منهم ميثاقا غليظا**﴾(2).

وأمر رسوله أن يصبر ويتحمل من أذية قومه له، كما صبر إخوانه، أولو العزم من الرسل فقال: ﴿**فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم..**﴾(3).

قال ابن سعدى: (أمر تعالى رسوله، أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له، وأن لا يزال داعياً لهم إلى الله، وأن يقتدى بصبر أولي العزم من المرسلين سادات الخلق أولي العزائم والهمم العالية الذين عظم صبرهم وتم يقينهم. فهم أحق الخلق بالأسوة بهم والقفو لآثارهم والاهتداء بمنارهم)(4).

كلامه في بعض صفات أولى العزم من الرسل:

هؤلاء الخمسة أولو العزم من الرسل اختص الله كل واحد منهم ببعض الخصال العظيمة والمناقب الحميدة، امتازوا بها عن غيرهم من الأنبياء.

وقد ذكر ابن سعدى بعض ما امتاز به أفراد هؤلاء الرسل من الخصال فذكر أن نوحاً امتاز بأنه أول رسول أرسله الله، وأنه الأب الثاني للبشرية وجميع الأنبياء الذين جاءوا من بعده كلهم من ذريته(5).

وذكر أن إبراهيم عليه السلام امتاز بأنه خليل الرحمن، وأن الله أكرمه بالكرامات المتنوعة فجعل في ذريته النبوة والكتاب وأخرج من صلبه أمتين هما أفضل الأمم العرب وبنو إسرائيل، واختاره الله لبناء بيته الذي هو أشرف بيت وأول بيت وضع للناس، ووهب له الأولاد بعد الكبر واليأس وملأ بذكره ما بين الخافقين، وامتلأت قلوب الخلق من محبته وألسنتهم من الثناء عليه(6).

---

(1) سورة الشورى / الآية ١٣.
(2) سورة الأحزاب / الآية ٧.
(3) سورة الأحقاف / الآية ٣٥.
(4) التفسير ٧/٥٩، ٦٠.
(5) انظر الخلاصة / ١٠٩ والتفسير ٥/١٢٠.
(6) انظر الخلاصة / ١٢٢ والتفسير ٧/٣٠٢.

وذكر أن موسى عليه السلام امتاز بأنه كليم الله، وأنه أعظم أنبياء بني إسرائيل وأن شريعته وكتابه التوراة مرجع أنبياء بني إسرائيل وعلمائهم، وأن أتباعه أكثر أتباع الأنبياء غير أمة محمد ﷺ، وأن له من القوة العظيمة في إقامة دين الله والدعوة إليه والغيرة العظيمة ما ليس لغيره[1].

وذكر أن عيسى عليه السلام امتاز بأن الله سبحانه آتاه من البينات الدالة على صدقه، وأنه رسول الله حقا، فجعله يبرىء الأكمة والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله، وكلم الناس في المهد صبياً، وأيده بروح القدس[2].

وذكر أن محمداً ﷺ أفضل الرسل على الإطلاق، وأنه خاتم النبيين، وإمام المتقين وسيد ولد آدم، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا، وخطيبهم إذا وفدوا، صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون وصاحب لواء الحمد والحوض المورود، وشفيع الخلائق يوم القيامة، وصاحب الوسيلة والفضيلة الذي بعثه بأفضل كتبه وشرع له أفضل شرائع دينه وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن ما فرقه فيمن قبلهم، وهم آخر الأمم خلقاً وأولهم بعثاً[3].

كلامه في أن الرسل أفضل الخلق وأكملهم:

اقتضت حكمة الله تعالى أن لا يصطفي لإبلاغ دينه، ولتحمل رسالته إلا صفوة الخلق وأفضلهم.

إذ أن كمال الرسل واختصاصهم بالفضل يوجب على الأمم تصديقهم والانقياد لهم، والسير على نهجهم وهذا من رحمه الله بعباده ولطفه بهم.

قال تعالى: **﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير﴾**[4].

وقال تعالى: **﴿إن الله اصطفي آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم﴾**[5].

قال ابن سعدى: (فالرسل لا يكونون إلا صفوة الخلق على الإطلاق، والذي اختارهم واجتباهم ليس جاهلاً بحقائق الأشياء فاختياره إياهم عن علم منه أنهم أهل

---

(١) انظر الخلاصة / ١٢٩، والتفسير ٧/٦١٤.

(٢) التفسير ١/٣١٠.

(٣) طريق الوصول / ٢٩٩.

(٤) سورة الحج / الآية ٧٥.

(٥) سورة آل عمران / الآيتان ٣٣، ٣٤.

لذلك، وأن الوحي يصلح فيهم كما قال تعالى: ﴿**الله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾[1])[2].

لذلك فإن الأنبياء لايدعون إلا للخير والإصلاح ولا ينهون الناس إلا عن الشر والفساد.

قال ابن سعدى: (الأنبياء جميعهم بعثوا بالإصلاح والصلاح، ونهوا عن الشرور والفساد، فكل صلاح وإصلاح ديني ودنيوي فهو من دين الأنبياء وخصوصا إمامهم وخاتمهم فإنه أبدى وأعاد في هذا الأصل ووضح للخلق الأصول النافعة التي يجرون عليها في الأمور العادية والدنيوية كما وضع لهم الأصول في الأمور الدينية)[3].

ولا ريب أن معرفة هذه الصفات التي توفرت في الأنبياء وفي دعوتهم، دافع عظيم لمن سمع بها وعرفها وحافز له لأن يتأسى بهم ويترسم خطاهم، وهذه هي الفائدة والثمرة من معرفة الأنبياء وأحوالهم.

قال ابن سعدى: (لما أخبر الله عن كمال الرسل وما أعطاهم من الفضل والخصائص وأن دينهم واحد ودعوتهم إلى الخير واحدة كان موجب ذلك ومقتضاه أن تجتمع الأمم على تصديقهم والانقياد لهم لما آتاهم من البينات التي على مثلها يؤمن البشر، لكن أكثرهم انحرفوا عن الصراط المستقيم، ووقع الاختلاف بين الأمم فمنهم من آمن ومنهم من كفر)[4].

بيانه أن الكفر بنبي واحد كفر بجميع الأنبياء:

ولما كان الأنبياء بهذه المثابة وعلى هذه الصفات وغايتهم واحدة وهدفهم واحد وجب على كل مسلم أن يؤمن بجميع الأنبياء دون تفريق بينهم، وصار الكفر بنبي واحد كفر بجميع الأنبياء.

قال ابن سعدى: (الواجب في الإيمان بالأنبياء، أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول، ثم ما عرف منهم بالتفصيل وجب الإيمان به مفصلاً)[5].

وبين أن الكفر بنبي واحد كفر بجميع الأنبياء فقال: (من عادى أحداً من رسله فقد عادى الله وعادى جميع رسله كما قال تعالى: ﴿**من كان عدواً لله وملائكته ورسله**

(١) سورة الأنعام / الآية ١٢٤.

(٢) التفسير ٥/٣٢٨.

(٣) الخلاصة / ١٢٨.

(٤) التفسير ١/٣١١.

(٥) التفسير ١/١٤٦.

وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين﴾[1] وكذلك من كفر برسول فقد كفر بجميع الرسل بل بالرسول الذي يزعم أنه مؤمن به)[2].

وقال: (جميع الأنبياء دعوتهم واحدة، من كذب واحداً منهم فقد كذب الجميع؛ لأنه يكذب الحق الذي جاء به كل واحد منهم)[3].

وهذا الذي ذكره ابن سعدى دلت عليه نصوص كثيرة:

منها قوله تعالى:

﴿إن الـذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا﴾[4].

وقوله: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾[5].

وقوله: ﴿كذبت عاد المرسلين﴾[6].

وقوله: ﴿كذبت ثمود المرسلين﴾[7].

وغيرها من الآيات، فمن كذب برسالة أحد الرسل أو نفاها، فقد نفى أعظم منةٍ امتنَ اللهُ بها على عباده، إذ أن العبادَ لا طريق لهم إلى نيل السعادةِ والكرامةِ والفلاحِ إلا عن طريقِ الرسلِ، ويكون بذلك قد كذب بالرسولِ الذي يزعم أنه آمن به وبغيره من الرسل.

كلامه في خلاصة دعوة الرسل:

تقدم معنا في توحيد الألوهية أن الله سبحانه ما خلق الخلق إلا لعبادته وما أوجدهم إلا لتحقيق توحيده وطاعته، كما قال تعالى:

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[8].

---

(1) سورة البقرة / الآية ٩٨.
(2) التفسير ٢/٢٠٨.
(3) الخلاصة / ١١٥.
(4) سورة النساء / الآيتان ١٥٠، ١٥١.
(5) سورة الشعراء / الآية ١٠٥.
(6) سورة الشعراء / الآية ١٢٣.
(7) سورة الشعراء / الآية ١٤١.
(8) سورة الذاريات / الآية ٥٦.

ولتحقيق هذا الأمر العظيم جعل الله بينه وبين خلقه وسائط في تبليغ الرسالة فاصطفى لهذا الأمر العظيم أفضل الملائكة وأفضل الرسل، وأمرهم بتبليغ وحيه وإيصاله إلى الناس.

فقاموا بذلك أتم قيام وأكمله، وعصمهم الله من الخطأ في تبليغ هذا الوحي. فالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الخطأ فيما يبلغون عن الله تعالى؛ لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك[1].

ومقصود الرسالة الأعظم وأهم أمر بعثوا من أجله، هو الدعوة إلى عبادة الله وحده، وإفراده بجميع أنواع العبادة، والتحذير من الشرك والبدع وجميع الأنبياء متفقون على هذا المبدأ، وسائرون على هذا المنهج، فما من نبي أرسله الله إلا وكان أول ما يدعو قومه إليه عبادة الله وحده وعدم الإشراك به.

قال تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾[2].
وقال: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾[3].

وقد اهتم ابن سعدى ببيان هذه المسألة أعظم اهتمام إذ هي أفضل وسيلة إلى أعظم الغايات.

قال رحمه الله: (جميع الرسل من نوح إلى محمد ﷺ. متفقون على الدعوة إلى التوحيد الخالص والنهي عن الشرك فنوح وغيره أول ما يقولون لقومهم: ﴿**اعبدوا الله مالكم من إله غيره**﴾.
ويكررون هذا الأصل بطرق كثيرة)[4].

وقال: (زبدة دعوة الرسل كلهم ومدارها على قوله: ﴿**أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا**﴾ أي على معرفة الله وتوحيده في صفات العظمة التي هي الألوهية وعبادته وحده لا شريك له فهي التي أنزل بها كتبه وأرسل رسله، وجعل الشرائع كلها تدعوا إليها وتحث وتجاهد من حاربها وقام بضدها)[5].

---

(١) التفسير لابن سعدى ٦/٤٢٤.
(٢) سورة النحل / الآية ٣٦.
(٣) سورة الأنبياء / الآية ٢٥.
(٤) الخلاصة / ١٠٩.
(٥) التفسير ٤/١٨٣.

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾.

(فكل الرسل الذين من قبلك مع كتبهم زبدة رسالتهم وأصلها الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له وبيان أنه الإله الحق المعبود وأن عبادة ما سواه باطلة)[1].

وتناول رحمه الله في تفسيره للقرآن وفي خلاصة تفسير القرآن دعوة كل نبي، وبين أنها كلها تدور حول تحقيق هذا الأصل العظيم.

فبين أن دعوة نوح[2] وإبراهيم[3]، وموسى[4]، وهود[5]، وصالح[6]، وشعيب[7]، ولوط[8] وخاتمهم محمد[9] ﷺ وغيرهم من الأنبياء، تدور حول الأمر بعبادة الله والتحذير من الشرك.

وبين رحمه الله أن ضد التوحيد وهو الشرك محبط للعمل في نبوة جميع الأنبياء.

فقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك، ولتكونن من الخاسرين**﴾[10].

قال: (ففي نبوة جميع الأنبياء أن الشرك محبط لجميع الأعمال كما قال الله تعالى: في سورة الأنعام لما عد كثيراً من أنبيائه ورسله، قال عنهم: ﴿**ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون**﴾[11])[12].

وقال عند تفسير هذه الآية: (فإذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار لو أشركوا وحاشاهم لحبطت أعمالهم، فغيرهم من باب أولى)[13].

---

(١) التفسير ٥/٢٢٣.
(٢) التفسير ٣/٤١٧ والخلاصة / ١٠٧.
(٣) الخلاصة / ١١٦.
(٤) الخلاصة / ١٢٩.
(٥) التفسير ٣/٤٢٩، والخلاصة / ١١٢.
(٦) التفسير ٣/٤٣٦، والخلاصة / ١١٤.
(٧) التفسير ٣/٤٤٧، والخلاصة / ١٢٦.
(٨) الخلاصة / ١٢٤.
(٩) الخلاصة / ١٦٤.
(١٠) سورة الزمر / الآية ٦٥.
(١١) سورة الأنعام / الآية ٨٨.
(١٢) التفسير ٦/٤٩١.
(١٣) التفسير ٢/٤٣٠.

هذا وقد تعرضنا لتفاصيل هذا الموضوع عند الحديث عن توحيد الألوهية وإنما هذه إشارة ناسب المقام ذكرها عند الحديث عن النبوات.

موقف طوائف الضلال من الأنبياء:

يتمثل قول جميع طوائف الضلال في الأنبياء عليهم السلام في طرفين كلاهما ذميم، الغلو، والجفاء، أو الإفراط والتفريط.

ويتمثل جانب الغلو من الأمم السابقة في النصارى، وجانب الجفاء يتمثل في اليهود.

ومن أوضح الأمثلة المبينة لذلك: «موقف هاتين الطائفتين من عيسى عليه السلام».

فالنصارى غلو فيه عليه السلام فجعلوه تارة إلهاً وتارة ابن الإله، وثالث ثلاثة، وأما اليهود فقد جفوا في حقه عليه السلام فقالوا ـ وقبح الله قولهم ـ إنه ابن بغي.

قال ابن سعدي: (اختلفت فرق الضلال في عيسى عليه السلام من اليهود والنصارى وغيرهم، فمن غال فيه وجاف.

فمنهم من قال إنه الله، ومنهم من قال إنه ابن الله ومنهم من قال إنه ثالث ثلاثة.

ومنهم من لم يجعله رسولاً بل رماه بأنه ولد بغي كاليهود. وكل هؤلاء مستحقون للوعيد الشديد)[1].

وموقف أهل السنة هو التوسط بين جانبي الغلو والجفاء فيقولون إن عيسى رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وهكذا موقفهم مع جميع أنبياء الله ورسله يؤمنون بهم جملة، ويؤمن بهم تفصيلاً وفقا لما ورد في الكتاب والسنة.

كلامه في مدعي النبوة:

قال الله تعالى: ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين، وكان الله بكل شيء عليما**﴾[2].

هذه الآية دليل على أنه لا نبي بعد محمد ﷺ، فلا رسول بالطريق الأولى والأحرى؛ لأنه كما تقدم مقام الرسالة أخص من مقام النبوة فإن كل رسول نبي ولا عكس.

وقد ورد في السنة أحاديث كثيرة تدل على أن الرسالات ختمت برسالة محمد ﷺ فلا نبي بعده ولا رسول.

---

(١) التفسير ٥/١٠٦.

(٢) سورة الأحزاب / الآية ٤٤.

قال ﷺ: (مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فكان من دخلها فنظر إليها قال ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة فأنا موضع اللبنة ختم بي الأنبياء عليهم السلام)[1].

وقال ﷺ: (فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون)[2].

وقال ﷺ: (إنّ لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله تعالى بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي)[3].

وغيرها من الأحاديث، قال ابن كثير في تفسيره بعد أن ذكر جملة من هذه الأحاديث الدالة على أن محمدا ﷺ خاتم النبيين ولا نبي بعده.

قال: (والأحاديث في هذا كثيرة، فمن رحمة الله تعالى بالعباد ارسال محمد ﷺ إليهم، ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به وإكمال الدين الحنيف له، وقد أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه ورسوله ﷺ في السنة المتواترة عنه أنه لا نبي بعده ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك ودجال ضال مضل، ولو تحرق وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنيجات فكلها محال وضلال عند أولي الألباب)[4].

هذا وقد أخبر الرسول الكريم ﷺ أنه سيخرج في امته دجالون كذابون، كلهم يزعمون كذباً وزوراً أنهم مرسلون من عند الله.

ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريبا من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله»[5].

(وقد ظهر بعد بعثة الرسول ﷺ مجموعة من أدعياء النبوة كمسيلمة والأسود العنسي وسجاح، ولايزال يظهر بين الفينة والفينة دَعِيٌ من أمثال هؤلاء.

وقد ظهر في القرن الماضي على محمد الشيرازى (ولد سنة ١٨١٩م) ولقب بالباب

---

(١) أخرجه البخاري ٤/١٦٢ ومسلم ٤/١٧٩١ وأحمد ٢/٢٥٧.

(٢) أخرجه مسلم ١/٣٧١ وأحمد ٢/٤١٢، والترمذي ٤/١٢٣.

(٣) أخرجه البخاري ٤/١٦٢، ومسلم ٤/١٨٢٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٤٩٤.

(٥) البخاري ٤/١٧٨ ومسلم ٤/٢٢٤٠.

وأتباعه يدعون البابية، وادعى النبوة حيناً والألوهية حيناً، وسار على نهجه تلميذه الذي لقب (ببهاء الله) وأتباعه يدعون البهائية.

ومن هؤلاء الأدعياء ميرزا غلام أحمد القادياني، وله أتباع منتشرون في الهند وألمانيا وأنكلترا وأمريكيا، ولهم فيها مساجد يضللون بها المسلمين، وكانوا يسمون بالقاديانية، وهم يسمون اليوم أنفسهم بالأحمدية إمعانا في تضليل عباد الله.

وآخر هؤلاء الأدعياء رجل ظهر في السودان يدعي أنه نبي وقد تكفل الله بفضح كل من ادعى هذه الدعوى وهتك ستره)[1].

وقد اهتم علماء المسلمين قديماً وحديثاً بكشف كذب هؤلاء وبيان زيغهم وضلالهم وفجورهم وكفرهم، وبعدهم عن الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وقد أشار ابن سعدى إلى مسألة ادعاء النبوة في بعض مؤلفاته وبين أن محمداً ﷺ خاتم النبيين ولا نبي بعده، وبين أن ادعاء النبوة من أظلم الظلم وأعظم الكذب على الله.

فقال عند قوله تعالى: **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾**[2].

(ويدخل في ذلك ادعاء النبوة وأن الله يوحي إليه وهو كاذب في ذلك فإنه مع كذبه على الله وجرأته على عظمته وسلطانه يوجب على الخلق أن يتبعوه ويجاهدهم على ذلك، ويستحل دماء من خالفه وأموالهم.

ويدخل في هذه الآية كل من ادعى النبوة كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي والمختار وغيرهم ممن اتصف بهذا الوصف)[3].

وقد أشار في خلاصة التفسير إلى بعض الفوارق بين الأنبياء حقاً، وبين ادعياء النبوة فقال:

(فإن الأنبياء يصدق بعضهم بعضا، ويشهد بعضهم لبعض، ويكون كما جاوءا به متفقاً لا يتناقض؛ لأنه من عند الله محكم منتظم.

---

(١) الرسل والرسالات للدكتور عمر الأشقر / ٢٢٢ هامش.

(٢) سورة الأنعام / الآية ٩٣.

(٣) التفسير ٢/٤٣٤.

وأما الكذبة فإنهم لابد أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم ويعلم كذبهم بمخالفته لما يدعو إليه الأنبياء الصادقون)[1].

بيانه أن الأنبياء ليس منهم نساء:

ذهب بعض العلماء إلى أن من النساء نبيه. منهم:

القرطبي وابن حزم وغيرهما.

والذي عليه جمهور العلماء، هو أن الذكورية شرط في الرسالة والنبوة، وعليه فإن ليس من النساء نبيه[2].

واستدلوا بقوله تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم**﴾[3].

وقد تناول ابن سعدى هذه المسألة وبين أن النساء ليس منهن نبيه فقال عند قوله تعالى: ﴿**وأمه صديقه**﴾[4].

(.. وهذا دليل على أن مريم لم تكن نبيه بل أعلى أحوالها الصديقيه وكفى بذلك فضلا وشرفاً، وكذلك سائر النساء لم يكن منهن نبيه لأن الله تعالى جعل النبوه في أكمل الصنفين في الرجال كما قال تعالى:

﴿**وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم**﴾[3])[5].

وقال عند تفسير هذه الآية: (أي لست ببدعٍ من الرسل، فلم نرسلْ قبلك ملائكة بل رجالا كاملين لا نساء)[6].

بيانه أن الخضر ليس بنبي:

اختلف العلماء في الخضر هل هو نبي أو رسول أو ولي، كما قال الراجز:

واختلف في خضر أهل العقول قيل نبي أو ولي أو رسول[7].

فذهب بعضهم إلى أن الخضر نبي واستدلوا بسياق الآيات في سورة الكهف،

---

(١) الخلاصة / ١٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤٩٦ وفتح الباري لابن حجر، ٦/٤٤٧.

(٣) سورة يوسف / الآية ١٠٨.

(٤) سورة المائدة / الآية ٧٥.

(٥) التفسير ٢/٣٢٦.

(٦) التفسير ٤/٢٠٥.

(٧) أضواء البيان للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ٤/١٥٨.

كقوله تعالى: ﴿آتيناه رحمة من عندنا﴾[1].

فقالوا المراد بالرحمة في الآية رحمة النبوة.

وقوله تعالى ﴿وعلمناه من لدنا علما﴾[1].

فقالوا هذا العلم هو ما يوحيه الله إليه عن طريق الوحي.

واستدلوا بأفعال الخضر من قتل الغلام وخرق السفينة وبناء الجدار ثم قوله بعد ذلك ﴿وما فعلته عن أمرى﴾[2].

فقالوا هذا الأمر أوحى الله به إلى الخضر، ولم يفعله من تلقاء نفسه، وكل ذلك يدل على نبوته[3].

وذهب بعض العلماء إلى أن الخضر عبد صالح وليس بنبي؛ وذلك لأن الله سبحانه لم ينص على نبوته، وإنما وصفه بالعبودية، فلذلك يوقف عند نص الآية.

ومن هؤلاء الشيخ ابن سعدى فقد ذهب إلى أن الخضر عليه السلام عبدصالح وليس بنبي، اكتفاء بما نصت عليه الآية من وصفه بالعبودية وعدم وصفه بالنبوة.

فقال بعد تفسيره للآيات المتعلقة بنبأ موسى مع الخضر: (وفي هذه القصة العجيبة الجليلة من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير، ننبه على بعضه بعون الله... ثم قال: ومنها: أن ذلك العبد الذي لقياه، ليس نبياً، بل عبداً صالحاً لأنه وصفه بالعبودية، وذكر منّة الله عليه بالرحمة والعلم، ولم يذكر رسالته ولا نبوته، ولو كان نبياً لذكر ذلك كما ذكر غيره.

وأما قوله في آخر القصة ﴿وما فعلته عن أمرى﴾[2] فإنه لا يدل على أنه نبي وإنما يدل على الإلهام والتحديث كما يكون لغير الأنبياء.

كما قال تعالى: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾[4].

﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا﴾[5])[6].

---

(١) سورة الكهف / الآية ٦٥.

(٢) سورة الكهف / الآية ٨٢.

(٣) الزهر النضر في نبأ الخضر لابن حجر ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ١٩٧/٢، وأضواء البيان للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ١٥٨/٤.

(٤) سورة القصص / الآية ٧.

(٥) سورة النحل / الآية ٦٨.

(٦) التفسير ٦٥/٥، ٦٦.

وقال في خلاصة التفسير: (. . . ذلك العبد الذي لقياه ليس نبياً، بل هو عبد صالح ملهم؛ لأن الله ذكره بالعلم والعبودية الخاصة والأوصاف الجميلة، ولم يذكر معها أنه نبي أو رسول)[1].

فائدة تتعلق بالخضر:

قال ابن سعدى عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون، كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون**﴾[2]. «وهذه الآية تدل على بطلان قول من يقول ببقاء الخضر، وأنه مخلد في الدنيا فهو قول لا دليل عليه، ومناقض للأدلة الشرعية»[3].

---

(١) الخلاصة / ١٤٦.

(٢) سورة الأنبياء / الآيتان ٣٤، ٣٥.

(٣) التفسير ٥/٢٢٨، ٢٢٩.

الإيمان بنبوة محمد ﷺ

هذا أصل عظيم من أصول الإيمان التي ينبني عليها، بل لا يحصل الإيمان لأحد حتى يؤمن بمحمد ﷺ رسول رب العالمين، وخاتم النبيين، وسيد الأولين والآخرين.

وقد اهتم ابن سعدي ببيان هذا الأصل العظيم في مواضع متعددة من مؤلفاته. وتناوله من جوانب متعددة.

فبين أن محمداً ﷺ أفضل النبيين، وأن الأنبياء جميعهم مقرون بدعوته وبين وجوب الإيمان به وتصديقه ومحبته وأن ذلك من موجبات الإيمان، وبين أن الله قرر نبوته في القرآن الكريم بأساليب مختلفة. وبين دعوة الرسول ﷺ واهتمامه بالتوحيد وتحذيره من الشرك، وغير ذلك من الجوانب الهامة المتعلقة بنبوته ﷺ على ما سيأتي تفصيله وبيانه إن شاء الله.

وسنبدأ الحديث أولا عن فضل النبي ﷺ على سائر الأنبياء والمرسلين وبيان ابن سعدى ذلك.

بيانه أن محمداً أفضل الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام:

قال ابن سعدى في بيان فضل النبي محمد ﷺ على سائر الأنبياء (فضل نبينا محمد ﷺ بفضائل كثيرة فاق بها جميع الأنبياء، فكل خصلة حميدة ترجع إلى العلوم النافعة والمعارف الصحيحة، والعمل الصالح فلنبينا منها أعلاها وأفضلها وأكملها.

ولهذا لما ذكر الله أعيان الأنبياء الكرام قال لنبيه.

﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾[(١)].

وهداهم هو ما كانوا عليه من الفضائل الظاهرة والباطنة، وقد تمم ﷺ ما أمر به وفاق جميع الخلق؛ ولذلك خص الله نبينا بخصائص لم يشاركه فيها أحد من الأنبياء منها: هذه الخمسة التي عادت على أمته بكل خير وبركه ونفع)[(٢)].

---

(١) سورة الأنعام / الأية ٩٠.

(٢) بهجة قلوب الأبرار / ٨٤، ويقصد بالخصائص الخمس ما ورد في حديث جابر بن عبدالله رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتى ادركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة). أخرجه البخاري ١/٨٦.

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾[1]:
«أي: امش أيها الرسول الكريم خلف هؤلاء الأنبياء الأخيار واتبع ملتهم وقد امتثل ﷺ، فاهتدى بهدى الرسل قبله وجمع كل كمال فيهم. فاجتمعت لديه فضائل وخصائص، فاق بها جميع العالمين، وكان سيد المرسلين وإمام المتقين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وبهذا الملحظ استدل بهذا من استدل من الصحابة، أن الرسول ﷺ أفضل الرسل كلهم[2].

وأعظم بيان لذلك وأوضح دليل عليه قوله ﷺ «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع»[3].

بيانه أن الأنبياء جميعهم مقرون بنبوته:

قال تعالى: ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين**﴾[4].

قال ابن سعدى في تفسير هذه الآية: (هذا إخبار منه تعالى، أنه أخذ عهد النبيين وميثاقهم كلهم، بسبب ما أعطاهم ومن به عليهم من الكتاب والحكمة، المقتضي للقيام التام بحق الله وتوفيقه أنه ان جاءهم رسول مصدق لما معهم، بما بعثوا به من التوحيد والحق والقسط والأصول التي اتفقت عليها الشرائع أنهم يؤمنون به وينصرونه.

فأقروا على ذلك واعترفوا والتزموا وأشهدهم وشهد عليهم وتوعد من خالف هذا الميثاق، وهذا أمر عام بين الأنبياء جميعهم طريقهم واحد، وأن دعوة كل واحد منهم قد اتفقوا وتعاقدوا عليها.

وعموم ذلك، أنه أخذ على جميعهم الميثاق بالإيمان والنصرة لمحمد ﷺ .....)[5].

---

(١) سورة الأنعام / الآية ٩٠.

(٢) التفسير ٢/٤٣١.

(٣) أخرجه مسلم ٤/١٧٨٢ من حديث أبي هريرة.

(٤) سورة آل عمران / الآية ٨١.

(٥) التفسير ١/٣٩٦.

كلامه في وجوب الإيمان به ومحبته وطاعته:

قال ابن سعدى في بيان وجوب الإيمان بالرسول ﷺ والتزام طاعته وتصديقه.

(يجب معرفة جميع ما جاء به من الشرع جملة وتفصيلاً، بحسب الاستطاعة والإيمان بذلك والتزامه والتزام طاعته في كل شيء بتصديق خبره؛ وامتثال أمره واجتناب نهيه)[1].

وقد بين ابن سعدى أن معرفة الرسول ﷺ وما هو عليه من صفات أكبر دافع لتقوية الإيمان وزيادته، وأن ذلك من أعظم موجبات الإيمان، فبعد أن ذكر جملة من الأمور التي يحصل ويقوى بها الإيمان، قال: (ومن طرق موجبات الإيمان وأسبابه معرفة النبي ﷺ ومعرفة ما هو عليه من الأخلاق العالية، والأوصاف الكاملة، فإن من عرفه حق المعرفة لم يرتب في صدقه، وصدق ما جاء به من الكتاب والسنة والدين الحق.

كما قال تعالى: ﴿**أم لم يعرفوا رسولهم، فهم له منكرون**﴾[2].

أي فمعرفته ﷺ توجب للعبد المبادرة إلى الإيمان ممن [لم] يؤمن وزيادة الإيمان ممن آمن به)[3].

وبين أن طاعة الرسول ﷺ واجبة وأنها من طاعة الله فقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين**)[4].

قال: (طاعةُ الله وطاعة رسوله واجبة، فمن أطاع الله فقد أطاع الرسول ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله)[5].

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**ومن يطع الرسول فقد أطاع الله**﴾[6]. (كل من أطاع رسول الله في أوامره ونواهيه فقد أطاع الله تعالى لكونه لا يأمر إلا بأمر الله وشرعه ووحيه وتنزيله)[7].

---

(١) الفتاوي السعدية / ١٥.
(٢) سورة المؤمنون / الآية ٦٩.
(٣) التوضيح والبيان / ٢٧.
(٤) سورة المائدة / الآية ٩٢.
(٥) التفسير ٢/٣٤١.
(٦) سورة النساء / الآية ٨٠.
(٧) التفسير ٢/١٠٠.

وبين رحمة الله أن طاعة الرسول ﷺ هي العلامة الواضحة على صدق محبته، فقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم، قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين**﴾[1].

(هذه الآية هي الميزان التي يعرف بها من أحب الله حقيقة ومن ادعى ذلك دعوى، فعلامة محبة الله اتباع محمد ﷺ، الذي جعل متابعته وجميع ما يدعو إليه طريقاً إلى محبته ورضوانه، فلا تنال محبة الله ورضوانه وثوابه إلا بتصديق ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة وامتثال أمرهما واجتناب نهيهما فمن فعل ذلك أحبه الله وجازاه جزاء المحبين، وغفر له ذنوبه وستر عليه عيوبه.

فكأنه قيل ومع ذلك فما حقيقة اتباع الرسول وصفتها؟
فأجاب بقوله: ﴿**قل اطيعوا الله والرسول**﴾ بامتثال الأمر واجتناب النهي وتصديق الخبر: (فإن تولوا) عن ذلك فهذا هو الكفر والله لا يحب الكافرين)[2].

وبين رحمه الله أن طاعة الرسول ﷺ ومحبته من تمام النصيحة له فقال في بيان معنى النصيحة للرسول ﷺ:

(والنصيحة للرسول: هي كمال الإيمان به ومحبته وطاعته واتباعه، وتقديم قوله وهديه وسيرته على كل قول وهدى وسيرة ونصر ما جاء به)[3].

بيانه أن نبوة محمد ﷺ مقررة في القرآن بطرق متعددة:

ذكر ابن سعدى في كتابه القواعد الحسان جملة من القواعد المتعلقة بتفسير القرآن الكريم، وذكر من جملة هذه القواعد قاعدة جليلة تتعلق بالأساليب المختلفة والطرق المتنوعة التي ذكرها الله في كتابه لتقرير نبوة محمد ﷺ. قال رحمه الله: (هذا الأصل الكبير قرره الله في كتابه بالطرق المتنوعة التي يعرف بها كمال صدقه ﷺ فأخبر أنه صدق المرسلين، ودعا إلى ما دعوا إليه، وأن جميع المحاسن التي في الأنبياء في نبينا محمد ﷺ، وما نزهوا عنه من النقائص والعيوب فرسولنا محمد أولاهم وأحقهم بهذا التنزيه.

وأن شريعته مهيمنة على جميع الشرائع، وكتابه مهيمن على كل الكتب، فجميع

---

(١) سورة آل عمران / الآيتان ٣١، ٣٢.
(٢) التفسير ١/٣٧٤.
(٣) الفتاوي السعدية / ٧٠.

محاسن الأديان والكتب قد جمعها الله في هذا الكتاب وهذا الدين، وفاق عليها بمحاسن وأوصاف لم توجد في غيره.

وقرر نبوته بأنه أمي لا يكتب ولا يقرأ ولا جالس أحداً من أهل العلم بالكتب السابقة. بل لم يفجأ الناس إلا وقد جاءهم بهذا الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما أتوا ولا قدروا ولا هو في استطاعتهم ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. وأنه محال مع هذا أن يكون من تلقاء نفسه أو أن يكون قد تقوله على ربه أو أن يكون على الغيب بظنين، وأعاد في القرآن وأبدى في هذا النوع)[1].

واستمر ابن سعدى في ذكر هذه الطرق والأساليب الواردة في القرآن المقررة لنبوة محمد ﷺ.

ثم قال بعد أن ذكر جملة كبيرة من هذه الطرق: (فهذه الأمور والطرق قد أكثر الله من ذكرها في كتابه وقررها بعبارات متنوعة، ومعاني مفصلة وأساليب عجيبة وأمثلتها تفوق العد والإحصاء)[2].

ثم إن القرآن الكريم أعظم دليل وأقوى برهان على صدق نبوة محمد ﷺ، بل هو وحده يكفي لأن يكون دليلا على صدق نبوة محمد ﷺ كما قرر الله ذلك في كتابه؛ لذلك يقول ابن سعدى: (والله تعالى يقرر أن القرآن كاف جداً أن يكون هو الدليل الوحيد على صدق رسوله ﷺ في مواضع عدة. منها قوله: ﴿**أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم، إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون**﴾[3])[4].

هذا وقد جعل الله مع هذا البرهان الجلي والدليل القاطع جملة من البراهين فلا مجال للشك أو الريب بصدق نبوة محمد ﷺ.

قال ابن سعدى: (قد أقام الله على صدق رسله من الآيات البينات والأدلة الواضحات، ما على مثله يؤمن البشر وخصوصا إمامهم وسيدهم محمداً ﷺ فإن آيات نبوته وبراهين رسالته متنوعة. سيرته وأخلاقه وهديه، وما جاء به من الدين القويم، وحثه على كل خلق جميل وعمل صالح ونفع وإحسان إلى الخلق، ونهيه عند ضد ذلك.

---

(١) القواعد الحسان / ١٩.

(٢) القواعد الحسان / ٢٣.

(٣) سورة العنكبوت / الآية ٥١.

(٤) القواعد الحسان / ٢٣.

كلها آيات وبراهين على رسالته وما جاء به من الوحي من الكتاب والسنة كله جملة وتفصيلاً أدلة وبراهين على رسالته مع ما أكرمه الله به من النصر العظيم وإظهار دينه على الأديان كلها، وإجابة الدعوات وحلول أنواع البركات التي لا تعد أنواعها فضلا عن أفرادها.

هذا بقطع النظر عن شهادة الكتب السابقة له، وعن معارضة المكذبين له، وتحديه إياهم بكل طريق حتى عجزوا غاية العجز عن نصر باطلهم، ولا يزال الباطل بين يدى ما جاء به الرسول مخذولاً بحيث إن القائمين بما جاء به الرسول والقائمين بمعرفة دينه يتحدون جميع أهل الأرض أن يأتوا بصلاح أو فلا أو رقي حقيقي أو سعادة حقيقية بجميع وجوهها فيتبين أنه محال أن يتوصل إلى شيء من ذلك بغير ما جاء به الرسول وأرشد إليه ودل الخلق عليه)[1].

وقال (وأما ما آتى الله محمداً ﷺ من الآيات فهي لا تحد ولا تعد من كثرتها وقوتها ووضحها ولله الحمد، فلم يبق لأحد من الناس بعدها عذر)[2].

بيانه لكمال دعوة الرسول ﷺ:

بين ابن سعدى ان دعوة الرسول ﷺ في غاية الجودة والحسن وبين أن الرسول ﷺ فاق في دعوته جميع الأنبياء قال رحمه الله:

(فانظر إلى دعوات الرسل صلوات الله وسلامه عليهم التي حكاها الله في كتابه مع أممهم المستجيبين والمعرضين والمعارضين تجدها محتوية على غاية الحسن في كل أحوالها.

ثم انظر إلى دعوة سيدهم وإمامهم محمد ﷺ وما سلك من الطرق المتنوعة في دعاية الخلق عموماً وخصوصاً على اختلاف طبقاتهم، ومنازلهم وبحسب أحوالهم، وبحسب الأقوال والأحكام التي يدعو إليها، تجده قد فاق في ذلك الأولين والآخرين والآثار أكبر دليل على قوة المؤثر)[3].

كما بين رحمه الله أن زبدة دعوة الرسول ﷺ وخلاصةَ دعوته الدعوةُ إلى توحيد الله سبحانه والتحذيرُ من الشرك كما كان سلفه في ذلك إخوانه الأنبياء، قال تعالى:

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسولا إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[4].

---

(١) الفتاوي السعدية / ٤٧ ، ٤٨.

(٢) القواعد الحسان / ١٥١.

(٣) الخلاصة / ١٩٧.

(٤) سورة الأنبياء / الآية ٢٥.

قال ابن سعدي مبيناً أعظم أمر دعا إليه الرسول ﷺ: (فكان أعظم مقامات دعوته: دعوته إلى التوحيد الخالص والنهي عن ضده، دعى الناس لهذا، وقرره الله في كتابه وصرفه بطرق كثيرة واضحة تبين وجوب التوحيد وحسنه وتعينه طريقاً إلى الله وإلى دار كرامته، وقرر إبطال الشرك والمذاهب الضارة بطرق كثيرة احتوى عليها القرآن، وهي أغلب السور المكية.

فاستجاب له في هذا الواحد بعد الواحد على شدة عظيمة من قومه، وقاومه قومه وغيرهم وبغوا له الغوائل، وحرصوا على إطفاء دعوته بجدهم وقولهم وفعلهم وهو يجادلهم ويتحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وهم يعلمون أنه الصادق الأمين، ولكنهم يكابرون ويجحدون آيات الله)(1).

وقال رحمه الله في بيان إتمام الرسول ﷺ لهذه الدعوة وإبلاغه لها غاية البلاغ:

(. . . بل هو ﷺ أمين أهل السماء، أمين أهل الأرض الذي بلغ رسالات ربه البلاغ المبين. فلم يشحْ بشيء منه عن غني ولا فقير ولا رئيس ولا مرؤوس ولا ذكر ولا أنثى ولا حضري ولا بدوي؛ ولذلك بعثه الله في أمة أمية جاهلة جهلاء.

فلم يمت ﷺ، حتى كانوا علماء ربانيين، وأحباراً متفرسين، إليهم الغاية في العلوم، وإليهم المنتهى في استخراج الدقائق والمفهوم، وهم الأساتذة وغيرهم قصاراه أن يكون من تلاميذهم)(2).

بيانه لكمال الرسول ﷺ البشري:

تناول ابن سعدي في مؤلفاته عدة جوانب تتعلق بالرسول ﷺ وبين تحقيقه لها، وكماله لقيامه بها.

فذكر منها تحقيق الرسول ﷺ للعبودية، واتصافه بأحسن الأخلاق وعصمته وكمال عقله وكثرة علمه إلى غير ذلك من الجوانب الكثيرة التي كمل فيها الرسول ﷺ لأكماله إياها ولكثرتها فسأقتصر على ذلك طرف منها:

تحقيقهُ للعبودية:

وهذا أعظم الأمور التي يجب تحقيقها وقد بين الله سبحانه أن رسوله محمداً ﷺ قد حقق العبودية لله وحده؛ لذلك فإنه عند ذكره لرسوله في المقامات العظيمة يذكره بوصف العبودية وفي ذلك إشارة لتحقيق الرسول ﷺ لها وأتمه إياها.

(1) الخلاصة / 166.

(2) التفسير 7/579، بتصرف يسير.

قال ابن سعدى عند قوله تعالى: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا**﴾[١]. (وذكره هنا وفي مقام الإنـزال للقرآن ومقام التحدى بصفة العبودية؛ لأنه نال هذه المقامات الكبار بتكميله لعبوديته لربه)[٢].

وقال عند قوله تعالى: ﴿**وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله**﴾[٣].

(. . . . وفي وصف الرسول بالعبودية في هذا المقام العظيم، دليل على أن أعظم أوصافه ﷺ قيامه بالعبودية التي لا يلحق فيها أحد من الأولين والآخرين)[٤].

كمال أخلاقه:

إن الله سبحانه لما امتن على المؤمنين بهذا الرسول الكريم جمع له من صفات الكمال وأفضل الخصال ما لم يكن لغيره من البشر فجمع له جميع الخصال الموجودة في الرسل وغـيرهم، وما من خصلة حميدة، وصفة طيبة دعا إليها شرعنا الحكيم إلا ورسولنا ﷺ متصف بها، فبهذا كان عليه الصلاة والسلام أكمل الخلق أخلاقا وأحسنهم أوصافا.

يقول ابن سعدى في بيان ذلك (. . فعلا ﷺ بخلقه العظيم على جميع الخلق وفاق الأولين والآخرين، وكان خلقه العظيم كما فسرته به عائشة ـ رضى الله عنها ـ هذا القرآن الكريم)[٥].

وذلـك نحـو قولـه تعالى: ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾[٦] وقوله: ﴿**فبما رحمة من الله لنت لهم**﴾[٧].. الآية.

وقـولـه: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾[٨].

---

(١) سورة الاسراء / الآية ١.
(٢) التفسير ٤/٢٥٩.
(٣) سورة البقرة / الآية ٢٣.
(٤) التفسير ١/٦١.
(٥) كما روى ذلك مسلم في صحيحة ١/٥١٣ من حديثها رضى الله عنها.
(٦) سورة الاعراف / ١٩٩.
(٧) سورة آل عمران / ١٥٩.
(٨) سورة التوبة / الآية ١٢٨.

وما أشبهها من الآيات الدالات على اتصافه ﷺ بمكارم الأخلاق، والآيات التي فيها الحث على كل خلق جميل فكان أول الخلق امتثالاً لها وسبقا إليها وإلى تكميلها، فكان له منها أكملها وأجلها وأعلاها، وهو في كل خصلة منها في الذروة العليا، فكان سهلاً ليناً قريباً من الناس مجيباً لدعوة من دعاه، قاضياً لحاجة من استقضاه، جابراً لقلب من سأله لا يحرمه ولا يرده خائباً، وإذا أراد أصحابه أمراً وافقهم عليه وتابعهم فيه إذا لم يكن في ذلك محذور، وإن عزم على أمر لم يستبد به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من محسنهم ويعفو عن مسيئهم. ولم يكن يعاشر جليساً إلا أتم عشرة وأحسنها فكان لايعبس في وجهه ولا يغلظ له في كلامه ولا يطوى عنه بشره ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة بل يحسن إليه غاية الإحسان ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ)[1].

وقال في موضع آخر: (فهو ﷺ أعظم الخلق حلماً وصبراً، وأكثرهم عفواً عن الخلق وصفحاً وأجمعهم لجميع المحاسن والكمالات وأكرمهم في الخير والمعروف وبذل الهبات وهو الذي جمع الكرم والإحسان بعمله وعلمه وحاله وماله)[2].

عصمته فيما يبلغ عن ربه:

وهذا مما يدل على كمال الرسول ﷺ البشرى، فهو في ألفاظه وأقواله التي يبلغ فيها رسالة ربه، ما يتكلم بشيء منها إلا عن وحي من الله سبحانه، فقد عصمه الله من الخطأ في تبليغ الرسالة. وأدل شيء على ذلك قول الله سبحانه: ﴿**وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى**﴾[3].

لذلك يقول ابن سعدى عن هذه الآية: (.. ودل هذا على أن السنة وحي من الله لرسوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿**وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة**﴾[4] وأنه معصوم فيما يخبر به عن الله تعالى وعن شرعه؛ لأن كلامه لا يصدر عن هوى وإنما يصدر عن وحي يوحى)[5].

---

(١) الخلاصة / ٢٥. بتصرف يسير.
(٢) الخطب المنبرية / ٦٦.
(٣) سورة النجم / الآيتان ٣، ٤.
(٤) سورة النساء / الآية ١١٣.
(٥) التفسير ٧/٢٠٤.

سعة علمه:

وهذه من نعم الله على رسوله ﷺ حيث امتن عليه بأن أعطاه علماً واسعاً وعقلاً راجحاً، لا يماثله في ذلك أحد من البشر يقول ابن سعدى رحمه الله: (ورسول الله ﷺ هو الذي عنده من العلم أعظم من غيره وأنبأه الله من علم الغيب على ما لم يطلع عليه أحد من الخلق)[١].

أما عن كمال عقل الرسول ﷺ فيقول ابن سعدى (محال أن توجد عقول تقارب عقل النبي ﷺ الذي تستمد منه العقول والآراء.... حسب العقول الكاملة أن تستمد من عقل النبي ﷺ وآرائه وتستنير بنور هديه وتوجيهه وإرشاده)[٢].

هذه إشارة وقليل من كثير مما امتن الله به على رسوله ﷺ من صفات الكمال وطيب الخصال، وحسب المسلم أن يعرف أن أكمل الخلق وأفضلهم وسيدهم هو رسول الله ﷺ.

الإيمان بالكتب المنزلة على الرسل عليهم السلام:

وهذا من المباحث الهامة إذ هو من أركان الإيمان الستة، وهو داخل في الإيمان بالنبوات؛ لأنه لا يتم الإيمان بالأنبياء إلا مع الإيمان بالكتب المنزلة عليهم.

لذا يقول ابن سعدى بعد أن ذكر أهمية الإيمان بالأنبياء عليهم السلام ووجوب الإيمان بهم جملة وتفصيلاً: (ويدخل في الإيمان بالرسل الإيمان بالكتب، فالإيمان بمحمد ﷺ يقتضي الإيمان بكل ما جاء به من الكتاب والسنة ألفاظها ومعانيها، فلا يتم الإيمان إلا بذلك، وكل من كان أعظم علماً بذلك وتصديقاً واعترافاً وعملاً كان أكمل إيمانا)[٣].

وقد سبق أن تحدثنا عن الكتب في مبحث الأسماء والصفات، من حيث كونها من كلام الله، والكلام صفة من صفاته سبحانه.

وأما حديثنا عن الكتب هنا، فعن أهمية الإيمان بها جملة وتفصيلاً، وأن فيها الهداية والتوفيق على من أنزلت إليهم من ذكر أسماء بعضها مما ورد ذكره في القرآن ومن أنزلت عليه، ثم بيان أهمها وأعظمها والمهيمن عليها وهو القرآن الكريم.

وهذه النقاط الهامة تكلم عنها الشيخ ابن سعدى في مؤلفاته ولا سيما في كتابه

---

(١) التفسير ٧/ ١٩٩.

(٢) الخطب المنبرية / ٥٣.

(٣) الفتاوي السعدية / ١٥.

التفسير، فبين رحمه الله وجوب الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين وأن ذلك من تمام الإيمان بهم وقد تقدم النقل عنه أنها داخلة في الإيمان بالنبوات، ومعنى ذلك أن من آمن بأنبياء الله ورسله فإن الواجب عليه أن يؤمن بما أنزل عليهم من كتب.

وقد أخبر الله سبحانه في كتابه الكريم أن الرسول ﷺ والمؤمنين آمنوا بما أنزل الله على رسوله ﷺ وأنهم آمنوا بالملائكة والكتب والرسل حيث يقول سبحانه: ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله**..﴾[1] إلى آخر الآية، من سورة البقرة.

قال ابن سعدى عند تفسيره لهذه الآية: (فإن الله أمر في أول هذه السورة الناس بالإيمان بجميع أصوله في قوله: ﴿**قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا**﴾[2]. الآية. وأخبر في هذه الآية أن الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين آمنوا بهذه الأصول العظيمة وبجميع الرسل وجميع الكتب، ولم يصنعوا صنيع من آمن ببعض وكفر ببعض كحالة المنحرفين من أهل الأديان المنحرفة)[3].

لذا فإن الواجب على المسلم أن يؤمن بهذه الكتب جملة وتفصيلاً. فيؤمن جملة بجميع ما أنزله الله من الكتب، ويوقن أن في هذه الكتب الهداية للبشر، وأنها منزلة من عند الله، ويؤمن تفصيلاً بما ورد ذكره في القرآن الكريم من هذه الكتب فيؤمن بالتوراة والإنجيل والزبور، ويؤمن بالقرآن الكريم وأنه أفضلها والمهيمن عليها.

وهذه النقاط المتقدمة تناولها ابن سعدى مفصلة في تفسيره.

كلامه في التوراة:

قال ابن سعدى في وصف التوراة، وبيان ما اشتملت عليه من النور والهداية عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتب الله**...﴾[4].

قال: ﴿**إنا انزلنا التوراة**﴾ على موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ﴿**فيها هدى**﴾ يهدى إلى الإيمان والحق ويعصم من الضلالة، ﴿**ونور**﴾ يستضاء به في ظلم الجهل والحيرة والشكوك والشبهات والشهوات.

---

(١) سورة البقرة / الآية ٢٨٥.

(٢) سورة البقرة / الآية ١٣٦.

(٣) التفسير ١/٣٥٢.

(٤) سورة المائدة / الآية ٤٤.

كما قال تعالى: ﴿**ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين**﴾[1] ﴿**يحكم بها**﴾ بين الذين هادوا، أي اليهود في القضايا والفتاوى. ﴿**النبيون الذين أسلموا**﴾ لله وانقادوا لأوامره الذين إسلامهم أعظم من إسلام غيرهم صفوة الله من العباد)[2].

وقد بين ابن سعدى أن الله سبحانه كثيراً ما يقرن بين القرآن والتوراة؛ وذلك لأنهما أفضل كتابين أنزلهما الله على خلقه، فقال: (كثيراً ما يجمع تعالى بين هذين الكتابين الجليلين اللذين لم يطرق العالم أفضل منهما ولا أعظم ذكراً ولا أبرك ولا أعظم هدى وبياناً وهما التوراة والقرآن)[3].

وقال في موضع آخر: (كثيراً ما يقرن الباري بين نبوة محمد ﷺ ونبوة موسى عليه السلام، وبين كتابيهما وشريعتهما؛ لأن كتابيهما أفضل الكتب وشريعتهما أكمل الشرائع، ونبوتيهما أعلى النبوات وأتباعهما أكثر المؤمنين)[4].

كلامه في الانجيل:

قال تعالى: ﴿**وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة، وآتينه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين**﴾[5].

قال ابن سعدى في تفسيره لهذه الآية: (أي واتبعنا هؤلاء الأنبياء والمرسلين الذين يحكمون بالتوراة، بعبدنا ورسولنا عيسى بن مريم، روح الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم.

بعثه الله مصدقاً لما بين يديه من التوراة، ومؤيدا لدعوته وحاكما بشريعته وموافقا له في أكثر الأمور الشرعية.

وقد يكون عيسى عليه السلام أخف في بعض الأحكام كما قال تعالى: ﴿**ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم**﴾[6].

---

(١) سورة الأنبياء / الآية ٤٨.
(٢) التفسير ٢/٢٩٤.
(٣) التفسير ٥/٢٣٦.
(٤) التفسير ٤/٢٦٠.
(٥) سورة المائدة / الآية ٤٦.
(٦) سورة آل عمران / الآية ٥٠.

﴿**وآتيناه الأنجيل**﴾ الكتاب العظيم المتمم للتوراة ﴿**فيه هدى ونور**﴾ يهدى إلى الصراط المستقيم ويبين الحق من الباطل.

﴿**ومصدقاً لما بين يديه من التوراة**﴾ بتثبيتها والشهادة لها والموافقة. ﴿**وهدى وموعظة للمتقين**﴾ فإنهم الذين ينتفعون بالهدى، ويتعظون بالمواعظ ويرتدعون عما لا يليق)[1].

كلامه في الزبور:

قال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وآتينا داود زبورا**﴾[2] (... وهو الكتاب المعروف المزبور الذي خص الله به داود عليه السلام لفضله وشرفه)[3].

كلامه في القرآن الكريم:

وهو أفضل الكتب السماوية وخاتمها والمهيمن عليها والمصدق لها أنزله الله على صفيه وخليله محمد بن عبدالله ﷺ.

وقد تناول ابن سعدى فضل القرآن الكريم، وبين أنه **أفضل الكتب السماوية**، وأنه المصدق لها والمهيمن عليها فقال في وصف القرآن الكريم فهو: (مشتمل **على الحق** في أخباره وأوامره ونواهيه ومصدق لما بين يديه من الكتب؛ لأنه شهد للكتب السالفة ووافقها وطابقت أخباره أخبارها وشرائعه الكبار شرائعها وأخبرت به فصار وجودها مصداقا لخبرها.

وهو مشتمل على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، وزيادة في المطالب الآلهية والأخلاق النفسية، فهو الكتاب الذي تتبع كل حق جاءت به الكتب فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه، وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين.

وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة والأحكام الذي عرضت عليه الكتب السابقة، فما شهد له بالصدق فهو المقبول وما شهد له بالرد فهو مردود قد دخله التحريف والتبديل وإلا فلو كان من عند الله لم يخالفه)[4].

وقال: (وأكمل الرسالة وختمها **بمحمد** ﷺ وكتابه العظيم الذي هدى الله به

---

(١) التفسير ٢/٢٩٨.

(٢) سورة النساء / الآية ١٦٣.

(٣) التفسير ٢/٢١٨. وانظر ٧/٢٩٠.

(٤) التفسير ٢/٢٩٩. بتصرف.

الخلق من الضلالات واستنقذهم به من الجهالات وفرق به بين الحق والباطل والسعادة والشقاوة، والصراط المستقيم وطرق الجحيم فالذين آمنوا به واهتدوا حصل لهم به الخير الكثير والثواب العاجل والآجل)[1].

وقال عند قوله تعالى: ﴿**إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً**﴾[2].

(يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته وأنه يهدي للتي هي أقوم أي: أعدل وأعلى من العقائد والأعمال والأخلاق، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع الأمور..

إلى أن قال: فالقرآن مشتمل على البشارة والنذارة، وذكر الأسباب التي تنال بها البشارة وهو الإيمان والعمل الصالح والتي تستحق بها النذارة وهو ضد ذلك)[3].

وقد عدد رحمه الله جملة من أوصاف القرآن الكريم وذلك في مقدمة كتابه خلاصة تفسير القرآن فقال (قد وصف الله كتابه بأوصاف جليلة تنطبق على جميعه وتدل أكبر دلالة على أنه الأصل والأساس لجميع العلوم النافعة، والفنون المرشده لخير الدنيا والآخرة.

وصفه بالهدى والرشد والفرقان، وأنه مبين وتبيان لكل شيء فهو في نفسه هدى ويهدى الخلق لجميع ما يحتاجونه من أمور دينهم ودنياهم، ويرشدهم إلى كل طريق نافع، ويفرق لهم بين الحق والباطل والهدى والضلال وبين أهل السعادة والشقاوة بذكر أوصاف الفريقين، وفيه بيان الأصول والفروع...

ووصفه بأنه رحمة... ووصفه بأنه نور..... ووصفه بأنه شفاء لما في الصدور)[4].

إلى غير ذلك من الأوصاف العظيمة لهذا الكتاب العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وبهذه الأوصاف الجليلة والنعوت الجميلة يظهر لنا أهمية العناية بهذا القرآن؛ لما يترتب على ذلك من حصول السعادة والهداية والفلاح في الدنيا والآخرة.

---

(١) التفسير ١/٣٥٦.

(٢) سورة الإسراء / الآية ٩.

(٣) التفسير ٤/٢٦٤.

(٤) الخلاصة / ٦، ٧.

الإيمان بالملائكة:

وهذا المبحث له صلة عميقة بالإيمان بالنبوات، إذ أن الملائكة هم الذين يبلغون وحي الله إلى خلقه، ولا يتم الإيمان بالله وكتبه ورسله إلا بالإيمان بالملائكة، وقد أشار ابن سعدى إلى أن الإيمان بالملائكة داخل في الإيمان بالنبوات حيث قال: «والإيمان بالملائكة مع القدر داخل في هذا الأصل العظيم»[1] يعني الإيمان بالنبوات؛ لذا ففد رأيت أن أجعل هذا المبحث ضمن الكلام على النبوات.

هذا وقد تناول ابن سعدى هذا الأصل العظيم في مؤلفاته وبين وجوب الإيمان به وأنه أحد أصول الإيمان. وبين أن الإيمان بالله لا يتم إلا بالإيمان بالملائكة، كما تناول ذكر أوصافهم وأعمالهم.

قال رحمه الله: (الإيمان بالملائكة أحد أصول الإيمان ولا يتم الإيمان بالله وكتبه ورسله إلا بالإيمان بالملائكة وقد وصفهم الله بأكمل الصفات وأنهم في غاية القوة على عبادة الله، والرغبة العظيمة فيها، وأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وأنهم لا يستكبرون عن عبادته بل يرونها من أعظم نعمه عليهم وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ففي هذا بيان كمال محبتهم لربهم وقوة إنابتهم إليه ونشاطهم التام في طاعته وأنهم لا يعصونه طرفة عين. وهم وسائط بينه وبين رسله، لاسيما جبريل أفضلهم وأعظمهم وأقواهم وأرفعهم عند الله منزلة، فإنه ذو قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين وما هو على الغيب بضنين ﴿**وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين**﴾[2].

وكما أنهم الوسائط بينه وبين عباده في تبليغ الوحي والشرائع إلى الأنبياء، فهم الوسائط في التدبيرات القدرية، فإن الله وصفهم بأنهم المدبرات أمراً فكل طائفة منهم قد وكله على عمل هو قائم به بإذن الله، فمنهم الموكلون بالغيث والنبات والموكلون بحفظ العباد مما يضرهم ويحفظ أعمالهم وكتابتها والموكلون بقبض الأرواح وبتصوير الأجنة في الأرحام وكتابة ما يجرى عليها في الحال والمآل، والموكلون على الجنة والنار، ومنهم حملة العرش ومن حوله من الملائكة المقربين، إلى غير ذلك مما وصفوا به في الكتاب والسنة)[3].

---

(١) القتاوى السعدية / ١٥.

(٢) سورة الشعراء / الايات ١٩٢ - ١٩٤.

(٣) الخلاصة / ٢٩.

ثم قال رحمه الله بعد ذكر هذه الجملة النافعة من أوصاف هؤلاء الكرام البررة، ومن نعوت هؤلاء الأطهار. مبينا الواجب نحوهم، وأنه يجب الإيمان بهم (فيجب الإيمان بهم إجمالا وتفصيلاً، وكثير من سور القرآن فيها ذكر الملائكة، والخبر عنهم فعلينا أن نؤمن بذلك كله)[1].

كما بين رحمه الله أن الإيمان بالملائكة من الإيمان بالغيب الذي هو صفة من صفات المؤمنين المتقين كما قال سبحانه: ﴿**هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون**﴾[2].

فبين أنه لا يتم الإيمان بالغيب إلا بالإيمان بالملائكة، قال:

(ومن الإيمان بالغيب الإيمان بالملائكة الكرام الذين جعلهم الله عباداً مكرمين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وأنه تعالى جعلهم يدبرون بأمره وإذنه أمور الدنيا والآخرة فهم أكثر جنود الله وهم رسله في أحكامه الدينية وأحكامه القدرية وأن الله جعل للعبد منهم معقبات يحفظونه من أمر الله ويحفظون عليه أعماله ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، ﴿**كلا بل تكذبون بالدين وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون**﴾، ولهم صفات وأفعال مذكورة في الكتاب والسنة لا يتم الإيمان بالغيب إلا بالإيمان بها)[3].

كلامه عن منكري وجود الملائكة:

بين ابن سعدى أن الإيمان بالملائكة وأوصافهم ونعوتهم عقيدة راسخة في نفوس المسلمين، ولا ينكر ذلك أحد إلا الزنادقة المنكرين لوجود الله سبحانه.

قال رحمه الله: «ولا تكاد تجد أحداً ينكر وجود الملائكة إلا الزنادقة المنكرين لوجود ربهم ومن تستر بالإسلام منهم فإنه ينكر الملائكة حقيقة وينكر خبر الله ورسوله عنهم، ويفسر الملائكة تفسيراً وتحريفاً خبيثاً فيزعم أن الملائكة هي القوى الخيرية والصفات الحسنة الموجودة في الإنسان، وأن الشياطين هي القوى الشريرة فيه وغرضهم من هذا التحريف دفع الشنعة عنهم، وقد ازدادوا بهذا التحريف شراً إلى شرهم، وراج هذه

---

(١) الخلاصة / ٢٩.

(٢) سورة البقرة / الآيتان ٢، ٣.

(٣) المواهب الربانية / ٦٧

التحريف الخبيث على بعض الذين يحسنون الظن بهؤلاء الزنادقة، وليس عندهم بصيرة في أديان الرسل وان أظهروا تعظيمهم، فإن زنادقة الفلاسفة أعظم في قلوبهم من الرسل وكفى بالعبد ضلالاً وغياً أن يصل إلى هذه الحال، نعوذ بالله من مضلات الفتن»[1].

ومن هؤلاء البعض الذين ساروا في ركب الزنادقة وترسموا خطاهم القصيمي الملحد صاحب الأغلال وإليه وأمثاله يشير السعدى بقوله: (وراج هذا التحريف الخبيث على بعض الذين يحسنون الظن بهؤلاء الزنادقة، وليس عندهم بصيرة في أديان الرسل)[1].

وقد أنكر هذا القصيمي في كتابه «الأغلال» وجود الملائكة وسخر ممن يثبت وجودهم وتهكم منه وقرر أن هذه خرافات لا حقيقة لها، وهذا غاية البهت والضلال.

قال ابن سعدى رحمه الله: (ومن فروع نبذه ـ أي القصيمي ـ الإيمان بالله وبما أخبر به على ألسنة رسله، إن الملائكة والجن والأرواح وسياقه لهذا الإنكار بأساليب تهكميه وعبارات سخرية بما أخبر الله به وأخبرت به رسله ونطقت به الكتب واعترف به علية الخلق وسائر أهل الأديان السماوية وجاءت به نصوص الكتاب والسنه في نصوص كثيرة زادت على التواتر فأقر بها المسلمون واعترفوا بها وبكل ما أخبر الله به ورسوله عن الملائكة والجن وعن أحوال البرزخ وغيره ولم ينكر ذلك إلا جاحد ملحد مكذب لله ورسوله)[2].

والمقصود أن الملائكة لهم وجود حقيقي خلقهم الله وأمرهم بأوامر متنوعة من حفظ للكائنات وإنزال للمطر وكتابة للأعمال وغير ذلك من الصفات والأعمال الواردة عنهم في الكتاب والسنة.

فواجب المسلم أن يؤمن بكل ما ورد في الكتاب والسنة عنهم من غير شك ولا ريب وأن يصدق بذلك تمام التصديق فالإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة. ولا يتم الإيمان لأحد حتى يؤمن بالملائكة على الإجمال والتفصيل. والله أعلم.

وهذا آخر ما يتعلق بالفصل الثاني، ويليه الفصل الثالث وفيه الإيمان باليوم الآخر. وبالله التوفيق.

---

(١) الخلاصة / ٢٩.

(٢) تنزيه الدين / ٣٩.

الفَصل الثالث

جهُوده في توضِيح الإيمان باليَوم الآخر

تمهيـــــد:

إن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان الستة، ولا يصح إيمان أحد ان لم يؤمن باليوم الآخر.

قال تعالى في وصف المؤمنين:

﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾[1].

وقال في وصف الكافرين:

﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾[2].

وقد بين النبي ﷺ في حديث جبريل المشهور أهمية الإيمان باليوم الآخر حيث جعله أحد أركان الإيمان.

فقال ﷺ في تعريفه للإيمان:

«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره»[3].

هذا وان الحديث عن الإيمان باليوم الآخر يشتمل على أمور كثيرة.

فكل ما أخبر به الله ورسوله مما يكون بعد الموت من عذاب القبر ونعيمه وما يكون من النفخ في الصور. وما يكون من البعث والنشور، وما يكون يوم القيامة من ثواب وعقاب وجنة ونار. وما يكون قبل ذلك كله من علامات وأشراط كل ذلك داخل في الإيمان باليوم الأخر.

وعلى هذا فإن الحديث في هذا الفصل يشتمل على خمسة مباحث هامة:

أولهـا : الإيمان بأشراط الساعة.

والثاني : الإيمان بفتنة القبر وعذابه ونعيمه.

---

(١) سورة النمل / آية ١٣.

(٢) سورة هود / آية ١٩.

(٣) أخرجه مسلم ٣٧/١ من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

والثالث : الإيمان بالنفخ في الصور.
الرابع : الإيمان بالبعث والنشور.
الخامس : الإيمان باليوم الآخر بعد البعث.

وقبل الشروع في هذه المباحث على وجه التفصيل، يجدر التنبيه على اهتمام السعدى بهذا الموضوع.

حيث إنه رحمه الله تناول الحديث عن الإيمان باليوم الآخر جملة وتفصيلاً فتحدث بالجملة عن أهميته ووجوب الإيمان به، وما يترتب على الإيمان به من فوائد عديدة في الدنيا والآخرة.

فقال ـ رحمه الله ـ في بيان أهميته ووجوب الإيمان به جملة وتفصيلا، وأن ذلك أحد أركان الإيمان:

(. . . . . . من أصول الإيمان: الإيمانُ باليوم الآخر، وهو الإيمان بكل ما أخبر الله ورسوله به بعد الموت من فتنة القبر ونعيمه وعذابه وأحوال يوم القيامة وما يكون فيه ومن صفات الجنة والنار وصفات أهليهما، فالإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بذلك جملة وتفصيلاً)[1].

وبين رحمه الله أن الإيمان باليوم الآخر من الإيمان بالغيب، الذي أثنى الله على المؤمنين به. وأخبر عن سعادتهم وفلاحهم واستحقاقهم النعيم المقيم.

فقال: (ومن أنواع الإيمان بالغيب الإيمان باليوم الآخر وما وعد الله العباد من الجزاء، فدخل في هذا الإيمان بجميع ما يكون بعد الموت من فتنة القبر وأهواله، ومن صفات النار وأهلها وما أعد الله لهم فيها، ومن صفات الجنة وأهلها وما أعد الله فيها لأهلها فيفهمها فهماً صحيحاً مأخوذاً من الكتاب ودلالته ومن السنة الصحيحة ودلالتها، فبحسب ما يصل إلى العبد من نصوص الكتاب والسنة في هذا الباب وفهمها على وجهها يكون إيمان العبد بالغيب. .)[2].

وفي كلامه هذا إشارة إلى أهمية الاعتناء بهذا الموضوع على نحو ما ورد في الكتاب والسنة من تفاصيل لذلك ـ وأنه كلما ازداد الإنسان فهماً لتفاصيل هذا الموضوع زاد إيمانه بالغيب.

---

(١) الخلاصة / ٢٦، وانظر الفتاوي السعدية / ١٦، وسؤال وجواب / ١٥، وغيرها.
(٢) المواهب الربانية / ٦٦.

وقد ذكر رحمه الله جملة من الفوائد تحصل لمن آمن باليوم الآخر وأهواله وما يكون فيه من نعيم وعذاب.

فقال: (وفي العلم بذلك فوائد كثيرة:

منها: أن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان الستة التي لا يصح الإيمان بدونها، وكلما ازدادت معرفته بتفاصيله ازداد إيمان العبد به.

ومنها: أن معرفة ذلك حقيقة المعرفة يفتح للإنسان باب الخوف والرجاء اللذين إن خلا القلب منهما خرب كل الخراب، وإن عمر بهما أوجب له الخوف الانكفاف عن المعاصي، والرجاء تيسير الطاعة وتسهيلها، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة تفاصيل الأمور التي يخاف منها وتحذر. كأهوال القبر وشدته وأهوال الموقف وصفات النار المفظعة، وبمعرفة تفاصيل الجنة وما فيها من النعيم المقيم والحبرة والسرور ونعيم القلب والروح والبدن فيحدث بسبب ذلك الاشتياق الداعي للاجتهاد في السعي للمحبوب المطلوب بكل ما يقدر عليه.

ومنها: أن يعرف بذلك فضل الله وعدله في المجازاة على الأعمال الصالحة والسيئة الموجب لكمال حمده والثناء عليه بما هو أهله.

وعلى قدر علم العبد بتفاصيل الثواب والعقاب يعرف بذلك فضل الله وعدله وحكمته)[1].

وقال في موضع آخر: (إن الإيمان بالبعث والجزاء أصل صلاح القلوب، وأصل الرغبة في الخير والراهبة من الشر اللذين هما أساس الخيرات)[2].

هذا ما يتعلق بحديثه عن الإيمان باليوم الآخر من حيث الجملة، وأما تفاصيله لذلك فسنتناوله في الخمسة المباحث الآتية:

---

(١) التفسير ١/٢٨، ٢٩.

(٢) التفسير ١/٣٦٠.

المبحث الاول

الايمان بأشراط الساعة

ورد في الكتاب والسنة ما يدل على أن للساعة علامات تدل على قرب وقتها ودنوه فالواجب على كل مسلم أن يصدق بكل ما ورد في ذلك وأن يؤمن بأنه كله حق وأنه سيقع طبقاً لما أخبر الله ورسوله ﷺ.

قال السفارينى في درته المضيئة:

وما أتى في النص من أشراط ... فكله حق بلا شطاط[1]

فمن أدلة الكتاب على أمارات الساعة:

قوله تعالى:

﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾[2].

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر جملة من أشراط الساعة، سيأتي ذكر بعضها قريبا.

أما أدلة السنة على أشراط الساعة فكثيرة متواترة:

منها: حديث جبريل المشهور حيث **سأل** النبي ﷺ عن أمارات الساعة: «قال أخبرنى عن أماراتها، فقال ﷺ أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاة يتطاولون في البنيان»[3].

ومنها: حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضى الله عنه قال: «طلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال ما تذاكرون؟ قالوا نذكر الساعة قال: إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات. فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم عليه السلام، ويأجوج ومأجوج ـ وثلاثة خسوف خسف بالمشرق،

---

(١) الدر المضيئة في عقد الفرقة المرضية للسفاريني ١/٧٠ من شرحها لوامع الانوار البهية..

(٢) محمد / ١٢.

(٣) أخرجه مسلم ١/٣٨.

وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»[1].

ومنها: حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال: رسول الله ﷺ «بادروا بالأعمال ستاً طلوع الشمس من مغربها أو الدخان أو الدجال، أو خاصة أحدكم أو أمر العامة»[2].

وغيرها من الأحاديث، والمقصود أن الأحاديث الدالة على أمارات الساعة كثيرة جداً.

وهذه الأشراط منها ما هو قريب من قيام الساعة مثل نزول عيسى عليه السلام وخروج الدجال ويأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها وغيرها.

ومنها ما يكون قبل ذلك كالأمارات التي جاءت في حديث جبريل وغيرها.

وقد تناول ابن سعدى جمله من أشراط الساعة في ثنايا مؤلفاته وسأقتصر فيما يلي على ذكر كلامه في جملة من أشراط الساعة العظام:

وهي:

- فتنة الدجال.
- نزول عيسى عليه السلام.
- خروج يأجوج ومأجوج.
- طلوع الشمس من مغربها.
- خروج الدابة.

فتنة الدجال:

لقد تواترت الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ في خروج المسيح الدجال في آخر الزمان، ونعت لهم صفاته ومما يحصل عند خروجه من مصائب وفتن.

وقد كان ﷺ يكثر من تحذير الصحابة من فتنة، كما بين أن سلفه من الأنبياء كانوا يحذرون أقوامهم منه.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بعث نبى إلا أنذر أمته الأعور الكذاب ألا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر»[3].

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله

---

(١) أخرجه مسلم ٤/٢٢٢٥، والترمذي ٤/٤٧٧، وأبوداود ٤/١١٥، وأحمد في المسند ٤/٦.

(٢) أخرجه مسلم ٤/٢٢٦٧.

(٣) أخرجه البخاري ٨/١٠٣، ومسلم ٤/٢٢٤٨.

بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال إنى لأنذر كموه وما من نبى إلا وقد أنذره قومه ولكنى سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه إنه أعور، وإن الله ليس بأعور»[1].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم عن الدجال حديثاً ما حدثه نبى قومه إنه أعور، وإنه يجىء معه مثل الجنة والنار، فالتي يقول إنها الجنة هي النار وإنى أنذركم به كما أنذر به نوح قومه»[2].

والأحاديث في ذلك كثيرة؛ ولهذا فقد اهتم علماء المسلمين بالتحذير من فتنة الدجال حتى قال بعض السلف إن الحديث الذي فيه ذكر الدجال ينبغى أن يدفع إلى معلم الصبيان ليحذرهم في صغرهم من فتنته، قال ابن ماجه في سننه بعد إيراده حديث أبى أمامه الباهلى الطويل في ذكر الدجال ـ سمعت أبا الحسن الطنافسى يقول سمعت عبدالرحمن المحاربى يقول «ينبغى أن يدفع هذا الحديث إلى المؤدب حتى يعلمه الصبيان في الكتاب»[3].

وقد وقفت على كلام للشيخ ابن سعدى في التحذير من هذه الفتنة حيث إن أحد طلبة العلم سأله أن يذكر له وصية نافعة في التحذير من الفتن، ولا سيما فتنة الدجال.

فتحدث رحمه الله عن الفتن وكثرتها في هذه الأزمان، ثم تعرض لفتنة المسيح الدجال وأنها أعظم الفتن وأشدها، لما يحصل عند خروجه من بلاء وأذية للمسلمين، ونبه على أهمية الاستعاذة من فتنته، وأنه ينبغى للإنسان أن لا يغتر بمعرفته لبعض أوصاف الدجال بأن ذلك يمنعه من اتباعه والافتتان به، بل ينبغى للمسلم أن يكثر من الاسنعاذة من الفتن عموماً ومن فتنة المسيح الدجال على وجه الخصوص.

قال رحمه الله (. . . . إن كفره وكفر أتباعه أظهر كل شيء، ومع ذلك معه من أسباب الفتن ما أوجب أن يحذر النبي ﷺ منه أمته وينذرهم إياه، ويأمره بالاستعاذة من فتنته في كل صلاة وخصها بعد التعميم فعمم بقوله من فتنة المحيا والممات الشاملة لكل الفتن وخصص فتنة الدجال لعظمها وشدة ضررها.

فهو مع عظم فتنته وقوة شبهته قد كشف الله حاله للمؤمنين فبين عينيه مكتوب «ك ف ر» يعرف ذلك منه)[4].

---

(١) أخرجه البخاري ٨/١٠٢.

(٢) أخرجه مسلم ٤/ ٢٢٥٠.

(٣) ابن ماجه ٢/١٣٦٣.

(٤) رسالة بعثها الشيخ ابن سعدى للشيخ عبدالله البصيرى أجابه فيها عن بعض الأسئلة مؤرخة بسنة ١٣٧١هـ.

ثم بين أن فتنة الدجال على نوعين فتنة جنس وفتنة شخص، فقال: (وفتنة الدجال نوعان:

فتنة جنس وفتنة شخص، فتنة الجنس كل فتنة يقارنها تمويهات ويقترن بها شبهات فإنها من جنس فتنة الدجال.

وفتنة الشخص خروج الدجال الذي صحت فيه الأحاديث التي لا ريب فيها وبهذا التقسيم الذي ذكره شيخ الإسلام في السبعينية يفهم فائدة الاستعاذة بالله من فتنته؛ لأن الذي يدرك شخصه من الأمة قليل جداً بالنسبة إلى من لم يدرك شخصه.

ولهذا قال ﷺ: «من سمع بالدجال فلينأ عنه»[1] أي يبعد ليسلم من فتنته.

ثم ساق عبارة شيخ الإسلام في السبعينة وهي قوله: (وفتنة الدجال لا تختص بالموجودين في زمانه بل حقيقة فتنته الباطل المخالف للشريعة المقرون بالخوارق فمن أقر بما يخالف الشريعة لخارق فقد أصابه نوع من هذه الفتنة، وهذا كثير في كل زمان ومكان.

لكن هذا المعين فتنته أعظم الفتن فإذا عصم الله عبده منها سواء أدركه أو لم يدركه كان معصوماً مما هو دون هذه الفتنة.

إلى أن قال: «ومعلوم أن ما ذكر معه من التعوذ من عذاب جهنم والقبر وفتنة المحيا والممات أمر به كل مصل إذ هذه الفتن جارية على كل أحد ولا نجاة إلا بالنجاة منها فدل على أن فتنة الدجال كذلك.

ولو لم تصب فتنته إلا مجرد الذين يدركونه لم يؤمن بذلك كل الخلق مع العلم بأن جماهير الخلق لا يدركونه، ولا يدركه إلا أقل القليل من الناس المأمورين بهذا الدعاء.

وهكذا إنذار الرسل إياه أممهم يقتضى تخويف عموم فتنته، وأن تأخر وجود شخصه حتى يقتله المسيح.

وكثيراً ما وقع بقلبى أن هؤلاء الاتحادية أحق الناس باتباع الدجال ومع هذا فقد جرى للمؤمنين مع أتباعهم من المحنة الواقعة في الإسلام. ومعلوم أن هذه الفتنة هي نتيجة محنة الدجال، بل هذه النتيجة أقرب إلى محنة الدجال من غيرها»[2] أنتهى كلام الشيخ.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤/٤٣١، وأبوداود ٤/١١٦ والحاكم ٤/٥٣١ كلهم من طريق حميد بن هلال عن أبي الدهماء عن عمران بن حصين رضى الله عنهم وإسناد أبي داود رجاله ثقات وهم من رجال مسلم، وكذا اسناد أحمد في احدى روايته، وعن الرواية الثانية قال ابن كثير في النهاية ١/١٤٦ (هذا إسناد جيد) أ.هـ.

(٢) السبعينية لابن تيمية ٥/١٣٣ ضمن مجموعة الفتاوى المصرية.

قلت[١]: وهؤلاء الملحدون العصريون الذين ذكر الشيخ أشباههم هم أعظم الناس قياماً بفتنته دعوة واستجابة)[٢].

نزول عيسى عليه السلام:

ومن أمارات الساعة التي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة نزول عيسي عليه السلام قبل قيام الساعة فيقتل الدجال ويكسر الصليب ويضع الجزيه حكماً عدلاً مقسطاً.

وقد أخبر الله عن نزوله في آيتين من القرآن الكريم.

الأولى: قوله تعالى: ﴿**وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته**﴾[٣] أي قبل موت عيسى عليه السلام، كما ذهب إلى ذلك ابن كثير في تفسيره وهو قول ابن عباس والحسن وقتاده وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم[٤].

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿**وإنه لعلمٌ للساعة**﴾[٥].

قال البغوى في تفسيره: (يعنى نزوله من أشراط الساعة يعلم به قربها)[٦] وقد روى ذلك ابن جرير الطبرى: عن ابن عباس من طرق متعددة وعن الحسن ومجاهد وقتادة والسدى وغيرهم[٧].

وقد أشار ابن سعدى إلى هذين القولين عند تفسيره للآيتين المتقدمتين فقال عند الآية الأولى: (ويحتمل أن الضمير في قوله (قبل موته) راجع إلى عيسى عليه السلام، فيكون المعنى: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بالمسيح عليه السلام قبل موته، وذلك عند اقتراب الساعة وظهور علاماتها الكبار)[٨].

وقال عند تفسير الآية الثانية:

(أي وإن عيسى عليه السلام لدليل على الساعة، وأن القادر على إيجاده من أم

---

(١) القائل ابن سعدي.
(٢) ضمن الرسالة السابقة.
(٣) النساء / ١٥٩.
(٤) تفسير ابن كثير ١/٥٧٦.
(٥) الزخرف / ٦١.
(٦) معالم التنزيل ٤/١٤٣.
(٧) جامع البيان للطبرى ١٠/٩٠، ٩١.
(٨) التفسير ٢/٢١٤.

بلا أب قادر على بعث الموتى من قبورهم.

أو، وأن عيسى عليه السلام سينزل في آخر الزمان ويكون نزوله علامة من علامات الساعة)[1].

أما نصوص السنة الدالة على نزول عيسى عليه السلام فكثيره جداً تبلغ حد التواتر.

منها حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد».

ثم يقول أبو هريرة اقروءا إن شئتم: ﴿**وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته**﴾[2] أخرجاه[3].

ومنها حديث أبى هريرة أيضا قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وأمكم». أخرجه مسلم[4].

ومنها حديث جابر بن عبدالله رضى الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة قال، فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام فيقول أميرهم تعال صل لنا، فيقول لا: إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة» أخرجه مسلم[5].

وغيرها من الأحاديث، وقد أشار ابن سعدى إلى كثرة الأحاديث الواردة في نزول عيسى عليه السلام فقال: (فإنها تكاثرت الأحاديث في نزوله عليه السلام في آخر هذه الأمة فيقتل الدجال ويضع الجزية ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين)[6].

---

(١) التفسير ٦/٦٥٧.

(٢) سورة النساء / ١٥٩.

(٣) البخاري ٣/٤٠، مسلم ١/١٣٥.

(٤) مسلم ١/١٣٦.

(٥) مسلم ١/١٣٧.

(٦) التفسير ٢/٢١٤.

خروج يأجوج ومأجوج:

قال الله تعالى:

﴿حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً، قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سدا، قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما، آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا، قال هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا، وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا﴾[1].

وقال تعالى:

﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين﴾[2].

فهذان الموضعان من كتاب الله فيهما الدلالة الواضحة على خروج يأجوج ومأجوج قبل يوم القيامة، وأن خروجهم أحد علامات الساعة التي تكون قبل قيامها وقد ورد في السنة عن الرسول ﷺ أحاديث كثيرة تدل على ذلك وتوضحه وتبينه.

منها حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضى الله عنه قال: «طلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال: ما تذاكرون قالوا: نذكر الساعة، قال: «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاث خسوف. خسف بالمشرق وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»[3].

ومنها حديث النواس بن سمعان الكلابى رضى الله عنه عن النبي ﷺ وفيه: (فبينما هو كذلك إذا أوحى الله إلى عيسى: أن قد أخرجت عباداً لي، لايَدَان لأحدٍ بقتالهم فحرز عبادى إلى الطور ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد

---

(١) سورة الكهف ٩٣ - ٩٩.

(٢) سورة الانبياء ٩٦، ٩٧.

(٣) تقدم تخريجه، ص ٢٤٠.

كان بهذه مرة ماء ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك، وردي بركتك...»[1].

ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غداً فيعودون إليه كأشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله عز وجل أن يبعثهم إلى الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله ويستثني فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون المياه ويتحصن الناس منهم في حصونهم..»[2].

ومنها حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس كما قال الله عز وجل: ﴿**وهم من كل حدب ينسلون**﴾ فيعثون في الأرض وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ويضمون إليهم مواشيهم ويشربون مياه الأرض حتى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يابسا حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول لقد كان ههنا ماء مره...»[3].

وعقيدة السلف في يأجوج ومأجوج كما دل على ذلك الكتاب والسنة:

الإيمان بخروج هاتين القبيلتين من بني آدم قبل قيام الساعة، وبعد نزول عيسى عليه السلام وقتل الدجال، وذلك بعد اندكاك السد الذي هم منحازون وراءه منذ بناه ذو القرنين.

فإذا خرجوا يحصل على أيديهم أذى وفتنة وشر عظيم، وهم جموع كثيرة حتى إنهم لكثرتهم إذا مر أولهم على بحيرة طبرية عند خروجهم شربوا الماء الذي فيها جميعه، فإذا

---

(١) أخرجه مسلم ٤/٢٢٥١.

(٢) أخرجه أحمد ٢/٥١٠ والترمذي ٥/٣١٣، وابن ماجه ٢/١٣٦٤، والحاكم في مستدركه ٤/٤٨٨، وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه أحمد ٣/٧٧، وابن ماجه ٢/١٣٦٢، والحاكم في المستدرك ٤/٤٨٩، وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

مر آخرهم قالوا قد كان في هذه البحيرة ماء ثم يستمر أذاهم ويزداد إفسادهم فيرغب نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله، فتكون نهايتهم بأن يرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيموتون جميعاً. وإليك أقوال العلماء في ذلك:

قال البغوي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج** . . .﴾[1] الآية: (أي يريد فتح السد عن يأجوج ومأجوج ﴿**واقترب الوعد الحق**﴾ يعني القيامة. قال الفراء وجماعة: الواو في قوله واقترب مقحمة فمعناه حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق . . .)[2].

وقال ابن العربي: (وأما خروج يأجوج ومأجوج فإنه يكون بعد نزول عيسى عليه السلام وهما أمتان مضرتان مفسدتان كافرتان)[3].

وقال ابن كثير: (. . . . . قد كانوا يعيثون في الأرض ويؤذون فحصرهم ذو القرنين في مكانهم داخل السد حتى يأذن الله بخروجهم على الناس)[4].

وقال ابن قدامه المقدسي: (ويجب الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ وصح به النقل فيما شاهدناه أو غاب عنا، نعلم أنه حق وصدق وسواء في ذلك ما عقلناه وجهلناه ولم نطلع على حقيقة معناه مثل حديث الإسراء، والمعراج . . . إلى ان قال ومن ذلك أشراط الساعة مثل خروج الدجال، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام فيقتله وخروج يأجوج ومأجوج . . .)[5].

وقال ابن أبي العز في شرحه للعقيدة الطحاوية: (وأحاديث الدجال وعيسى بن مريم عليه السلام ينزل من السماء ويقتله ويخرج يأجوج ومأجوج في أيامه بعد قتله الدجال فيهلكهم الله أجمعين في ليلة واحدة ببركة دعائه عليهم يضيق هذا المختصر عن بسطها)[6].

وقال السفاريني في لوامع الأنوار البهية: (. . . . خروجهم من وراء السد على الناس حق ثابت لوروده في الذكر وثبوته عن سيد البشر ولم يحله عقل فوجب اعتقاده)[7].

وقد جاء عن ابن سعدى القول بأن يأجوج ومأجوج هم دول الكفر الموجودة الآن

---

(١) سورة الأنبياء / الآية ٩٦.

(٢) معالم التنزيل ٣/٢٦٨ ـ بتصرف.

(٣) عارضة الأحوذي لابن العربي ٩/٣٤.

(٤) نهاية البداية والنهاية لابن كثير ١/١٨٤.

(٥) لمعة الاعتقاد لابن قدامه / ٣٠.

(٦) شرح العقيدة الطحاوية / ٥٠٥.

(٧) لوامع الانوار البهية ٢/١١٦.

من الروس والصين والأمريكان واليابان وغيرهم.

وألف في ذلك رسالتين نصر فيهما قوله المذكور، واستدل على ذلك ببعض الأدلة والصواب خلاف ذلك.

إذ أن قوله هذا مخالف لنصوص الكتاب والسنة وما عليه العلماء المحققون كما تقدم النقل عن بعضهم، وكما سيأتي مزيد إيضاح ذلك.

ولكننا نجده في آخر حياته طبع كتابه التفسير وذلك بعد تأليف الرسالتين المتقدمتين بسبع عشرة سنة، وسلك في تفسيره للآيات المتعلقة بيأجوج ومأجوح مسلك أهل التحقيق من العلماء، حيث ذكر فيه أن يأجوج ومأجوج يخرجون في آخر الزمان قبل قيام الساعة، وبعد اندكاك السد. وفي هذا احتمال كبير لتراجعه عن هذا القول، إذ لو كان باقياً عليه لأشار إليه في تفسير الآيات المتعلقة به ومما يقوى هذا الاحتمال أنه لم يطبع رسالتيه المتقدمتين ولم يشتهرا عنه، إلا عند القليل من طلبة العلم، حتى جاء الشيخ عبدالله ابن محمود فألف رسالته «لا مهدى ينتظر بعد الرسول خير البشر»!!(*).

وغلط فيها أغلاطاً فاحشة، وخالف ما عليه المحققون من العلماء، وأنكر فيها الأحاديث الواردة في المهدى.

وكان مما أثاره في رسالته تلك القضية التي ذكرها ابن سعدى عن يأجوج ومأجوج وأنهم دول الكفر، فأظهر هذا القول بعد اندثاره وأشهره.

وقد قام فضيلة الشيخ حمود التويجرى حفظه الله بالرد على ابن محمود، وبين خطأه، وألف في ذلك كتابه «الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدى المنتظر».

فأفاد فيه وأجاد، وقد استفدت منه كثيراً في هذا الموضوع.

وأما القول بأن يأجوج ومأجوج هم دول الكفر فبطلانه ظاهر من وجوه متعددة:

أحدها : أنه مخالف لما ثبت في النصوص من أن خروج يأجوج ومأجوج لا يكون إلا بعد نزول عيسى عليه السلام وقتل الدجال.

والثاني : أنه ثبت في النصوص أنهم لا يمكثون بعد خروجهم إلا فترة يسيرة من الزمان، وأمم الكفر موجودون على هذه الحالة من أزمان طويلة.

والثالث : أنه ثبت في القرآن والسنة أن السد الذي هم منحازون وراءه لا يندك إلا إذا دنا قيام الساعة.

الرابع : أن هذا القول يخالف ما أخبر الله به عن ذي القرنين أنه جعل بين الناس

(*) وللوالد الكريم الشيخ عبدالمحسن العباد حفظه الله، رد على هذه الرسالة، عنوانه: «الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي» وهو مطبوع متداول.

وبين يأجوج ومأجوج سداً كبيراً من حديد وأنهم لا يستطيعون نقبه إلا عند اقتراب الساعة.

الخامس : أنه ثبت في النصوص أنه إذا خرجت إحدى الآيات العظام، تتابعت على إثرها باقي الآيات كما يتتابع الخرز في النظام، وأمم الكفر لهم أمد طويلة على هذه الحال، ومع ذلك لم يخرج شيء من الآيات العظام.

السادس : أن أمم الكفر على اختلاف أجناسهم وأوطانهم كانوا موجودين في جميع الجهات في زمان الرسول ﷺ وقبل زمانه وبعد زمانه ولم يؤثر عنه أنه قال إنهم هم يأجوج ومأجوج، ولم يؤثر ذلك عن أحد من الصحابة ولا التابعين ولا من جاء بعدهم من العلماء المتقدمين.

السابع : أنه ثبت عن النبي ﷺ أن يأجوج ومأجوج إذا خرجوا يمر أولهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، وأمم الكفر المياة عندهم متوفرة فضلاً عن أن يشربوا بحيرة طبرية[1].

هذه بعض الأوجه التي يتبين بها بطلان قول من قال إن يأجوج ومأجوج هم دول الكفر الموجودة الآن.

وفيما يلي أعرض جملة من أدلة القائلين بهذا القول مع بيان عدم دلالتها على ما ذهبوا إليه.

فمن أدلتهم قولهم:

إن يأجوج ومأجوح من بني آدم وليسوا من الجن ولا من عالم غيبي آخر، وهم على سطح الأرض، ومع ذلك لم يرهم أحد من السائحين في الأرض؟.

والجواب عن ذلك أن يقال: لا شك أن يأجوج ومأجوج من بني آدم، وأنهم على سطح الأرض كما دل على ذلك الكتاب والسنة، ولكن لا يلزم من كونهم كذلك أن يراهم أحد؛ لأن الله سبحانه قادر على كل شيء، ومن ذلك أن يمنع الناس من رؤيتهم ويحجب أبصارهم عن مشاهدتهم.

وقد أجاب عن هذه الشبهه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في كتابه أضواء البيان بعد أن ذكر أن هذه الشبهه هي عمدة القائلين بهذا القول:

فقال: (فقولكم لو كانوا موجودين وراء السد إلى الآن لاطلع عليهم الناس، غير

---

(١) انظر الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدى المنتظر من ٣٠٨ إلى ٣٥٨.

صحيح، لإمكان أن يكونوا موجودين والله يخفي مكانهم على عامة الناس حتى يأتي الوقت المحدد لإخراجهم على الناس.

ومما يؤيد إمكان هذا ما ذكره الله تعالى في سورة المائدة من أنه جعل بني إسرائيل يتيهون في الأرض أربعين سنة وذلك في قوله تعالى: ﴿**قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض**...﴾[1] الآية.

وهم في فراسخ قليلة من الأرض يمشون ليلهم ونهارهم ولم يطلع عليهم الناس حتى انتهى أمد التية؛ لأنهم لو اجتمعوا بالناس لبينوا لهم الطريق، وعلى كل حال فربك فعال لما يريد)[2].

وقال الشيخ حمود التويجرى في كتابه الاحتجاج بالأثر: (وأما كون السائحين في الأرض لم يروا يأجوج ومأجوج ولا سد ذي القرنين فلا يلزم منه عدم السد ويأجوج ومأجوج. فقد يصرف الله السائحين عن رؤيتهم ورؤية السد وقد يجعل الله فوق السد ثلوجاً متراكمة بحيث لا تمكن رؤية السد معها أو يجعل الله غير ذلك من الموانع التي تمنع من رؤية يأجوج ومأجوج ورؤية السد. والواجب على المسلم الإيمان بما أخبر الله به في كتابه عن السد ويأجوج ومأجوج وما صح عن النبي ﷺ في ذلك، ولا يجوز للمسلم أن يتكلف ما لا علم له به ولا يقول بشيء من أقوال المتكلفين المتخرصين بل ينبذها وراء ظهره ولا يعبأ بشيء منه)[3].

ويقال أيضا جاء في حديث الجساسة أن بعض الصحابة رأوا الدجال مقيداً في إحدى الجزر وأخبروا الرسول ﷺ بذلك فلم ينكر عليهم ذلك، فهو بلا شك موجود في الجزيرة التي رُؤي فيها إلى أن يأذن الله له بالخروج، فهل يُنكر وجوده لعدم رؤيته من قبل السائحين؟.

الواجب على المسلم أن يصدق بجميع الأخبار الواردة عن الصادق المصدوق فيؤمن بوجود الدجال ويأجوج ومأجوج سواء رؤهم الناس أم لم يروهم.

ومن أدلتهم

تأويلهم لقول الله تعالى: ﴿**وهم من كل حدب ينسلون**﴾[4] أن هذا قد حصل

---

(١) سورة المائدة / الآية ٢٦.

(٢) أضواء البيان ٤/١٨٦.

(٣) الاحتجاج بالأثر / ٣١٥.

(٤) سورة الأنبياء / ٩٦.

حيث إن أمم الكفر حققوا ذلك بصعودهم في الفضاء بالطائرات والمراكب الفضائية، وشقهم للبحار والأنهار بالسفن والبواخر، وغير ذلك من وسائل التنقل الحديثة.

والجواب عنه: أن هذا فهم للنص على خلاف مراده، واستدلال في غير محله؛ وذلك لأن هذا الأمر لا يحصل إلا في آخر الزمان عند اقتراب الساعة كما دل على ذلك الآية نفسها والتي تليها حيث يقول الله سبحانه: ﴿**حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، واقترب الوعد الحق**﴾.

فأخبر الله سبحانه في هذه الآية أن خروجهم من كل حدب ينسلون لا يحصل إلا عند اقتراب الوعد الحق وهو يوم القيامة.

وقد دل على ذلك نصوص كثيرة في الكتاب والسنة منها حديث النواس ابن سمعان وحديث أبي سعيد الخدري وحديث أبي هريرة، وقد تقدم ذكرها قريباً، وفيها ذكر نزول عيسى وقتله الدجال وأن يأجوج ومأجوج لا يخرجون إلا بعد ذلك، وذلك كله لا يحصل إلا في آخر الزمان. ثم إن تفسير الآية بهذا المعنى تفسير محدث لم يسبق إليه أحد من أئمة التفسير، وكل خير في أتباع من سلف.

بل إن تفسيرهم هذا للآية يتعارض مع ما فسرها به رسول الله ﷺ من أن ذلك يحصل في آخر الزمان فيعثون في الأرض فساداً بعد خروجهم وينحاز الناس عنهم إتقاء شرهم.

وذلك كما ورد في حديث أبي سعيد الخدري المتقدم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يفتح يأجوج ومأجوج على الناس كما قال الله عز وجل: ﴿**وهم من كل حدب ينسلون**﴾ فيعثون في الأرض، وينحاز المسلمون عنهم. . . .) الحديث.

ويقال أيضاً إن هذا التفسير يتعارض مع ما أخبر به الرسول ﷺ من أن يأجوج ومأجوج يحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غداً فيعودون إليه كأشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله عز وجل أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله ويستثنى فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون المياة ويتحصن الناس منهم في حصونهم.

وهذا لم يحصل من أمم الكفر بل هم يتنقلون متى شاءوا إلى أى مكان شاءوا، وليس هناك سد يمنعهم أو حاجز يعوقهم حتى ولو كان تنقلهم بواسطة الأقدام أو الحمير أو غيرها من الوسائل القديمة.

ومن أدلتهم:

قولهم إن النبي ﷺ أخبر عن بدأ انفتاح السد في زمانه حيث قال «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج مثل هذه وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها»[1]. الحديث. ومعنى هذا أن السد كل يوم يزداد في الانفتاح حتى تلاشى في زماننا هذا.

والجواب عن هذا أن يقال: قد أخبر الله ورسوله عن خروج يأجوج ومأجوج وعن اندكاك السد، وأنه لا يتم إلا عند اقتراب الساعة، وبعد خروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام.

دل على ذلك قول الله سبحانه ﴿**حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، واقترب الوعد الحق**﴾[2].

ودل عليه جملة من نصوص السنة منه حديث النواس بن سمعان وحديث أبي هريرة وحديث أبي سعيد الخدري وقد تقدم ذكرها.

والمقصود أنه لا يجوز للمسلم أن يأخذ ببعض النصوص ويترك بعضا، ففي حديث زينب المتقدم أخبر الرسول ﷺ عن انفتاح السد قدر تحليقة إصبعيه، وفي حديث أبي هريرة أخبر أنهم كل يوم يفتحون من السد قليلاً ثم يبيتون فيعود السد كما كان، إلى أن يأذن الله لهم بالخروج في آخر الزمان، وهذا ظاهر الدلالة في أن اندكاك السد لا يكون إلا في آخر الزمان قبل قيام الساعة عندما يأذن الله لهم بالخروج.

ويضاف إلى ذلك أن حديث النواس بن سمعان دل على أن ذلك لا يكون إلا بعد خروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام، فيلزم من قولهم هذا أن يكون الدجال قد خرج وعيسى عليه السلام قد نزل وهذا ظاهر البطلان.

ومن أدلتهم:

قولهم إن كثيراً من المعاصرين صرحوا بذلك في كتبهم كشكيب أرسلان ومحمد رشيد رضا وغيرهما.

والجواب عن هذا أن يقال: تصريح المتأخرين أو من هو أفضل منهم من المتقدمين بما يخالف النص، لا يلتفت إليه مهما كانت مكانة قائله العلمية.

وقد تقدم بيان بطلان هذا القول بما يكفي، فلا عبرة بهذه التصريحات، ولا يلتفت إليها.

---

(١) أخرجه البخاري ٨/١٠٤، ومسلم ٤/٢٢٠٧ وغيرهما عن زينب بنت جحش.

(٢) سورة الأنبياء / الآيتان ٩٦، ٩٧.

وقد استدلوا بغير هذه الأدلة، وأدلتهم كلها واهية لا تقوم بها حجة، ولا يصلح بها برهان، وفي النصوص الصحيحة الصريحة ما يدل على أمر يأجوج ومأجوج وأن خروجهم لا يحصل إلا في آخر الزمان بعد اندكاك السد، وبعد خروج المسيح الدجال ونزول عيسى عليه السلام.

فالواجب على المسلم أن يؤمن بما صح به الخبر من أشراط الساعة، ولا يتأول النصوص بخلاف ما تدل عليه.

فالتمسك بالنصوص وعدم تأويلها هو المنهج الذي سار عليه الصحابة وتابعوهم بإحسان، وهو المنهج الحق الذي لا يجوز العدول عنه.

أما الشيخ ابن سعدى فقد أخطأ في ما ذهب إليه في رسالتيه المشار إليهما آنفاً، وجانبه الصواب في ذلك وليس هو بالمعصوم. ثم إنه قد ظهر في بعض مؤلفاته كما تقدم الإشارة إلى ذلك ما يفيد احتمال تراجعه عن هذا القول حيث إنه طبع كتابه التفسير في آخر عمره وقرر فيه عند تفسيره لسورة الكهف وسورة الأنبياء خلاف هذا القول الباطل.

فبين في كتابه التفسير أن الخروج واندكاك السد لا يتم إلا في آخر الزمان وهذا القول هو الصواب الموافق لأقوال السلف المطابق لمفهوم نصوص الكتاب والسنة.

فقال عند تفسيره لقوله تعالى: **﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، واقترب الوعد الحق﴾**[1].

(هذا تحذير من الله للناس أن يقيموا على الكفر والمعاصي، وأنه قد قرب انفتاح يأجوج ومأجوج، وهما قبيلتان من بني آدم، وقد سد عليهم ذو القرنين، لما شكى إليه إفسادهم في الأرض.

وفي آخر الزمان ينفتح السد عنهم، فيخرجون إلى الناس وفي هذه الحالة والوصف الذي ذكره الله من كل مكان مرتفع، وهو الحدب ينسلون أي يسرعون.

في هذا دلالة على كثرتهم الباهرة، وإسراعهم في الأرض، إما بذواتهم وإما بما خلق الله لهم من الأسباب التي تقرب لهم البعيد وتسهل عليهم الصعب. وأنهم يقهرون الناس، ويعلون عليهم في الدنيا، وأنه لايد لأحد بقتالهم **﴿واقترب الوعد الحق﴾** أي يوم القيامة الذي وعد الله بإتيانه، ووعده حق وصدق)[2].

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: **﴿ثم اتبع سببا، حتى إذا بلغ بين السدين وجد**

---

(١) سورة الأنبياء / الآيتان ٩٦، ٩٧.

(٢) التفسير ٥/٢٦٣.

من دونهما قوماً **لا يكادون يفقهون قولا﴾** إلى قوله تعالى **﴿قال هذا رحمه من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاً وكان وعد ربي حقا﴾**(1).

قال: (قال المفسرون ذهب متوجهاً من المشرق قاصداً للشمال، فوصل إلى ما بين السا ن وهما سدان كانا معروفين في ذلك الزمان.

سدان من سلاسل الجبال المتصلة يمنة ويسرة حتى تتصل بالبحار بين يأجوج ومأجوج وبين الناس، وجد من دون السدين قوماً لا يكادون يفقهون قولاً لعجمه ألسنتهم واستعجام أذهانهم وقلوبهم.

وقد أعطى الله ذا القرنين من الأسباب العلمية مافقه به ألسنة أولئك القوم وفقههم وراجعهم وراجعوه. فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج وهما: أمتان عظيمتان من بني آدم فقالوا: **﴿إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض﴾** بالقتل وأخذ الأموال وغير ذلك **﴿فهل نجعل لك خرجا﴾** أي جعلا **﴿على أن تجعل بيننا وبينهم سدا﴾**.

ودل ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم على بنيان السد، وعرفوا اقتدار ذي القرنين عليه فبذلوا له أجره ليفعل ذلك، وذكروا له السبب الداعي وهو إفسادهم في الأرض.

فلم يكن ذو القرنين ذا طمع ولا رغبة في الدنيا ولا تاركاً لإصلاح أحوال الرعية بل قصده الاصلاح فلذلك أجاب طلبتهم لما فيها من المصلحة ولم يأخذ منهم أجره وشكر ربه على تمكينه واقتداره فقال لهم: **﴿ما مكني فيه ربي خير﴾** أي مما تبذلون لي وتعطوني وإنما أطلب منكم أن تعينوني بقوة منكم بأيديكم **﴿أجعل بينكم وبينهم ردما﴾** أي: مانعا من عبورهم عليكم، **﴿آتوني زبر الحديد﴾** أي قطع الحديد فأعطوه ذلك **﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾** أي الجبلين اللذين بنى بينهما السد **﴿قال انفخوا﴾** أي أوقدوها إيقاداً عظيماً واستعملوا لها المنافيخ لتشتد فتذيب النحاس.

فلما ذاب النحاس الذي يريد أن يلصقه بين زبر الحديد **﴿قال آتوني أفرغ عليه قطرا﴾** أي نحاساً مذاباً.

فأفرغ عليه القطر فاستحكم السد استحكاماً هائلاً، وامتنع به مَن وراءه من الناس من ضرر يأجوج ومأجوج.

﴿فما استطاعوا أن يظهروه وأما استطاعوا له نقبا﴾ أي فما لهم استطاعة ولا قدرة على الصعود عليه لارتفاعه ولا على نقبه لاحكامه وقوته، فلما فعل هذا الفعل الجميل

(1) سورة الكهف / الآيات ٨٩:٩٨.

والأثر الجليل أضاف النعمة إلى موليها وقال ﴿**هذا رحمة من ربي**﴾ أي من فضله وإحسانه عليّ، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا منَّ الله عليهم بالنعم الجليلة، إزداد شكرهم وإقرارهم واعترافهم بنعمة الله كما قال سليمان عليه السلام لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم قال: ﴿**هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر**﴾[1].

بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو في الأرض فإن النعم الكبار تزيدهم أشراً وبطراً، كما قال قارون لما آتاه الله من الكنور ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة قال: ﴿**إنما أوتيته على علم عندى**﴾[2].

وقوه: ﴿**فإذا جاء وعد ربي**﴾ أي لخروج يأجوج ومأجوج ﴿**جعله**﴾ أي ذلك السد المحكم المتقن ﴿**دكاً**﴾ أي دكه فانهدم واستوى هو والأرض وكان وعد ربي حقا)[3] أ هـ. كلامه.

وكلامه في هذين الموضعين هو الصواب الموافق لما عليه السلف الصالح في أمر يأجوج ومأجوج، وفي كلامه هذا أبلغ رد على ما قاله في رسالتيه المتقدمتين، وفيه أيضاً احتمال كبير لرجوعه عما قاله فيهما؛ لأنه طبعه في آخر حياته.

لذا يقول الشيخ حمود التويجرى بعد أن ذكر كلام ابن سعدى عند تفسيره لسورة الأنبياء: (وهذا صريح في رجوعه عما كان يقوله في يأجوج ومأجوج أنهم أمم الكفار على اختلاف اجناسهم وأوطانهم)[4].

ثم أشار الشيخ حمود التويجرى إلى أن الشيخ ابن سعدى طبع تفسيره في سنة ١٣٧٥هـ في المطبعة السلفية أي قبل وفاته بسنه[5]، وأرسل منه نسخة للشيخ حمود التويجرى.

وكان هذا بعد إخراجه للرسالة التي غلط فيها في أمر يأجوج ومأجوج بنحو سبع عشرة سنة، وهذا فيه احتمال كبير لتراجع الشيخ عن قوله المذكور في يأجوج ومأجوج، وإن لم يكن قد رجع فكلامه فيهم متناقض. لذا يقول الشيخ التويجرى حفظه الله: «ولم يخرج في تفسير الآيات من سورة الكهف ومن سورة الأنبياء عما ذكره المفسرون في أمر يأجوج ومأجوج، فيحتمل أنه قد رجع عما قرره في رسالته وإن لم يكن رجع عن ذلك

---

(١) سورة النمل / الآية / ٤٠.

(٢) سورة القصص / الآية / ٧٨.

(٣) التفسير ٥/٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩.

(٤) الاحتجاج بالأثر / ٣٢٦.

(٥) أما فراغه من تأليفه، فقد مر معنا عند ذكره في مؤلفاته أنه فرع منه في ٧ شعبان سنة ١٣٥٤هـ.

فكلامه في يأجوج ومأجوج متناقض فيؤخذ بما كان منه موافقا لأقوال المفسرين من الصحابة والتابعين ويرد ما خالفهم فيه»[1].

وقد أثنى الشيخ التويجرى على الشيخ ابن سعدى ثناءً طيباً بعد أن نبه على خطئه المتقدم وأشار إلى علمه وفضله.

فقال: «ليعلم المطلع على كتابي هذا أن إنكارى لما توهمه ابن سعدى في أمر السد ويأجوج ومأجوج وما كتبته في التنبيه على أخطائه لا يمنعني من الثناء عليه والدعاء له بالمغفرة والرحمة فقد خلف رحمه الله تعا. علماً كثيراً في مؤلفاته وعند تلاميذه فأما ما كتبه في رسالته في السد ويأجوج ومأجوج فه من الزلات المغمورة في جنب فضائله ومحاسنه وقد قال الشاعر وأحسن فيما قال:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تعد معائبه»[2]

وثمة موضع آخر خطأ الشيخ ابن سعدى في تأويله يتعلق بأشراط الساعة حيث أول حديث أبي سعيد الخدري في قصة الراعي الذي كلمه الذئب فأخبر النبي ﷺ بذلك.

ولفظ حديث أبي سعيد: عن النبي ﷺ قال بينما أعرابي في بعض نواحي المدينة في غنم له عدا عليه الذئب فأخذ شاة من غنمه فأدركه الأعرابي فاستنقذها منه وهجهجه فعانده الذئب ثم أقعى مستذفراً بذنبه يخاطبه فقال أخذت رزقاً رزقنيه الله قال واعجبا من ذئب مقع مستذفر بذنبه يخاطبني فقال والله إنك لتترك أعجب من ذلك قال وما أعجب من ذلك فقال رسول الله ﷺ في النخلتين بين الحرتين يحدث الناس عن نبأ ما قد سبق، وما يكون بعد ذلك قال فنعق الأعرابي بغنمه حتى ألجأها إلى بعض المدينة ثم مشى إلى النبي ﷺ حتى ضرب عليه فلما صلى النبي ﷺ قال أين الأعرابي صاحب الغنم فقام الأعرابي فقال له النبي ﷺ حدث الناس بما سمعت وما أريت فحدث الأعرابي الناس بما رأى من الذئب وسمع منه فقال النبي ﷺ عند ذلك صَدَقَ، آياتٌ تكون قبل الساعة. والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يخرج أحدكم من أهله فيخبره نعله أو سوطه أو عصاه بما أحدث أهله بعده)[3].

---

(١) الاحتجاج بالأثر / ٣٢٧، ٣٢٨.

(٢) الاحتجاج بالأثر / ٣٥٨.

(٣) أخرجه الإمام أحمد ٣/٨٨، والحاكم مفرقاً (٤/٤٦٧، ٤٦٨) وقال صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وأخرج آخره الترمذي من قوله «والذي نفسي بيده......» وقال: (حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث القاسم بن الفضل وهو ثقة مأمون) الترمذي ٤/٤٧٦، وصححه الألباني. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/١٩٠.

فهذا الحديث ظاهر في أن التكليم حصل حقيقة من الذئب للراعي، وأنه كذلك يحصل حقيقة من السوط والنعل والعصا قبل قيام الساعة، إلا أن الشيخ ابن سعدى تأول هذا الحديث بما قد حصل في هذه الأزمان من الاتصالات التليفونية والهوائية والإذاعات وغيرها.

فقال: (...... وإخباره أنه لابد أن يكلم الرجل عذبه سوطه وشراك نعله ويخبره فخذه بما فعله أهله بعده، ومصداقه ما ظهر من الأعمال الكهربائية والمخاطبات التليفونية والهوائية والراديات المتنوعة التي لا تزال في نمو وازدياد)[1].

ولا ريب أن تأويل ابن سعدى هذا ظاهر البطلان، ويتنافى مع ما سبق أن قرره من وجوب فهم النصوص على ظاهرها من غير تكلف لتأويلها.

ويكفي في بيان بطلان هذا التأويل صدر الحديث حيث أن الراعي أخبر النبي ﷺ أن الذئب كلمه فقال النبي ﷺ «لا تقوم الساعة حتى يخرج أحدكم من أهله فيخبره نعله أو سوطه أو عصاه بما أحدث أهله بعده»[2].

فهنا حصل تكليم حقيقي من الذئب للراعي وكذلك يحصل في آخر الزمان تكلم السباع الآدميين ويكلم السوط والنعل والعصا صاحبه بما أحدث أهله.

كل ذلك حق على حقيقته ويجرى على ظاهره ولا يتكلف تأويله بما حصل من المخترعات الحديثة.

ومثله ما أخبر النبي ﷺ من أن حجراً في مكة كان يسلم عليه[3]، وهذا حق على حقيقته، وكما يقال في هذا الحديث يقال في الحديث الذي قبله.

ومثله أيضا ما أخبر به النبي ﷺ من أن المسلمين يقاتلون اليهود في آخر الزمان فيقول الحجر والشجر يا مسلم هذا يهودى خلفي فتعال فاقتله[4]، وهذا أيضاً حق على

---

(١) وجوب التعاون بين المسلمين / ٤٨.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ولفظ الحديث عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث اني لأعرفه الآن».
أخرجه مسلم ٤/١٧٨٢، وأحمد ٥/٨٩.

(٤) ولفظ الحديث قال ﷺ «تقاتلون اليهود حتى يختبىء أحدهم وراء الحجر فيقول يا عبدالله هذا يهودي ورائي فاقتله».
أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة وابن عمر رضى الله عنهما. البخاري ٣/٢٣٢، ومسلم ٤/٢٢٣٨.

حقيقته وسيكلم الحجر والشجر وسيقع طبقاً لما أخبر به الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام.

والمقصود أن هذه النصوص وأمثالها لا يجوز تأويلها وصرفها عن ظاهرها بل الواجب أن تمر كما جاءت مع تيقن حصول ما أخبر به الرسول ﷺ من غير تكلف لتأويلها، أو صرف لها عن ظاهرها.

وبهذا يتبين لنا أن تأويل ابن سعدى للحديث المتقدم بما حصل من المخترعات العصرية خطأ واضح يتنافى مع منهجه السليم من الأخذ بالظاهر وترك التأويل، والكمال لله والعصمة لرسوله ﷺ.

خروج الدابة:

ومن أمارات الساعة الدالة على قرب وقتها خروج دابة الأرض على الناس ضحى تكلمهم وتسميهم مؤمناً وكافراً، كما دل على ذلك نصوص الكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿**وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون**﴾[1].

وقال ﷺ: «لن تقوم الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات وذكر منها الدابة»[2].

وقال ﷺ: (إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على إثرها قريباً)[3].

وقد أشار ابن سعدى إلى هذه الأمارة وكثرة الأحاديث فيها، وذلك عند تفسيره للآية المتقدمة فقال: (وهذه الدابة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان، وتكون من أشراط الساعة كما تكاثرت بذلك الأحاديث، لم يذكر الله ورسوله كيفية هذه الدابة وإنما ذكر أثرها والمقصود منها، وأنها من آيات الله تكلم الناس كلاماً خارقاً للعادة حين يقع القول على الناس، وحين يمترون بآيات الله فتكون حجة وبرهانا للمؤمنين وحجة على المعاندين)[4].

طلوع الشمس من مغربها:

ومن أمارات الساعة طلوع الشمس من مغربها كما تواترت بذلك نصوص الكتاب والسنة.

---

(١) سورة النمل / الآية ٨٢.

(٢) تقدم تخريجه ص ٢٤٠

(٣) أخرجه مسلم ٤/ ٢٣٦٠ ـ عن عبدالله بن عمرو بن العاص.

(٤) التفسير ٥/٦٠٣.

قال تعالى: ﴿**هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون**﴾[1].

قال البخاري في تفسير هذه الآية حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا عبدالواحد حدثنا عماره حدثنا أبوزرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس أمن من عليها»[2] فذلك حين ﴿**لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل**﴾[3].

وقد ورد في السنة أحاديث كثيرة عن طلوع الشمس من مغربها. منها ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستاً طلوع الشمس من مغربها والدجال والدخان والدابة وخاصة أحدكم وأمر العامة»[4].

ومنها ما رواه مسلم أيضاً عنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا: طلوع الشمس من مغربها والدجال، ودابة الأرض»[5].

ورواه الإمام أحمد وذكر «الدخان» بدل «الدجال»[6].

وقد أشار ابن سعدى عند تفسير الآية المتقدمة إلى كثرة النصوص وتضافرها في طلوع الشمس من مغربها وأن الإيمان لا ينفع عند طلوعها فقال: «وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن المراد ببعض آيات الله طلوع الشمس من مغربها، وأن الناس إذا رأوها آمنوا فلم ينفعهم إيمانهم ويغلق حينئذ باب التوبة»[7].

وقال في المواهب الربانية: «فسر النبي ﷺ ذلك بطلوع الشمس من مغربها فالأحاديث الصحيحة دلت على أن أول الآيات طلوع الشمس من مغربها. والآية دلت على أن أي آية من آيات الله التي هي مقدمات الساعة وبها يكون الإيمان اضطرارياً أتت

---

(١) سورة الأنعام / الآية ١٥٨.

(٢) البخاري ١٩٥/٥.

(٣) سورة الأنعام / الآية ١٥٨.

(٤) مسلم ٢٢٦٧/٤.

(٥) مسلم ١٣٨/١.

(٦) المسند ٤٤٥/٢.

(٧) التفسير ٥٠٩/٢.

فإنه لا ينفع الإيمان؛ لأنه إنما ينفع إيمان الاختيار وإيمان الغيب وإذا أتى بعض الآيات صار الإيمان بشهادة واضطرار فلا ينفع فالآية دلت على التعليل والأحاديث دلت على الأولية»[1].

وهذا آخر ما يتعلق بمبحث أشراط الساعة ويليه المبحث الثاني وهو الإيمان بفتنة القبر وعذابه ونعيمه. وبالله التوفيق.

---

(١) المواهب الربانية / ٧.

المبحث الثاني
الإيمان بفتنة القبر وعذابه ونعيمه

لقد تظاهرت نصوص الكتاب والسنة على إثبات فتنة القبر وعذابه ونعيمه، وأجمع على ذلك سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل السنة والجماعة.

وقد ورد في القرآن الكريم عدة آيات تثبت عذاب القبر ونعيمه وفتنته، قال الله تعالى: ﴿**ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون**﴾[١].

وقال الله تعالى: ﴿**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء**﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿**حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت، كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون**)[٣].

وقال تعالى: ﴿**سنعذبهم مرتين**﴾[٤]، وقال ﴿**ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر**﴾[٥].

وقال ﴿**وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب**﴾[٦].

كما ورد في السنة أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ في إثبات فتنة القبر وعذابه ونعيمه منها:

---

(١) سورة الأنعام / ٩٣.

(٢) سورة إبراهيم / ٢٧.

(٣) سورة المؤمنون / ٩٩، ١٠٠.

(٤) سورة التوبة / ١٠١.

(٥) سورة السجدة / ٢١.

(٦) سورة غافر / ٤٥، ٤٦.

حديث عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ﴿**إنكم تفتنون في قبوركم كفتنة الدجال**﴾[1].

ومنها حديثها أيضاً رضى الله عنها «أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر فقالت لها أعاذك الله من عذاب القبر فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر فقال نعم عذاب القبر قالت عائشة رضى الله عنها فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر»[2].

ومنها حديث ابن عباس رضى الله عنه قال: مر رسول الله ﷺ على قبرين فقال: «أما إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله». قال فدعا بعسيب رطب فشقه باثنين ثم غرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً ثم قال: «لعله أن يخفف عنهما مالم ييبسا»[3].

ومنها حديث أنس بن مالك رضى الله.عنه قال قال نبي الله ﷺ «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم «قال: يأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟» قال: «فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبدالله ورسوله» قال: «فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة» قال نبي الله ﷺ «فيراهما جميعاً»[4].

وغيرها من الأحاديث والمقصود أن نصوص الكتاب والسنة متضافرة على إثبات فتنة القبر وعذابه ونعيمه؛ لذا فقد تناول ابن سعدى إثبات عذاب القبر ونعيمه في مؤلفاته وبين أن ذلك من عقائد المسلمين الواجب اعتقادها.

قال: (أما أحوال القبر وفتنته وعذابه ونعيمه وتفاصيل ذلك فقد تواترت به الأحاديث الصحيحة والحسنة عن رسول الله ﷺ كما هو معروف، والقرآن أشار إليه في عدة آيات)[5].

وقال: (كل ما جاء في الكتاب والسنة مما يكون بعد الموت فإنه داخل في الإيمان

---

(١) أخرجه البخاري ١/٢٩ ومسلم ٢/٦٢١.
(٢) أخرجه البخاري ٢/١٠٢.
(٣) أخرجه البخاري ١/٦٠ ومسلم ١/٢٤٠ واللفظ لمسلم.
(٤) أخرجه البخاري ٢/١٠٢ ومسلم ٤/٢٢٠٠.
(٥) الخلاصة / ٢٦.

باليوم الآخر كأحوال القبر والبرزخ ونعيمه وعذابه . . .)[1].

وقال: (ومن أنواع الإيمان بالغيب الإيمان باليوم الآخر وبما وعد الله العباد من الجزاء فدخل في هذا الإيمان بجميع ما يكون بعد الموت من فتنة القبر وأحواله . . .)[2].

ولذلك فإن ابن سعدى في تفسيره إذا مر بآية فيها دلالة أو إشارة إلى عذاب القبر بين ذلك وأوضحه.

قال عند قوله تعالى: **﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾**[3].

(. . . . . وفي هذه الآية دلالة على فتنة القبر وعذابه ونعيمه كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ في الفتنة وصفتها ونعيم القبر وعذابه)[4].

وقال عند قوله تعالى: **﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون﴾**[5].

(. . . . . . وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر ودلالتها ظاهرة فإنه قال: **﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى﴾** أي بعض وجزء منه فدل على أن ثم عذاباً أدنى قبل العذاب الأكبر وهو عذاب النار)[6].

وقال عند قوله تعالى: **﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾**[7].

(. . . . . وفي هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه، فإن هذا الخطاب والعذاب الموجه إنما هو عند الاحتضار وقبيل الموت وبعده)[8].

وهذا يظهر لنا مدى اهتمام ابن سعدى في تفسيره للقرآن بالجوانب العقدية فهو عند

---

(١) سؤال وجواب / ١٥.

(٢) المواهب الربانية / ٦٦.

(٣) سورة إبراهيم / ٢٧.

(٤) التفسير ٤/١٤٠.

(٥) سورة السجدة / ٢١.

(٦) التفسير ٦/١٨٧.

(٧) سورة الأنعام / ٩٣.

(٨) التفسير ٢/٤٣٦.

كل آية تتعلق ببيان أمر عقدي أورد شبه أو تأصيل قاعدة أو غير ذلك فإنه يقف عندها مبينا ما فيها من هذه الجوانب الهامة. فمسألة فتنة القبر وعذابه ونعيمه كلما مر بآية تتعلق بهذا الجانب بينه وأظهره وربما ذكر في بعض المواضع الآيات الدالة على ذلك كما فعل عند قوله تعالى: ﴿**ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا**﴾[1].

قال: (وهذه إحدى الآيات الدالة على عذاب القبر والثانية قوله تعالى: ﴿**ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم**﴾[2]. والثالثة: قوله: ﴿**ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر**﴾[3] والرابعة: قوله عن آل فرعون ﴿**النار يعرضون عليها غدواً وعشياً**﴾[4])[5].

وهذا كله المقصود منه بيان هذه العقيدة وتقريرها وترسيخها في الأذهان.

وكما اهتم ابن سعدى بتقرير هذه العقيدة فقد عُنى أيضاً ببيان صفتها وكيفية الافتتان وصفة النعيم وصفة العذاب وغير ذلك من الأمور التي تحصل عند دخول الميت في قبره مما دل عليه الكتاب والسنة.

قال رحمه الله: ﴿فأما الفتنة فإن الناس يفتنون في قبورهم فيقال للرجل من ربك وما دينك وما نبيك فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فيقول المؤمن الله ربي والإسلام ديني ومحمد ﷺ نبي وأما المرتاب فيقول هاه هاه لا أدرى سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته فيضرب بمرزبه من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعها الإنسان لصعق.

وهذا الابتلاء والامتحان لكل عبد فأما من كان مؤمناً إيماناً صحيحاً ثبته الله ولقنه الجواب الصحيح للملكين كما قال تعالى: ﴿**يثبت الله الذين أمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة**﴾ فذكر أن تثبيته لهم جزاء لهم على إيمانهم في الدنيا فالمؤمن يجيب الجواب الصحيح وإن كان عامياً أو أعجمياً وأما الكافر والمنافق ممن كان في الدنيا غير مؤمن بما جاء به الرسول فإنه يستعجم عليه الجواب ولو كان من أعلم الناس وأفصحهم

---

(١) سورة طه / ١٢٤.

(٢) سورة الأنعام / ٩٣.

(٣) سورة السجدة / ٢١.

(٤) سورة غافر / ٤٥.

(٥) التفسير ١٩٨/٥.

كما قال تعالى: ﴿**ويضل الله الظالمين**﴾ ومن حكمة الله أن نعيم البرزخ وعذابه لا يحس به الأنس والجن بمشاعرهم؛ لأن الله تعالى جعله من الغيب ولو أظهره لفاتت الحكمة المطلوبة.

ثم بعد هذه الفتنة إما نعيم وإما عذاب إلى أن تقوم القيامة الكبرى فتعاد الأرواح إلى الأجساد وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه، وعلى لسان رسوله وأجمع عليها المسلمون فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين...)[1].

كما بين رحمه الله أن دار البرزخ وما فيها من نعيم أو عذاب ليس المقصود منه الخلود والبقاء وإنما هي دار فاصلة بين الدنيا والأخرة ينتقل الناس بعد الدخول إليها إلى دار الخلود والبقاء وهي الدار الآخرة فقال عند تفسيره لسورة التكاثر:

(ودل قوله: ﴿**حتى زرتم المقابر**﴾ أن البرزخ دار المقصود منها النفوذ إلى دار الآخرة؛ لأن الله سماهم زائرين ولم يسمهم مقيمين)[2].

وإلى هنا أكتفي بما يتعلق بمبحث فتنة القبر وعذابه ونعيمه لأنتقل للمبحث الذي يليه وسيكون الحديث فيه عن النفخ في الصور.

---

(١) التنبيهات اللطيفة / ٣٩ ، ٤٠

(٢) التفسير ٦٦٧/٧.

المبحث الثالث
الإيمان بالنفخ بالصور

لقد أخبر الله عز وجل في كتابه بثلاث نفخات:

نفخة الفزع في سورة النمل في قوله: ﴿**ونفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله**﴾[1].

ونفخة الصعق والقيام ذكرهما في قوله: ﴿**ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون**﴾[2])[3].

فالنفخة الأولى هي التي يتغير بها هذا العالم ويفسد نظامه، ويحصل الفزع فيها لشدة ما يقع من هول تلك النفخة.

والنفخة الثانية وهي التي فيها هلاك كل شيء ودماره إلا من استثناه الله كما قال تعالى: ﴿**ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله**﴾.

وأما النفخة الثالثة فهي التي يبعث الناس فيها من قبورهم ويقومون لرب العالمين[4].

وقد ذكر ابن سعدى هذه النفخات بأنواعها، وذكر معنى الصور ومن الموكل بالنفخ فيه، وما يحدث عقب هذه النفخات من هلاك أو دمار أو فزع أو شدة.

قال في تعريف الصور والنافخ فيه: (وهو قرن عظيم لا يعلم عظمته إلا خالقه ومن اطلعه الله على علمه من خلقه، ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام أحد الملائكة المقربين وأحد حملة عرش الرحمن)[5].

فعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: (كيف أنعم وقد

---

(١) سورة النمل / الآية / ٨٧.

(٢) سورة الزمر / الآية / ٦٨.

(٣) الفتاوي لابن تيمية / ٤/ ٢٦٠، ٢٦١، وانظر الفتاوى ١٦/ ٣٥، والنهاية لابن كثير ١/ ٢٥٣ وعارضة الأحوذي لابن العربي ٥ / ٢٥٩.

(٤) لوامع الأنوار البهية للسفاريني ٢/١٦٤.

(٥) التفسير ٦/٤٩٣.

التقم صاحب القرنِ القرنَ وحنىٰ جبهتـه، وأصغى سمعه، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ. قال المسلمون: فكيف تقول يا رسول الله؟ قال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، توكلنا على الله ربنا)[1].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: (جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال ما الصور؟ فقال قرن ينفخ فيه)[2].

وتحدث ابن سعدى عن النفخات الثلاث في تفسيره.

فقال عن نفخ الفزع عند تفسيره لقوله تعالى: **﴿ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين﴾**[3].

(بسبب النفخ في الصور أفزع الناس وارتاعوا وماج بعضهم ببعض خوفاً مما هو مقدمة له إلا من شاء الله ممن أكرمه الله وثبته وحفظه من الفزع)[4].

وقال عن نفخة الصعق والموت عند تفسيره لقوله تعالى: **﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون﴾**[5].

(وهي نفخة الصور تأخذهم وهم لاهون عنها لم تخطر على قلوبهم في حال خصومتهم وتشاجرهم فيما بينهم الذي لا يوجد في الغالب إلا وقت الغفلة، وإذا أخذتهم وقت غفلتهم فإنهم لا ينظرون ولا يمهلون)[6].

وقال عن نفخة البعث والنشور:

عند تفسيره لقوله تعالى: **﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض فجمعناهم جمعا﴾**[7].

(أي إذا نفخ إسرافيل في الصور أعاد الله الأرواح إلى الأجسام ثم حشرهم وجمعهم

---

(١) أخرجه الترمذي ٤/٦٢٠، وقال حديث حسن، وأحمد ٣/٧. وأبونعيم في الحلية ٥/١٠٥، وصححه الألباني، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣/٦٦.

(٢) أخرجه الترمذي ٤/٦٢٠ وقال حديث حسن، وأبوداود ٤/٢٣٦، والدارمي ٢/٣٢٥، وأحمد ٢/١٩٢، والحاكم ٢/٥٠٦ وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. وصححه أحمد شاكر في تحقيقه للمسند ١١/٥٨.

(٣) سورة النمل / ٨٧.

(٤) التفسير ٥/٦٠٤. بتصرف.

(٥) سورة يس / الآية ٤٩.

(٦) التفسير ٦/٣٥٢.

(٧) سورة الكهف / الآية ٩٩.

لموقف القيامة، الأولين منهم والآخرين والكافرين والمؤمنين ليسألوا ويحاسبوا ويجازوا بأعمالهم)[1].

وقال عند قوله تعالى: ﴿**ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون**﴾[2].

(فإذا نفخ في الصور خرجوا من الأجداث والقبور ينسلون إلى ربهم أي: يسرعون للحضور بين يديه لا يتمكنون من التأني والتأخر)[3].

---

(١) التفسير / ٥ / ٨٠.

(٢) سورة يس / آية ٥١.

(٣) التفسير ٦/٣٥٢ وانظر أيضا التفسير ٧/٤٦٠، ٥/١٨٧، ٥/٣٨٠.

المبحث الرابع
الإيمان بالبعث والنشور

وبعـد المكث في دار البرزخ يبعث الله من في القبور ويعيدهم معاداً جسمانياً، فيجمـع الله عز وجـل أجـزاءهم الأصلية ويعيد تركيبها كما كانت وإن تفرقت وبليت وتحرقت، ويعيد الأرواح إليها.

فقد دل على ذلك نصوص الكتاب والسنة. فالله سبحانه أخبر في كتابه عن هذا المعاد ورد على من أنكره بأنواع الرود. وكذلك رسوله ﷺ أخبر في عدة أحاديث صحيحة عن المعاد والبعث والنشور، واتفق علماء المسلمين على ذلك بل إن البعث والمعاد متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى، ولم ينكره إلا الدهرية والمشركون.

قال العـلامة المحقق ابن القيم في كتابه الروح: (معاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى)[1].

أما أدلة الكتاب على ذلك فكثيرة منها:

قوله تعالى: **﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾**[2].

وقوله: **﴿ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور﴾**[3].

وقوله: **﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾**[4].

وقوله: **﴿الله يبدؤا الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون﴾**[5].

---

(١) نقله السفاريني في لوامع الأنوار ٣/١٥٧ وعزاه لابن القيم في كتابه الروح. قلت: ولم أهتد إليه فيه، فلعل ابن القيم ذكره في كتابه الكبير في الروح، والذي أشار إليه في كتابه الروح هذا (ص ٣٨) بقوله بعد كلام ذكره: (... وقد ذكرناها في كتابنا الكبير في معرفة الروح والنفس).

(٢) سورة طه / الآية ٥٥.

(٣) سورة الحج / الآية ٧.

(٤) سورة المؤمنون / الآية ١٦.

(٥) سورة الروم / الآية / ١١.

وقوله: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير﴾[1].

وقوله: ﴿ثم السبيل يسره، ثم أماته فأقبره، ثم إذا شاء أنشره﴾[2]

وغيرها من النصوص. وهي كثيرة جداً بل القرآن كله من فاتحته إلى خاتمته مملوء بذكر أحوال البعث والنشور وما بعده، وأما الأحاديث في هذا الباب فكثيرة جداً.

منها حديث ابن عباس رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: قال الله ﴿كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياى فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياى فقوله لي ولد فسبحاني أن أتخذ صاحبة ولا ولدا﴾[3].

ومنها حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (إن في الإنسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً فيه يركب يوم القيامة، قالوا أي عظم هو يا رسول الله قال: عجب الذنب)[4].

ومنها حديث أبي هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ (أسرف رجل على نفسه فلما حضره الموت أوصى بنيه فقال: اذا أنا مت فأحرقوني ثم اسحقوني ثم اذروني في الريح في البحر. فو الله لإن قدر علي ربي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً. قال ففعلوا ذلك به فقال للأرض أدى ما أخذت فإذا هو قائم فقال له ما حملك على ما صنعت؟ فقال خشيتك يارب أو قال مخافتك، فغفر له بذلك)[5].

والنصوص في ذلك كثيرة بل إن هذا الأمر محل اتفاق الرسل، والكتب مطبقة على حصول ذلك، فالواجب الإيمان بذلك إذ هو من الإيمان باليوم الآخر الذي هو أحد أركان الإيمان.

وقد كفر الله من أنكره بقوله: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾[6].

وقد اعتنى ابن سعدى بتقرير هذا الأمر، وبيان شواهده وأدلته الحسية والمعنوية

---

(١) سورة لقمان / الآية / ٢٨.

(٢) سورة عبس / الآيات ٢٠، ٢١، ٢٢.

(٣) أخرجه البخاري ١٤٩/٥.

(٤) أخرجه مسلم ٢٢٧١/٤.

(٥) أخرجه مسلم ٢١١٠/٤، وأخرجاه بنحوه من حديث أبي سعيد الخدري. البخاري ٢٠٠/٨، ومسلم ٢١١١/٤.

(٦) سورة التغابن / الآية / ٧.

قال: (اتفقت الكتب السماوية والرسل العظام واتباعهم على اختلاف طبقاتهم وتباين أقطارهم وأزمانهم وأحوالهم على الإيمان به والاعتراف به وكم أقام الله عليه من الأدلة الحسية والمشاهدة ما يدل أكبر الدلالة عليه وكم أشهد عباده في هذا الدار نماذج من الثواب والعقاب وأراهم حلول المثلات بالمكذبين وأنواع العقوبات الدنيوية بالمجرمين، كما أراهم نجاة الرسل وأتباعهم المؤمنين وأكرمهم في الدنيا قبل الآخرة وكم أبطل الله شبهة يقدح بها في المعاد. . .)(1).

وقد قرر الله عز وجل البعث والنشور في كتابه العزيز بصيغ متعددة وأساليب متنوعة .

فتارة يخبر سبحانه عن قدرته المطلقة في الخلق والإيجاد وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

وتارة يبين أن إيجاده للناس من العدم وخلقهم لهم ابتداء يدل أكبر دلالة على قدرته على إعادتهم بعد موتهم وفنائهم وهذا الأخير أهون. وتارة يخبر أن الذي قدر على إيجاد السموات والأرض وما فيهما من صنع الله، لأكبر دليل على قدرة الله على البعث بعد الموت.

وتارة يبين أن إحياءه الأرض الهامدة الميتة الخالية من الماء والزروع يدل أكبر دلالة على قدرته على خلق الناس وأن الذي أحياها سيحيي الموتى.

وتارة يضرب الأمثلة الحسية المشاهدة في بعض الناس فيميتهم ويحييهم ليبين لهم قدرته على ذلك وليعتبر غيرهم وهذا كثير في القرآن كما أخبر الله عن صاحب البقرة، والذي مر على القرية الخاوية وقصة الألوف من بني إسرائيل، وقصة أصحاب الكهف وغيرها من أنواع الأدلة التي لا تدع مجالا للشك ولا سبيلا للتردد.

ومن نصوص القرآن المبينة لذلك قوله تعالى: **﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين، أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موته فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله**

---

(1) الفتاوي السعدية / ٤٩.

على كل شيء قدير، وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحييَ الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾[2].

وقوله: ﴿أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين، وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم، قل يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون، أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾[3].

وقوله: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿وهو الذي يبدوءا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه، وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبت من كل زوج بهيج، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير﴾[6].

وقوله تعالى: ﴿أيحسب الانسان أن يترك سدى، ألم يكن نطفة من مني يمنى، ثم كان علقة فخلق فسوى، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى﴾[7].

---

(١) سورة البقرة / الآيات ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠.
(٢) سورة الأحقاف / الآية ٣٣.
(٣) سورة يس / الآيتان ٧٧، ٧٨.
(٤) سورة البقرة / الآية ٢٤٣.
(٥) سورة الروم / الآية ٢٧.
(٦) سورة الحج / الآيتان ٥،٦.
(٧) سورة القيامة / الآيات ٣٦: ٤٠.

وغيرها من الآيات القرآنية المقررة للمعاد والنشور، بالأساليب المتعددة والطرق المتنوعة.

وقد قعَّد ابن سعدى في كتابه القواعد الحسان قاعدة ذكر تحتها جملة من هذه الأساليب المتنوعة في تقرير المعاد. وهي («القاعدة الثامنة» طريقة القرآن في تقرير المعاد) بين تحت هذه القاعدة أن المعاد أحد الأصول المتفق عليها بين الرسل والشرائع كالتوحيد والنبوات.

ثم قال: (وهذا قد أكثر الله من ذكره في كتابه الكريم. وقرره بطرق متنوعة:

منها: إخباره وهو أصدق القائلين عنه وعما يكون فيه من الجزاء الأوفى، مع إكثار الله من ذكره، فقد أقسم عليه في ثلاثة مواضع من كتابه، كقوله ﴿**لا أقسم بيوم القيامة**﴾[1].

ومنها: الإخبار بكمال قدرة الله تعالى، ونفوذ مشيئته، وأنه لا يعجزه شيء، فإعادة العباد بعد موتهم فرد من أفراد آثار قدرته.

ومنها: تذكيره للعباد بالنشأة الأولى، وأن الذي أوجدهم ولم يكونوا شيئاً مذكوراً، لابد أن يعيدهم كما بدأهم، وأن الإعادة أهون عليه. وأعاد هذا المعنى في مواضع كثيرة بأساليب متنوعة.

ومنها: إحياؤه الأرض الهامدة الميتة، بعد موتها، وأن الذي أحياها سيحيى الموتى، وقرر ذلك بقدرته على ما هو أكبر من ذلك وهو خلق السموات والأرض والمخلوقات العظيمة، فمتى أثبت المفكرون ذلك، ولن يقدروا على إنكاره، فلأي شيء يستبعدون إحياء الموتى.

وقرر ذلك بسعة علمه وكمال حكمته، وأنه لا يليق به، ولا يحسن أن يترك خلقه سدى مهملين لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون وهذا طريق قرر به النبوة وأمر المعاد.

ومما قرر به البعث ومجازاة المحسنين بإحسانهم، والمسيئين باسائتهم ما أخبر به من أيامه وسننه سبحانه في الأمم الماضية والقرون الغابرة، وكيف نجى الأنبياء وأتباعهم، وأهلك المكذبين لهم المنكرين للبعث، ونوع عليهم العقوبات وأحل بهم المثلات، فهذا جزاء معجل ونموذج من جزاء الآخرة أراه الله عباده، ليهلك من هلك عن بينه ويحيى من حيى عن بينة.

---

(١) سورة القيامة / الآية / ١.

ومن ذلك: ما أرى الله عباده من إحيائه الأموات في الدنيا كما ذكر الله عن صاحب البقرة والألوف من بني إسرائيل، والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم الخليل والطيور وإحياء عيسى ابن مريم للأموات وغيرها مما أراه الله عباده في هذه الدار؛ ليعلموا أنه قوى ذو اقتدار، وأن العباد لابد أن يردوا دار القرار، إما الجنة أو النار.

وهذه المعاني أبداها الله وأعادها في محال كثيرة. والله أعلم)[1].

وقد جمع الله أكثر هذه الأساليب المتنوعة في أواخر سورة «يس» حيث قال سبحانه:

﴿أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين، وضرب لنا مثلا ونسي حلقه قال من يحيى العظام وهي رميم، قل يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون، أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾[2].

فهذه الآيات جمع الله فيها أدلة كثيرة على المعاد، وفيها أبلغ رد على من ينكره.

قال ابن سعدى عند تفسيره لها: (وهذه الآيات الكريمات فيها ذكر شبهة منكري البعث، والجواب عنها بأتم جواب وأحسنه وأوضحه).

ثم ذكر شبهة المنكر للبعث أو الشاك فيه، وهي قوله من يحيى العظام وهي رميم حيث قاس قدرة الخالق على المخلوق وهذا الأمر عنده مستبعد على ما يعهد من عادة البشر.

ثم استخلص ابن سعدى من هذه الآيات ستة أدلة فيها أبلغ رد على هذا المنكر[3].

قال: (فأجاب تعالى عن هذا الاستبعاد بجواب شاف كاف فقال: **﴿قل يحيها الذي أنشأها أول مرة﴾** وهذا بمجرد تصوره يعلم به علماً يقينياً لا شبهة فيه أن الذي أنشأها أول مرة قادر على الإعادة ثاني مرة، وهو أهون على القدرة إذا تصوره المتصور.

﴿وهو بكل خلق عليم﴾ هذا أيضاً دليل ثان من صفات الله تعالى وهو أن علمه تعالى محيط بجميع مخلوقاته في جميع أحوالها في جميع الأوقات.

---

(١) القواعد الحسان / ٢٤، ٢٥.

(٢) سورة يس / الآيات ٧٧: ٨٣.

(٣) التفسير ٦/٣٦٣.

ويعلم ما تنقص الأرض من أجساد الأموات وما يبقى ويعلم الغيب والشهادة فإذا أقر العبد بهذا العلم العظيم علم أنه أعظم وأجل من إحياء الله الموتى من قبورهم.

ثم ذكر دليلاً ثالثاً فقال: ﴿**الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون**﴾ فإذا أخرج النار اليابسة من الشجر الأخضر الذي هو غاية الرطوبة مع تضادهما وشدة تخالفهما، فإخراجه الموتى من قبورهم مثل ذلك.

ثم ذكر دليلاً رابعاً فقال: ﴿**أو ليس الذي خلق السموات والأرض**﴾ على سعتهما وعظمهما ﴿**بقادر على أن يخلق مثلهم**﴾ أي: أن يعيدهم بأعيانهم ﴿**بلى**﴾ قادر على ذلك فإن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس.

﴿**وهو الخلاق العليم**﴾ وهذا دليل خامس فإنه تعالى الخلاق الذي جميع المخلوقات متقدمها ومتأخرها صغيرها وكبيرها كلها أثر من آثار خلقه وقدرته وأنه لا يستعصى عليه مخلوق أراد خلقه فإعادته للأموات فرد من أفراد آثار خلقه ولهذا قال:

﴿**إنما أمره إذا أراد شيئاً**﴾ نكرة في سياق الشرط فتعم كل شيء ﴿**أن يقول له كن فيكون**﴾ أي في الحال من غير تمانع.

﴿**فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء**﴾ وهذا دليل سادس، فإنه تعالى هو الملك المالك لكل شيء الذي جميع ما سكن في العالم العلوي والسفلي ملك له وعبيد مسخرون مدبرون يتصرف فيهم بأقداره الحكمية وأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية، فاعادته إياهم بعد موتهم لينفذ فيهم حكم الجزاء من تمام ملكه ﴿**وإليه ترجعون**﴾ من غير امتراء ولا شك لتواتر البراهين القاطعة والأدلة الساطعة على ذلك فتبارك الذي جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور)[1] أ.هـ.

ثم إن الناس بعد المعاد والنشور يواجهون أهوالاً عظيمة وشدائد مخيفة، ينقسم الناس بعدها إلى قسمين أو فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير.

وهذا ما سيدور عليه حديثنا في المبحث التالي:

---

(١) التفسير ٦/٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥.

المبحث الخامس

الإيمان باليوم الآخر بعد البعث

تقدم معنا في مطلع هذا الفصل حديثٌ مجملٌ عن وجوب الإيمان باليوم الآخر وأنه أحد أركان الإيمان الستة. وأنه من الإيمان بالغيب، وتحدثنا عن الفوائد العظيمة الحاصلة لمن آمن به.

وأما حديثنا هنا فسيكون عن بعض تفاصيل أحوال اليوم الآخر بعد النفخ في الصور والبعث والنشور، مما يكون في ذلك اليوم من أهوال وشدائد، وما فيه من حشر للخلائق وعرض للأعمال، وعن الميزان والصراط والحوض والشفاعة، وعن الجنة وما فيها من النعيم المقيم، وعن النار وما فيها من العذاب الأليم.

وغير ذلك من أحوال ذلك اليوم، مما تواترت به النصوص، ووجب الإيمان به.

وهذه الأمور المتقدمة تناولها ابن سعدى في مؤلفاته، وبين أنها حق، وأن الإيمان بها واجب، وأنها داخله في الإيمان باليوم الآخر، إذ كل ما ورد ذكره في القرآن الكريم أو في السنة المطهرة من أحوال ذلك اليوم كله داخلٍ في الإيمان باليوم الآخر.

قال ابن سعدى في إحدى خطبه مبينا ما ينبغي للمسلمين اعتقاده في اليوم الآخر: (ونؤمن بجميع ما جاء به الكتاب والسنة من أحوال اليوم الآخر والشفاعة والحوض والميزان والصراط وصحائف الأعمال، وما ذكر من صفات الجنة والنار وصفات أهلهما، وكل ذلك حق لا ريب فيه وكله داخل في الإيمان باليوم الآخر)[1].

وقال في موضع آخر من مؤلفاته: (فكل ما جاء به الكتاب والسنة، مما يكون بعد الموت فإنه من الإيمان باليوم الآخر كأحوال البرزخ وأحوال يوم القيامة وما فيها من الحساب والثواب والعقاب والشفاعة والميزان والصحف المأخوذة باليمين والشمال، وأحوال الجنة والنار، وصفات أهلهما، وأنواع ما أعده الله فيهما لأهلهما أجمالاً وتفصيلاً، وكل ذلك داخل في الإيمان باليوم الآخر)[2].

---

(١) الخطب المنبرية / ٧٦.

(٢) الفتاوي السعدية / ١٦.

وقد كان ابن سعدى يعنى في مؤلفاته ببيان ما ورد ذكره في القرآن والسنة مما يتعلق باليوم الآخر، فتحدث عن الحشر ووزن الأعمال والشفاعة والحوض والصراط والجنة والنار وغيرها.

وفيما يلي أذكر جملة منها وكلام ابن سعدى فيها:

كلامه في الحشر والموازين:

بعد بعث الناس وخروجهم من قبورهم، يقفون في المحشر أمام ربهم، لينالوا جزاء أعمالهم في الدنيا، وهو يوم عصيب لا يعلم هَوْلَهُ وعِظمه إلا الله، يجمع الله فيه الأولين والآخرين من الخلق إنسهم وجنهم وصغيرهم وكبيرهم حتى الوحوش فإنها تحشر، وذلك كله من كمال عدله سبحانه ولطفه وإحسانه.

قال تعالى: ﴿**وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا**﴾[1].

وقال تعالى: ﴿**واتقوا الله الذي إليه تحشرون**﴾[2].

وقال تعالى: ﴿**يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً، وذلك حشر علينا يسير**﴾[3].

وقال تعالى: ﴿**وإذا الوحوش حشرت**﴾[4].

قال ابن سعدى في وصف ذلك اليوم: (إذا نفخ في الصور نفخة البعث يقوم الناس من أجداثهم كاملي الخلقة ينظرون ما يستقبلهم من هذه الحياة الأخروية التي يجازى فيها العباد بأعمالهم حسنها وسيئها.

أما المؤمنون الطائعون فيقومون مطمئنين طامعين في فضل ربهم ورحمته مستبشرين بثوابه وعفوه ومغفرته، وأما المجرمون فيقومون فزعين خائفين متحسرين يدعون بالويل والثبور، يقولون: ياويلنا من بعثنا من مرقدنا؟ فيساقون إلى جهنم وردا، فحينئذ تكثر القلاقل والأهوال ويشيب الولدان من هول ذلك اليوم وفظاعته ﴿**يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد**﴾[5].

﴿**يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن**

---

(١) سورة الكهف / الآية ٤٧.

(٢) سورة المائدة / الآية ٩٦.

(٣) سورة ق / الآية ٤٤.

(٤) سورة التكوير / الآية ٥.

(٥) سورة الحج / ١.

يغنيه. وجوه يومئذ مسفره ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة﴾[1]، ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾[2]، وتكور الشمس والقمر وتنتشر النجوم فتذهب هذه الأنوار المشاهدة وتشرق الأرض بنور ربها، وينزل الله لفصل القضاء بين عباده ومحاسبتهم على أعمالهم، أما المؤمنون فيحاسبون حساباً يسيراً يقررهم بذنوبهم ثم يغفرها ويسترها عن الخلائق. ويضاعف لهم الحسنات ويعطيهم من فضله وإحسانه ما لا تبلغه أعمالهم، ويعطون كتبهم بأيمانهم إكراما واحتراما كما تبيض وجوههم وتثقل موازينهم. ويغتبطون بذلك ويستبشرون به فيقولون لإخوانهم ومعارفهم ومحبيهم هاؤم اقرؤا كتابيه إني ظننت - أي: أيقنت - أني ملاق حسابيه فهو في عيشة راضية... الآيات[3]، ويساقون إلى الجنة زمراً كل طائفة منهم مع نظرائهم في الخير بحسب طبقاتهم وسبقهم...

ثم قال: وأما الكافرون المجرمون فيحاسبهم الله على ما أسلفوه من الجرائم ويقرعهم ويخزيهم بين الخلائق، ويعطون كتبهم من وراء ظهورهم بشمائلهم، وتسود منهم الوجوه، وتخفف موازينهم، ويساقون إلى جهنم جياعاً عطاشاً منزعجين مرعوبين زمراً، كل طائفة تحشر مع نظيرها من أهل الشر....)[4].

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا﴾[5].

(ويحشر الله جميع الخلق على تلك الأرض فلا يغادر منهم أحداً بل يجمع الأولين والآخرين، من بطون الفلوات، وفغور البحار ويجمعهم بعد ما تفرقوا ويعيدهم بعد ما تمزقوا خلقاً جديداً.

فيعرضون عليه صفاً ليستعرضهم وينظر في أعمالهم ويحكم فيهم بحكمه العدل الذي لا جور فيه ولا ظلم، ويقول لهم: ﴿لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة﴾[6] أي بلا مال ولا أهل ولا عشيرة، ما معهم إلا الأعمال والمكاسب في الخير والشر التي كسبوها

---

(١) سورة عبس / الآيات ٣٤:٤٢.
(٢) سورة الفرقان / الآيتان ٢٥، ٢٦.
(٣) سورة الحاقة / الآيات ١٩:٣٧.
(٤) الخلاصة / ٢٦، ٢٧، ٢٨. بتصرف.
(٥) سورة الكهف الآية ٤٧.
(٦) سورة الكهف / الآية ٤٨.

كما قال تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾[1] . . . . .)[2].

ثم بعد ذلك تنشر الدواوين وتوزن الأعمال فآخذ كتابه باليمين، وآخذ كتابه بالشمال.

﴿فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه، إني ظننت أني ملاق حسابيه، فهو في عيشة راضية، في جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية، وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول ياليتني لم أوت كتابيه، ولم أدر ما حسابيه، ياليتها كانت القاضية، ما أغني عني ماليه، هلك عني سلطانيه، خذوه فغلوه، ثم الجحيم صلوه، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾[3].

قال ابن سعدى: (وحينئذ تحضر الأعمال التي كتبها الملائكة الأبرار فتطير لها القلوب وتعظم من وقعها الكروب وتكاد لها الصم الصلاب تذوب)[4].

وقال: (وفي يوم القيامة مواضع يشتد كربها ويعظم وقعها كالميزان الذي يميز به أعمال العباد وينظر فيه بالعدل ماله وما عليه، وتبين فيه مثاقيل الذر من الخير والشر.

فمن ثقلت موازينه بأن رجحت حسناته على سيئاته فأولئك هم المفلحون لنجاتهم من النار واستحقاقهم الجنة وفوزهم بالثناء الجميل.

ومن خفت موازينه بأن رجحت سيئاته على حسناته وأحاطت به خطيئاته فأولئك الذين خسروا أنفسهم خسارة أبدية وشقاوة سرمدية في جهنم خالدون لا يخرجون منها أبد الآبدين)[5].

كلامه في الحوض المورود:

لقد تواترت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ في ثبوت الحوض المورود في عرصات القيامة لمحمد ﷺ، وقد ورد في السنة أوصاف كثيرة لهذا الحرض.

عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حوضى

---

(١) سورة الأنعام / الآية ٩٤.

(٢) التفسير ٥/٤٥ ، ٤٦.

(٣) سورة الحاقة / الآيات ١٩ : ٣٢.

(٤) التفسير ٥/٤٦.

(٥) التفسير ٥/ ٣٨٠ بتصرف.

مسيرة شهر وزواياه سواء، وماؤه أبيض من الورق وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء فمن شرب منه فلا يظمأ بعده أبدا»[1].

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قلت: يارسول الله ما آنية الحوض؟ قال: «والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها ألا في الليلة المظلمة المصحية. آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزبان من الجنة من شرب منه لم يظمأ عرضه مثل طوله ما بين عمان إلى أيله ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل»[2].

يقول ابن سعدى: (وفي عرصات القيامة الحوض المورود لمحمد ﷺ ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل آنيته عدد نجوم السماء طوله شهر وعرضه شهر من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا)[3].

ويقول أيضاً معدداً ما يناله المؤمنون يوم القيامة من الخير العظيم (.... كما يردون في عرصات القيامة حوض نبيهم فيشربون منه شربة هنيئة لا يظمؤون بعدها)[4].

كلامه في الصراط:

الصراط جسر ينصب على متن جهنم ليعبر الناس من فوقه إلى الجنة، فمنهم من يتمكن من العبور بسرعة، ومنهم من لا يعبر إلا ببطأ، ومنهم من لا يتمكن من العبور فيسقط في جهنم.

وقد ورد في ذكر الصراط وصفته وصفة المرور عليه أحاديث كثيرة:

منها حديث الشفاعة الطويل المتفق على صحته وفيه يقول الرسول ﷺ (... ويضرب الصراط بين ظهرى جهنم فأكون أنا وأمتي أول من يجيزها، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم السعدان؟ قالوا نعم يا رسول الله. قال فإنها مثل شوك السعدان، غير أنه لا يعلم ما قدر عظمها إلا الله عز وجل تخطف الناس بأعمالهم فمنهم الموبق بعمله والموثق بعمله ومنهم المخردل أو المجازى أو نحوه)[5] الحديث.

---

(١) أخرجه مسلم ٤/١٧٩٣.
(٢) أخرجه مسلم ٤/١٧٩٨.
(٣) التنبيهات اللطيفة / ٤١.
(٤) الخلاصة / ٢٧.
(٥) البخاري ٨/١٧٩، ومسلم ١/١٦٣، وأخرجه أحمد ٣/١١ من حديث أبي هريرة.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال ﷺ (. . . . ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهرى جهنم قلنا: يارسول الله وما الجسر؟ قال: مدحضه مزله عليه خطاطيف وكلاليب وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء تكون بنجد يقال لها السعدان، يمر المؤمن عليها كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم، وناج مخدوش ومكدوس في نار جهنم حتى يمر آخرهم يسحب سحباً)[1] الحديث.

يقول ابن سعدى: (وفي ذلك الموطن ماثم إلا النار قد برزت وليس لأحد نجاة إلا بالعبور على الصراط وهذا لا يستطيعه إلا أهل الإيمان الذين يمشون في نورهم، وأما غير المؤمنين فليس لهم عند الله عهد في النجاة من النار)[2]

ويقول في وصف الناس حال عبورهم الصراط: (ويمرون على الصراط على قدر أعمالهم كلمح البصر وكالبرق الخاطف وكأجاويد الخيل والإبل وكسعي الرجال وكمشيهم ودون ذلك. . .)[3].

كلامه في الشفاعة:

قال ابن تيمية رحمه الله: (وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته.

وله ﷺ في يوم القيامة ثلاث شفاعات:

أما الشفاعة الأولى فيشفع في أهل الموقف حتى يقضي بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم حتى تنتهى الشفاعة إليه.

وأما الشفاعة الثانية فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة، وهاتان الشفاعتان خاصتان له.

وأما الشفاعة الثالثة فيشفع فيمن استحق النار، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم، فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها.

ويخرج الله من النار أقواماً بغير شفاعة بل بفضله ورحمته ويبقى في الجنة فضل عمن دخلها من أهل الدنيا فينشىء الله لها أقواماً فيدخلهم الجنة)[4].

---

(١) البخاري ٨/١٨١، ومسلم ١/١٦٧. واللفظ للبخاري.

(٢) التفسير ٦/٣٥٨ بتصرف يسير.

(٣) الخلاصة / ٢٧ . . وانظر التفسير ٥/١٣٠.

(٤) العقيدة الواسطية / ١٤٠، ١٤١، ١٤٢.

وهذا الكلام الجامع في الشفاعة الذي ذكره شيخ الإسلام دلت عليه نصوص كثيرة في الكتاب والسنة.

منها: قوله تعالى: ﴿**ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون**﴾[1]

وقوله: ﴿**ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون**﴾[2].

وقوله: ﴿**يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضي له قولا**﴾[3].

وقوله: ﴿**من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه**﴾[4].

ومن أدلة السنة حديث أنس بن مالك الطويل في ذكر الشفاعة وفيه أن الناس يأتون آدم ليشفع لهم فيعتذر ويأتون إبراهيم فيعتذر ويأتون موسى فيعتذر ويأتون عيسى فيعتذر ثم يأتون محمداً ﷺ فيقول «أنا لها».

قال ﷺ: (فانطلق فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، فأقوم بين يديه، فأحمده بمحامد لا أقدر عليه إلا أن يلهمنيه الله، ثم أخر له ساجداً فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع. فأقول رب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها فانطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع. فأقول أمتي أمتي فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار فأنطلق فأفعل»[5].

وعلى هذا فإن الشفاعة حق، وهي ثابتة للرسول ﷺ، ولمن يأذن له الله عز وجل من النبيين والصديقين والملائكة.

قال ابن سعدي: (وأما الشفاعة عنده بإذنه من الأنبياء والأصفياء لأهل الجرائم فإنها ثابتة كما أثبتها في عدة مواضع من كتابه؛ وذلك لأنها دالة على كمال رحمته وعموم إحسانه فإنها من رحمته بالشافع والمشفوع له، فالشافع ينال بها الأجر والثناء من الله ومن خلقه، والمشفوع له يرحمه الله على يد من أذن له بالشفاعة فيه، ومع هذا فلا يأذن لأحد

---

(١) سورة يونس / الآية ٣.

(٢) سورة الأنبياء / ٢٨.

(٣) سورة طه / الآية ١٠٩.

(٤) سورة البقرة / الآية ٢٥٥.

(٥) أخرجه مسلم ١/١٨٢.

أن يشفع إلا فيمن رضى قوله وعمله وهو من كان مخلصاً متابعاً لرسول الله)[1].

وقد أكد رحمه الله ونبه كثيراً على أن الشفاعة لا تكون إلا لأهل التوحيد وأما من سواهم فلا تنفعهم شفاعة الشافعين.

قال في خلاصة التفسير: (.... ولا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله، ولا يرضى إلا عمن قام بتوحيده واتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا فليس له في الشفاعة نصيب، وأسعد الناس بشفاعة محمد ﷺ من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه)[2].

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه**﴾[3]. (والله لا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضى ولا يرتضى إلا توحيده، واتباع رسله فمن لم يتصف بهذا فليس له في الشفاعة نصيب)[4].

وقال عند قوله تعالى: ﴿**وما من شفيع إلا من بعد إذنه**﴾[5].

(فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة، ولو كان أفضل الخلق حتى يأذن الله، ولا يأذن إلا لمن ارتضى. ولا يرتضى إلا أهل الإخلاص والتوحيد له)[6].

كلامه في الجنة:

إن الجنة هي دار كرامة الله لأولياءه المؤمنين، وهي مثوى عباده الطائعين، وقد أعد الله فيها من النعيم مالا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[7] قال أبوهريرة اقرؤوا ان شئتم: ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين**﴾[8].

وقد تحدث ابن سعدى عن الجنة كثيراً ولا سيما في تفسيره للقرآن وتناول وصف الجنة وما فيها من أنواع النعم وصنوف المنن، بأسلوب جامع بليغ.

---

(١) الحق الواضح المبين / ٦.

(٢) الخلاصة / ١٣.

(٣) سورة البقرة / الآية ٢٥٥.

(٤) التفسير ١/٣١٤.

(٥) سورة يونس / الآية ٣.

(٦) التفسير ٣/٣٢٣.

(٧) أخرجه البخاري ٦/١١، ومسلم ٤/٢١٧٤، وأحمد ٥/٣٣٤.

(٨) سورة السجدة / الآية ١٧.

قال رحمه الله في وصف الجنة من حين دخولها إلى ما يلقاه المؤمنون فيها من النعم: (حتى اذا جاؤوها وفتحت أبوابها بشفاعة محمد ﷺ فتلقاهم خزنة الجنة يسلمون عليهم، ويهنئـونهم بالنجـاة من العذاب وحصول الخير والثواب والخلود الأبدى بسبب طيبهم، فيقـولـون لهم سلام عليكم طبتم: أي طابت قلوبكم بالعقـائد الصحيحة الصادقة، والأخلاق الجميلة وألسنتكم بذكر الله والثناء عليه، وجوارحكم بخدمته والقيام بطاعته، فادخلوها خالدين.

فإذا دخلوها ورأوا ما فيها من النعيم المقيم مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، حمدوا الله على منته عليهم بالسوابق والإيمان والأعمال الصالحة وبانجاز ما وعـدهم به على ألسنة رسله، وعلى أن الله أورثهم الجنة يتبوؤون من خيراتها حيث يشاؤون وأنى يشاؤون مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من نعيم القلوب والأرواح، ومن نعيم الأبدان والأجسام ﴿**على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين، يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون**﴾ خيرات الأخلاق حسان الوجوه، قد جمع الله لهن حسن البواطن والظواهر فهن سرور وقرة النواظر.

وتمام ذلك أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً، وأنه يقال لهم إن لكم أن تشبوا فلا تهرموا، وإن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، وان لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا، فلهم كل ما يشاءون فيها وتتعلق به أمانيهم، ولهم فوق ذلك مما لم تبلغه أمانيهم، ولهم نعيم أعلى من ذلك كله وهو التمتع بالنظر إلى وجهه الكريم، وسماع خطابه والابتهاج برضاه وقربه، والسرور بمحبته وذكره وحمـده والثنـاء عليه وشكره، مما يشاهدون من كثرة الخيرات، وسوابغ النعم والهبات، وزيادة النعيم وتواصله، ومما يزدادون من معرفته والأنس به، فتبارك الله ذو الجلال والإكرام)[1].

وله ـ رحمه الله ـ خطبه بليغة ذكر فيها جملة كبيرة من أوصاف الجنة ونعيمها ضمن مجمـوعة خطبه «الفواكة الشهية في الخطب المنبرية» قال في آخرها بعد تعداد جملة من أوصـاف الجنـة (. . . . لمثـل هذه الـدار فليعمـل العـاملون وفي أعمالها الموصلة إليها فليتنافس المتنافسون فواعجباً كيف نام طالبها، وكيف لم يسمح بمهرها خاطبها، وكيف طاب القرار في هذه الدار بعد سماع أخبارها، وكيف قر للمشتاقين القرار دون معانقة

---

(١) الخلاصة / ٢٧، ٢٨.

أبكارها، طريقها يسير على من يسره الله عليه وهو امتثال الأوامر واجتناب النواهي والتوبة والإنابة إليه)[1].

كلامه في الرؤية:

وأما أعظم نعيم يناله المؤمنون في الجنة فهو رؤية الله عز وجل والتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم.

قال تعالى: ﴿**إن المتقين في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر**﴾[2].

وقال تعالى: ﴿**للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**﴾[3].

وقال تعالى: ﴿**لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد**﴾[4].

والمراد بالمزيد والزيادة هنا، رؤية الله عز وجل في الجنة، قال ابن كثير في تفسيره:

(وقد رُوى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبدالله بن عباس وسعيد بن المسيب وعبدالرحمن بن أبي ليلى وعبدالرحمن بن سابط ومجاهد وعكرمه وعامر بن سعد وعطاء والضحاك والحسن وقتاده والسدى ومحمد بن إسحاق وغيرهم من السلف والخلف، وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ)[5].

ومن هذه الأحاديث ما رواه الامام أحمد وابن ماجه من حديث صهيب الرومي رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿**للذين أحسنوا الحسنى وزياده**﴾ وقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى منادٍ يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون وما هو ألم يثقل موازيننا؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة وينجنا من النار؟ قال فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه فو الله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم»[6].

قال ابن سعدى (..... إن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة في الجنة ويتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات ويبتهجون بخطابه ويفرحون بقربه كما ذكر الله ذلك في عدة آيات من القرآن وتواتر فيه النقل عن رسول الله)[7].

---

(١) الفواكة الشهية / ٥٠.

(٢) سورة القمر / الآيتان ٥٤، ٥٥.

(٣) سورة يونس / الآية ٢٦.

(٤) سورة ق / الآية ٣٥.

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤١٤.

(٦) أحمد ٤/٣٣٢، ابن ماجه ١/٦٧، وصححه الألباني. انظر صحيح الجامع ١/٢٠٢.

(٧) التفسير ٧/٥٩٠.

وقد استدل على ثبوت رؤية المؤمنين لربهم في الجنة بأدلة كثيرة من القرآن الكريم.

فقال عند تفسيره لقوله تعالى ﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾[1]. (أي: ينظرون إلى ربهم على حسب مراتبهم فمنهم من ينظر كل يوم بكرة وعشياً، ومنهم من ينظر كل جمعة مرة واحدة، فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم وجماله الباهر، الذي ليس كمثله شيء، فاذا رأوه نسوا ما هم فيه من النعيم، وحصل لهم من اللذة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه، ونضرت وجوههم فازدادوا جمالاً إلى جمالهم)[2].

وقال عند قوله تعالى: ﴿**لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد**﴾[3]. (.... وأعظم ذلك وأجله وأفضله النظر إلى وجهه الكريم والتمتع بسماع كلامه والتنعم بقربه)[4].

وقال عند قوله تعالى: ﴿**على الأرائك ينظرون**﴾[5].

(إلى ما أعد الله لهم من النعيم وينظرون إلى وجه ربهم الكريم)[6].

وقال عند قوله تعالى ﴿**كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون**﴾[7].

(.... ودل مفهوم هذه الآية على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة في الجنة)[8].

والمقصود أن الرؤيةَ ثابتة للمؤمنين فسيرونه عياناً كما أخبر بذلك وكما أخبر رسوله ﷺ، ولا ينكر ذلك إلا المعطلة من الجهمية وغيرهم.

وقد استدل هؤلاء المعطلة على عدم إمكان الرؤية بآيتين من القرآن وهما قوله تعالى: ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير**﴾[9]. وقوله تعالى: ﴿**قال ربي أرني انظر إليك، قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني**﴾[10].

---

(١) سورة القيامة / الآيتان ٢٢، ٢٣.

(٢) التفسير ٧/٥٢٦، ٥٢٧.

(٣) سورة ق / الآية ٣٥.

(٤) التفسير ٧/١٥٧.

(٥) سورة المطففين / الآية ٢٣.

(٦) التفسير ٧/٥٩٣.

(٧) سورة المطففين / ١٥.

(٨) التفسير ٧/٥٩٠.

(٩) سورة الأنعام / الآية ١٠٣.

(١٠) سورة الأعراف / الآية ١٤٣.

وليس في الآيتين دليل لما ذهبوا إليه، إذا فهمتا فهماً صافياً خالياً من التحريف والتأويل.

وقد رد ابن سعدى عليهم في استدلالهم هذا عند تفسيره لهاتين الآيتين، وبين أنه ليس فيهما دلالة لما ذهبوا إليه.

فقال عند الآية الأولى وهي قوله تعالى: ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير**﴾[1].

(أي لا تحيط به الأبصار، وإن كانت تراه في الآخرة، وتفرح بالنظر إلى وجهه الكريم.

فنفي الادراك لا ينفي الرؤية، بل يثبتها بالمفهوم، فإنه إذا نفى الادراك الذي هو أخص أوصاف الرؤية، دل على أن الرؤية ثابتة. فإنه لو أراد نفي الرؤية لقال «لا تراه الأبصار» ونحو ذلك فعلم أنه ليس في الآية حجه لمذهب المعطله الذين ينفون رؤية ربهم في الآخرة. بل فيها ما يدل على نقيض قولهم)[2].

وقال عند الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿**قال ربي أرني انظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين**)[3].

(أي لن تقدر الآن على رؤيتي فإن الله تبارك وتعالى أنشأ الخلق في هذه الدار على نشأة لا يقدرون بها ولا يثبتون لرؤية الله، وليس في هذا دليل على أنهم لا يرون في الجنة. فإنه قد دلت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على أن أهل الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى، ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم وأنه ينشئهم نشأة كاملة يقدرون معها على رؤية الله تعالى؛ ولهذا رتب الله الرؤية في هذه الآية على ثبوت الجبل فقال مقنعا لموسى في عدم إجابته للرؤية: ﴿**ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه**﴾ إذا تجلى الله له ﴿**فسوف تراني**﴾. ﴿**فلما تجلى ربه للجبل**﴾ الأصم الغليظ ﴿**جعله دكا**﴾ أي انهال مثل الرمال، انزعاجاً من رؤية الله وعدم ثبوته لها. . . .)[4].

---

(١) سورة الأنعام / الآية ١٠٣.

(٢) التفسير ٢/٤٤٧.

(٣) سورة الأعراف / الآية ١٤٣.

(٤) التفسير ٣/٨٧، ٨٨.

كلامه في النار:

وأما النار فهي دار أعدها الله لمن عصاه من الكفرة والمعرضين والمجانبين للصراط المستقيم، وجعل لهم فيها من النكال والأغلال والويل والثبور، حتى ينالوا بذلك جزاء كفرهم وإعراضهم.

قال تعالى: ﴿**واتقوا النار التي أعدت للكافرين**﴾[1].

وقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**﴾[2].

وقال تعالى: ﴿**وكفى بجهنم سعيراً، إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً**﴾[3].

يقول ابن سعدى في وصف النار، وأهلها المستحقين لدخولها:

(... فهي دار من طغى وبغى وتجبر على الخلق وآثر الحياة الدنيا، دار الشقاء الأبدي والعذاب الشديد السرمدي، دار جمع الله فيها للطاغين أصناف العذاب، وأحل على أهلها السخط والسعير والحجاب، دار اشتد غيظها وزفيرها، وتفاقمت فظاعتها وحمى سعيرها قعرها بعيد وعذابها شديد ولباس أهلها القطران والحديد وطعامهم الغسلين وشرابهم الصديد، يتجرعه المجرم ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت فيستريح من التنكيد، يتردد أهلها بين الزمهرير المفرط برده وبين السعير ويلاقون فيها العنا والشقا فيا بئس المثوى ويا بئس المصير ويلقى عليهم الجوع الشديد المفظع والعطش العظيم الموجع، فيستغيثون للطعام والشراب، فيغاثون من هذا العذاب بأفظع عذاب، يغاثون بماء كالمهل وهو الرصاص المذاب، خبيث الطعم منتن الريح، حره قد تناها، إذا قرب من وجوههم أسقط جلدها ولحمها وشواها، وإذا وقع في بطونهم صهرها وقطع معاها، يغلي طعام الزقوم في بطونهم كغلي الحميم، فشاربون عليه من الحميم، فشاربون شرب الإبل العطاش الهيم، هذا نزلهم فبئس النزل غير الكريم)[4].

وقال أيضاً في تعداد صنوف العذاب وألوانه وأنواعه في جهنم:

---

(١) سورة آل عمران / الآية ١٣١.

(٢) سورة التحريم / الآية ٦.

(٣) سورة النساء / الآيتان ٥٥ ، ٥٦.

(٤) الفواكة الشهية / ٤٥ ، ٤٦.

(فتارة يعذبون بالسعير المحرق لظواهرهم وبواطنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها، وتارة بالزمهرير الذي قد بلغ برده أن يهرى اللحوم ويكسر العظام، وتارة بالجوع المفرط والعطش المفظع، وإذا استغاثوا لذلك أغيثوا بعذاب آخر، ولون من الشقاء ينسى ما سبقه فيغاثون بطعام ذي غصة، بشجرة الزقوم التي تخرج في الذي يوقد عليه في النار، وإن يستغيثوا للشراب يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه، إذا قرب إليها فلا يدعهم العطش مع ذلك أن يتناولها، فإذا وصلت إلى بطونهم قطعت أمعاءهم ولا يزالون في عذاب شديد لا يفتر عنهم العذاب ساعة، ولا يرجون رحمة ولا فرجا . . .)[1].

فنعوذ بالله من جهنم وما قرب إليها من قول أو عمل.

الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن:

وقد دل على وجودهما نصوص كثيرة في الكتاب والسنة:

قال تعالى: ﴿**أعدت للمتقين**﴾[2].

وقال: ﴿**أعدت للذين آمنوا بالله ورسله**﴾[3].

وقال: ﴿**أعدت للكافرين**﴾[4].

وقال: ﴿**وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا**﴾[5].

وقد ورد في السنة أحاديث كثيرة تدل على ذلك:

منها حديث ابن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا مات أحدكم فإنه يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي، فإن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار)[6].

ومنها حديث عمران بن حصين رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: (اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء)[7].

---

(١) الخلاصة / ٢٨.

(٢) سورة آل عمران / الآية ١٣٣.

(٣) سورة الحديد / الآية ٢١.

(٤) سورة البقرة / الآية ٢٤، وسورة آل عمران / الآية ١٣١.

(٥) سورة الفرقان / الآية ١١.

(٦) أخرجه البخاري ٢/١٠٣، ومسلم ٤/٢١٩٩. وأحمد ٢/٥١.

(٧) أخرجه البخاري ٧/١٧٩، وأحمد ١/٢٣٤.

وقد أشار ابن سعدى في تفسيره إلى مسألة وجود الجنة والنار وأنهما معدتان الآن، وبين أن هذا هو الاعتقاد الصحيح الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، بخلاف ما ذهب إليه المعتزلة بأنهما تخلقان يوم القيامة.

فقال رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**أعدت للكافرين**﴾[1].

(هـذه الآية ونحوها من الآيات فيها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة أن الجنة والنار مخلوقتان، خلافاً للمعتزلة)[2].

وبهذا نصل إلى نهاية الفصل الثالث المتعلق بالإيمان باليوم الآخر، ويليه الفصل الرابع والأخير، وهو عن تعريف الإيمان وما يتعلق به من مسائل.

---

(١) سورة البقرة / الآية ٢٤، وسورة آل عمران / الآية ١٣١.

(٢) التفسير ١/٦١.

الفصل الرّابع

جهوده في توضيح تعريف الإيمان وما يتعلّق به من مسائل

يشتمل هذا الفصل على أمور كثيرة تتعلق بالإيمان: تعريفه والعلاقة بينه وبين الإسلام، وزيادة الإيمان ونقصانه، وحكم الاستثناء في الإيمان، وحكم مرتكب الكبيرة.

وقبل الشروع في تعريف الإيمان وما يتعلق به من مسائل، أرى من المناسب أن أتكلم باختصار عن أهميته فأقول:

لا يخفى أن للإيمان أهمية بالغة إذ هو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأهل الجنة من أهل النار، وهو الذي إذا كان مع العبد قبلت أعمال الخير منه، وإذا عدم منه لم يقبل له صرف ولا عدل ولا فرض ولا نفل فالإيمان الصحيح المقرون بالعمل الصالح عنوان على سعادة صاحبه وأنه من أهل الرحمن ومن الصالحين من عباد **الله**.

قال تعالى: ﴿**فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى**﴾(١).

وقال تعالى: ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾(٢).

وأهمية الشيء تظهر بمعرفة فوائده وثماره، وقد عقد ابن سعدى في خلاصة التفسير فصلاً خاصاً بثمرات الإيمان ـ ذكر تحته جملة كبيرة من ثمرات الإيمان وفوائده.

قال فيه (اعلم أن خير الدنيا والآخرة من ثمرات الإيمان الصحيح، وبه يحيى العبد حياة طيبة في الدارين، وبه ينجو من المكاره والشرور، وبه تخف الشدائد وتدرك **جميع** المطالب. ولنشر إلى هذه الثمرات على وجه التفصيل فإن معرفة **فوائد** الإيمان **وثمراته من** أكبر الدواعي إلى التزود منه.

---

(١) سورة طه / الآيات ١٢٣: ١٢٦.

(٢) سورة يونس / الآية ٦٢.

ثم شرع رحمه الله في ذكر تفاصيل ثمرات الإيمان وفوائده وإليك ملخصها:

فمن ثمرات الإيمان وفوائده:

(١) أنه سبب رضا الله الذي هو أكبر شيء.

(٢) أن ثواب الآخرة ودخول الجنة والتنعم بنعيمها، والنجاة من النار وعقابها إنما يكون بالإيمان.

(٣) أن الله يدفع ويدافع عن الذين آمنوا شرور الدنيا والآخرة.

(٤) أن الله وعد المؤمنين القائمين بالإيمان حقيقة بالنصر والتأييد.

(٥) أن الهداية من الله للعلم والعمل ولمعرفة الحق وسلوكه هي بحسب الإيمان والقيام بحقوقه.

(٦) أن الإيمان يدعو إلى الزيادة من علومه وأعماله الظاهرة والباطنة.

(٧) أن المؤمنْ بالله وبكماله وعظمته وكبريائه ومجده أعظم الناس يقيناً وطمأنينه وتوكلاً على الله وثقة به.

(٨) أنه لا يمكن العبد أن يقوم بالإخلاص لله ولعباد الله ونصيحتهم على وجه الكمال إلا بالإيمان.

(٩) أن المعاملات بين الخلق لا تتم وتقوم إلا على الصدق والنصح وعدم الغش ولا يقوم بذلك حقيقة إلا المؤمنون.

(١٠) أن الإيمان أكبر عون على تحمل المشقات، والقيام بأعباء الطاعات وترك الفواحش التي في النفوس داع قوى إلى فعلها، فلا تتم هذه الأمور إلا بقوة الإيمان.

(١١) أن العبد لابد أن يصاب بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، والإيمان أكبر عون على تحمل هذه المصائب.

(١٢) أن الإيمان يوجب للعبد قوة التوكل على الله لعلمه وإيمانه أن الأمور كلها راجعة إلى الله ومندرجة في قضائه وقدره.

(١٣) أن الإيمان يشجع العبد ويزيد الشجاع شجاعة فإنه لاعتماده على الله العزيز الحكيم ولقوة رجائه وطمعه فيما عنده تهون عليه المشقات ويقدم على المخاوف واثقاً بربه راجياً له راهباً من نزوله من عينه لخوفه من المخلوقين.

(١٤) أن الإيمان هو السبب الأعظم لتعلق القلب بالله في جميع مطالبه الدينية والدنيوية.

(١٥) أن الإيمان يدعو إلى حسن الخلق مع جميع طبقات الناس، وإذا ضعف الإيمان أو نقص أو انحرف، أثر ذلك في أخلاق العبد انحرافا بحسب بعده عن الإيمان.

(١٦) أن الإيمان الكامل يمنع من دخول النار بالكلية كما منع صاحبه في الدنيا من فعل المعاصي والإيمان الناقص يمنع الخلود في النار.

(١٧) أن الإيمان يوجب لصاحبه أن يكون معتبراً عند الخلق أميناً. ويوجب للعبد العفه عن دماء الناس وأموالهم وأعراضهم.

(١٨) أن قويَّ الإيمان يجد في قلبه من ذوق حلاوته ولذة طعمه واستحلاء آثاره. والتلذذ بخدمة ربه وأداء حقوقه وحقوق عباده التي هي موجب الإيمان وأثره. فالمؤمن يتقلب في لذات الإيمان وحلاوته المتنوعة.

(١٩) أن الإيمان هو السبب الوحيد للقيام بذروة سنام الدين، وهو الجهاد البدني والمالي والقولي في سبيل الله.

ثم قال ـ رحمه الله ـ بعد ذكره هذه الجملة الكبيرة النافعة من ثمرات الإيمان: وهذا كله من ثمرات الإيمان ومن تمامه وكماله. وبالجملة فخير الدنيا والآخرة كله فرع عن الإيمان ومترتب عليه، والهلاك والنقص إنما يكون بفقد الإيمان أو نقصه)[١].

وبعد هذا البيان الموجز لأهمية الإيمان وما يترتب عليه من فوائد وثمار نشرع في تعريف الإيمان وما يتعلق به من مسائل.

تعريف الإيمان:

إن من أصول أهل السنة والجماعة: أن الإيمانَ قولٌ وعملٌ؛ قولُ القلبِ واللسانِ وعملُ القلبِ واللسانِ والجوارحِ[٢].

وقد دل على ذلك نصوص كثيرة في الكتاب والسنة:

أما أدلة قول القلب وهو تصديقه وإيقانه.

فمنها قوله تعالى: ﴿**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا**﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿**والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون، لهم ما يشاؤن عند ربهم ذلك جزاء المحسنين**﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿**وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين**)[٥]. وغيرها من الآيات.

---

(١) الخلاصة / ١٣٠ ـ ١٣٤.

(٢) العقيدة الواسطية لابن تيمية / ١٥٢.

(٣) سورة الحجرات / الآية ١٥.

(٤) سورة الزمر / الآية ٣٣.

(٥) سورة الانعام / الآية ٧٥.

وأما أدلة قول اللسان وهو النطق بالشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله والاقرار بلوازمها.

فمنها:

قوله تعالى: **﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾**[1].

وقوله تعالى **﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**[2].

وقوله تعالى: **﴿وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا...﴾**[3]. وقوله عليه الصلاة والسلام: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله...»[4] الحديث.

وغيرها من النصوص.

وأما أدلة عمل القلب وهو النية والإخلاص والمحبة والإنقياد والإقبال على الله عز وجل والتوكل عليه ولوازم ذلك وتوابعه.

فمنها: قوله تعالى: **﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾**[5].

وقوله **﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾**[6]. وقوله **﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا﴾**[7].

وقوله **﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾**[8].

وقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى»[9].

---

(١) سورة البقرة / الآية ١٣٦.
(٢) سورة الأحقاف / الآية ١٣.
(٣) سورة القصص / الآية ٥٣.
(٤) أخرجه البخاري ١/ ١٠، ومسلم ١/ ٥٣ وغيرهما من حديث ابن عمر.
(٥) سورة الأنعام / ٥٢.
(٦) سورة الليل / الآية ١٩.
(٧) سورة الأنفال / الآية ٢.
(٨) سورة الرعد / الآية ٢٨.
(٩) أخرجه البخاري ١/ ٢، ومسلم ٣/ ١٥١٥.

وقوله ﷺ: «قال الله تعالى: ﴿أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه﴾»[1].

وغيرها من النصوص.

وأما أدلة عمل اللسان والجوارح فكثيرة جداً: وعمل اللسان هو ما لا يؤدى إلا به كتلاوة القرآن وسائر الأذكار من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والدعاء والاستغفار وغير ذلك، وعمل الجوارح هو ما لا يؤدى إلا بها مثل القيام والركوع والسجود والمشي في مرضاة الله الخطا إلى المساجد وإلى الحج والجهاد في سبيل الله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك، ومن أدلة عمل اللسان والجوارح:

قوله تعالى: ﴿**إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور**﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿**واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته**﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين أمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً**﴾[4].

ومنها قوله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان»[5].

وغيرها من نصوص الكتاب والسنة[6].

وقد بين ابن سعدى هذا الأصل العظيم وأوضحه في كثير من مؤلفاته وأشار إلى كثرة أدلته واستدل له بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة[7].

قال رحمه الله: (الإيمان اسم جامع لعقائد القلب وأعماله وأعمال الجوارح وأقوال اللسان فجميع الدين أصوله وفروعه داخل في الإيمان)[8].

---

(١) أخرجه مسلم ٤/٢٢٨٩.

(٢) سورة فاطر / الآية ٢٩.

(٣) سورة الكهف / الآية ٢٧.

(٤) سورة الأحزاب / الآيتان ٤١، ٤٢.

(٥) أخرجه البخاري ١/٨ ومسلم ١/٦٣ عن أبي هريرة رضى الله عنه، وهذا لفظ مسلم.

(٦) وقد توسع الشيخ حافظ حكمي في ذكر الأدلة على ذلك في كتابه معارج القبول. انظر ٢/١٧ وما بعدها.

(٧) انظر في ذلك: توضيح الكافية الشافية /١٣، والتفسير ١/٤٢٠، ١/٤٢٤، ٣/٩٦، ٣/١٠٢، ٧/٢٩٤، وبهجة قلوب الأبرار /١٧، والخلاصة /١١ وغيرها.

(٨) سؤال وجواب / ٨.

وقال: (الإيمان الشرعي عند السلف شامل للعقائد الدينية وأعمال القلوب وأعمال الجوارح وفي هذا من النصوص ما لا يعد ولا يحصى)[1].

وقال: (أهل السنة والجماعة يعتقدون ما جاء به الكتاب والسنة من أن الإيمان: تصديق القلب المتضمن لأعمال الجوارح.

فيقولون: الإيمان اعتقادات القلوب وأعمالها، وأعمال الجوارح وأقوال اللسان وأنها كلها من الإيمان، وأن من أكملها ظاهراً وباطناً فقد أكمل الإيمان ومن انتقص شيئا منها فقد نقص إيمانه)[2].

العلاقة بين مسمى الإيمان والإسلام:

إن اسم الإيمان تارة يذكر مفرداً غير مقرون باسم الإسلام. وتارة يذكر مقروناً به.

فمن أمثلة ذكره مقرونا بالإسلام:

قوله تعالى: ﴿**إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات**﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿**قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا**﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿**فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين**﴾[5].

وقول جبريل عليه السلام في حديث عمر بن الخطاب: «ما الإسلام وما الإيمان»[6].

ومن أمثلة ذكر الإيمان مفرداً:

قوله تعالى: ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم**﴾[7].

وقوله تعالى: ﴿**آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وانفقوا لهم أجر كبير. وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين**﴾[8].

---

(١) توضيح الكافية الشافية / ٨.

(٢) الفتاوي السعدية / ١٧.

(٣) سورة الأحزاب / الآية ٣٥.

(٤) سورة الحجرات / الآية ١٤.

(٥) سورة الذاريات / الآيتان ٣٥، ٣٦.

(٦) تقدم تخريجه ص - ٢٣٩.

(٧) سورة الأنفال / الآية ٢.

(٨) سورة الحديد / الآيتان ٧ ، ٨

وقوله ﷺ «الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى من الطريق»[1].

وقوله ﷺ «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[2].

ومن أمثلة ذكر الإسلام مفرداً:

قوله تعالى: ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾[4].

وقوله: ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾[5].

وقوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة**﴾[6].

وعلى هذا فإن الإسلام والإيمان إذا اطلق أحدهما شمل الدين كله أصوله وفروعه من اعتقاداته وأقواله وأفعاله.

وأما اذا قرن بينهما وذكرا معا فعند ذلك يفترقان فيراد بالإسلام حينئذ الأعمال والأقوال الظاهرة، ويراد بالإيمان الاعتقادات الباطنة.

ومن تأمل حديث جبريل والنصوص المتقدمة وغيرها من النصوص عرف ذلك.

وقد أوضح ابن سعدى هذه العلاقة بين هذين المسميين فقال: (اعلم أن الإيمان الذي هو تصديق القلب التام بهذه الأصول وإقراره المتضمن لأعمال القلوب والجوارح وهو بهذا الاعتبار يدخل فيه الإسلام، وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها، فهي من الإيمان وأثر من آثاره.

فحيث أطلق الإيمان دخل فيه ما ذكر، وكذلك الإسلام إذا أطلق دخل فيه

---

(١) تقدم تخريجه ص ٣٠٠.

(٢) أخرجه البخاري ١/٩ عن أنس بن مالك.

(٣) سورة آل عمران / الآية ١٩.

(٤) سورة المائدة / الآية ٣.

(٥) سورة آل عمران / الآية ٨٥.

(٦) سورة البقرة / ٢٠٨.

الإيمان، فإذا قرن بينهما كان الإيمان اسماً لما في القلب من الإقرار والتصديق والإسلام اسما للأعمال الظاهرة)[1].

وقال في موضع آخر: (أما الإسلام فهو استسلام القلب لله وإنابته، والقيام بالشرائع الظاهرة والباطنة، وأما الإيمان فهو التصديق التام والاعتراف بأصوله التي أمر الله بالإيمان بها، ولا يتم ذلك إلا بالقيام بأعمال القلوب وأعمال الجوارح. ولهذا سمى الله كثيراً من الشرائع الظاهرة والباطنة إيمانا، وبعض الآيات يذكر أنها من لوازم الإيمان فعلى هذا الإيمان عند الإطلاق يدخل فيه الإسلام، وكذلك بالعكس، وإذا جمع بين الإيمان والإسلام فسر الإيمان بما في القلب من التصديق والاعتراف وما يتبع ذلك، وفسر الإسلام بالقيام بعبودية الله كلها الظاهرة والباطنة)[2].

زيادة الإيمان ونقصانه:

ورد في الكتاب والسنة نصوص كثيرة تدل على أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بفعل الطاعات وينقص بارتكاب المحرمات.

قال تعالى: ﴿**والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم**﴾[3].

وقال تعالى: ﴿**ويزيد الله الذين اهتدوا هدى**﴾[4].

وقال تعالى: ﴿**وما زادهم إلا إيمانا وتسليما**﴾[5].

وقال تعالى: ﴿**وزدناهم هدى**﴾[6].

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال ﷺ: (يا معشر النساء تصدقن.. وفي الحديث: ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن)[7].

وفي صحيح مسلم من حديث حنظلة الأسيدي قال: لقيني أبوبكر رضى الله عنه فقال: كيف أنت ياحنظلة؟ قال قلت: نافق حنظلة، قال سبحان الله ماتقول؟ قال قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأى عين، فإذا خرجنا

(١) التفسير ١/١٤٤.
(٢) الخلاصة / ١٩٩ وانظر أيضاً سؤال وجواب / ٥.
(٣) سورة محمد / الآية ١٧.
(٤) سورة مريم / الآية ٧٦.
(٥) سورة الأحزاب / الآية ٢٢.
(٦) سورة الكهف / الآية ١٣.
(٧) البخاري ٢/١٢٦، ومسلم ١/٨٧.

من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد الصغار فنسينا كثيراً قال أبوبكر رضى الله عنه: فو الله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبوبكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ قلت: نافق حنظلة يارسول الله. فقال رسول الله ﷺ وماذاك؟ قلت: يارسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأى عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرا فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن ياحنظلة ساعة وساعة «ثلاث مرات»[1].

فهذه النصوص ظاهرةُ الدلالة في أن الإيمان يزيد وينقص إذ هي صريحة بذلك.

وقد تناول ابن سعدى هذه المسألة وبين أن الإيمان يزيد وينقص يزيد بقوة الاعتقاد وكثرته وحسن الأعمال والأقوال وكثرتها وينقص بضد ذلك[2].

واستدل على ذلك بأدلة كثيرة أذكر بعضها:

قال عند تفسيره لقوله تعالى: **﴿وإذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون، أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون﴾**[3].

(..... وفي هذه الآيات دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، وأنه ينبغي للمؤمن أن يتفقد إيمانه ويتعاهده فيجدده وينميه، ليكون دائماً في صعود)[4].

وقال عند قوله تعالى: **﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾**[5]. (.... وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه كما قاله السلف الصالح ويدل عليه قوله تعالى: **﴿ليزداد الذين آمنوا إيماناً﴾**[6]، **﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾**[7].

ويدل عليه أيضاً الواقع فإن الإيمان قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان

---

(١) مسلم ٤/٢١٠٦.

(٢) انظر سؤال وجواب / ٨، والفتاوي السعدية / ١٧، والتفسير ٣٥/٦. الخلاصة / ١٣١، وتوضيح الكافية الشافية / ٨، ٩، ١٣. وغيرها.

(٣) سورة التوبة الآيات / ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦.

(٤) التفسير ٣١٧/٣.

(٥) سورة مريم / الآية ٧٦.

(٦) سورة المدثر / الآية ٣١.

(٧) سورة الأنفال / الآية ٢.

والجوارح، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور أعظم تفاوت)[1].

وقال في شرحه لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير....»[2].

(.... وهذا من أدلة السلف على أن الإيمان يزيد وينقص، وذلك بحسب علوم الإيمان ومعارفه وبحسب أعماله.

وهذا الأصل قد دل عليه الكتاب والسنة في مواضيع كثيرة)[3].

مسألة الاستثناء في الإيمان:

وهذه المسألة مترتبة على ما سبق بيانه من أن الإيمان قول وعمل واعتقاد وأنه يزيد وينقص فإذا ثبت ذلك. فإنه ينبغي للإنسان إذا قال أنا مؤمن أن يستثنى؛ لأنه لا يستطيع أن يجزم بأنه كمّل الأعمال، وإن جزم بذلك فقد زكى نفسه.

قال ابن سعدى بعد أن عرف الإيمان وبين أنه أصل عظيم وأن أهل السنة والجماعة يعتقدون أنه قول وعمل واعتقاد (..... ويرتبون على هذا الأصل صحة الاستثناء في الإيمان.

فيصح أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله؛ لأنه يرجو من الله تكميل إيمانه فيستثنى من غير شك منه بحصول الإيمان)[4].

وقال في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا....**﴾[5]. (.. وفيه دلالة على جواز إضافة الإنسان إلى نفسه الإيمان على وجه التقييد بأن يقول أنا مؤمن بالله، كما يقول آمنت بالله بل هذا الأخير من أوجب الواجبات، كما أمر الله به أمراً حتماً بخلاف قول العبد: أنا مؤمن ونحوه فإنه لا يقال إلا مقروناً بالمشيئة لما فيه من تزكية النفس؛ لأن الإيمان المطلق يشمل القيام بالواجبات وترك المحرمات، فهو كقوله أنا متقي أو ولي أو من أهل الجنة، وهذا التفريق هو مذهب محققي أهل السنة والجماعة)[6].

---

(١) التفسير ٥/٣٣.

(٢) أخرجه مسلم ٤/٢٠٥٢.

(٣) بهجة قلوب الأبرار / ٣٣ وانظر أيضا التنبيهات اللطيفة / ٥٠، ٥١. فقد ذكر فيها جملة من الأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه، وذكر فيها أيضاً أوجه زيادته ونقصانه، وأن الإيمان يزيد وينقص من أوجه متعددة، فليراجع.

(٤) الفتاوي السعدية / ١٨، ١٩.

(٥) سورة البقرة / الآية ١٣٦.

(٦) الخلاصة / ١١، وانظر التفسير ١/١٤٥.

حكم مرتكب الكبيرة:

قبل معرفة حكم الكبيرة أذكر تعريف الكبيرة، فأقول:

اختلف السلف في تعريف الكبيرة إلى أقوال متعددة:

فقيل: هي كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنه أو عذاب.

وقيل: هي ما أوعد الله عليه حداً في الدنيا أو عذاباً في الآخرة.

وقيل: هي ما كانت المظالم فيه بين العباد أنفسهم.

وقيل: هي ما سماه الله في القرآن كبيراً أو عظيماً.

وقيل غير ذلك[1].

ومن أجمع التعاريف للكبيرة: أنها كل معصية فيها حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة أو ورد فيها وعيد بنفي إيمان أو لعن ونحوهما[2].

أما حكم مرتكب الكبيرة:

فإن نصوص الكتاب والسنة تدل دلالة واضحة على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر ولا يخرج من الدين بسبب ارتكابه للكبيرة، وإنما ينقص إيمانه فلا يذهب عنه الإيمان بالكلية بل يبقى معه مطلق الإيمان.

وارتكاب الكبيرة ليس سبباً للخلود في النار فلا يخلد أحد في النار بسبب ارتكاب الكبيرة؛ لأنه لا يوجب الخلود في النار إلا الإشراك بالله.

وهـذا هو قول أهل السنة والجماعة، وأدلة الكتاب والسنة جميعها متضافرة على تقريره وتأصيله والرد على من خالفه.

أمـا الخوارج: فقد كفروا مرتكب الكبيرة وأخرجوه من الدين بالكلية وأوجبوا له الخلود في النار.

وأما المعتزله فقد وافقوا الخوارج في خلود مرتكب الكبيرة في النار، وأما في الدنيا فهو عندهم ليس مؤمناً ولا كافراً، وإنما في منزلة بين المنزلتين.

وأما المرجئه الخالصة: فقالوا: «إنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة». فمرتكب الكبيرة عندهم مؤمن كامل الإيمان ولا يستحق دخول النار.

وهذه الفرق كلها جانبت الصواب، وخالفت نصوص الكتاب والسنة والمذهب الحق في ذلك هو مذهب أهل السنة والجماعة؛ لدلالة نصوص الكتاب والسنة عليه وهو

---

(١) انظر في هذه التعاريف وغيرها مدارج السالكين لابن القيم ١/ ٣٢٠، وما بعدها.

(٢) لوامع الأنوار البهية للسفاريني ١/ ٣٦٥، وأنظر الفتاوي لابن تيمية ١١/ ٦٥٠ وما بعدها.

وسط بين هذه المذاهب الضالة فمن مات على كبيرة فأمره مفوض إلى الله إن شاء عاقبه وان شاء عفا عنه، وإذا عاقبه بها فإنه لا يخلد خلود الكفار بل يخرج من النار ويدخل الجنة[1].

وقد اهتم ابن سعدى ببيان هذا الحكم والرد على من خالفه، وذكر له أدله كثيرة من الكتاب والسنة.

قال رحمه الله: (كبائر الذنوب وصغائرها لا تصل بصاحبها إلى الكفر ولكنها تنقص الإيمان من غير أن تخرجه من دائرة الإسلام، ولا يخلد صاحبها في النار.

ولا يطلقون عليه اسم الكفر كما تقوله الخوارج، أو ينفون عنه الإيمان كما تقول المعتزلة، بل يقولون هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته فمعه مطلق الإيمان، أما الإيمان المطلق فينفى عنه)[2].

وقد استدل ابن سعدى على أن الكبائر لا يكفر صاحبها، ولا توجب الخلود في النار بأدله كثيرة.

منها قوله تعالى: ﴿**فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف**﴾[3].

قال ابن سعدى: (في قوله ﴿**أخيه**﴾ دليل على أن القاتل لا يكفر، لأن المراد بالأخوة هنا الأخوة الإيمانية فلم يخرج بالقتل منها.

ومن باب أولى سائر المعاصي التي هي دون القتل، ولا يكفر بها فاعلها وإنما ينقص بذلك إيمانه)[4].

ومنها: قوله تعالى: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما...**﴾[5].

قال ابن سعدى: (.... الإيمان والأخوة الإيمانية لا يزولان مع وجود الاقتتال كغيره من الذنوب والكبائر التي دون الشرك، وعلى ذلك مذهب أهل السنة والجماعة)[6].

وقد استدل الخوارج والمعتزلة على مذهبهم الباطل بنصوص من القرآن، من تأملها وجد أنها حجة عليهم لا لهم.

---

(١) انظر العقيدة الواسطية.شرح الهراس / ١٢١،١٢٢، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني ١/ ٣٦٦، وما بعدها. ومعارج القبول للحكمي ٢/ ٤١٧ وما بعدها.

(٢) الفتاوي السعدية / ١٨.

(٣) سورة البقرة / الآية ١٧٨.

(٤) التفسير / ١ / ٢١٦.

(٥) سورة الحجرات / الآية ٩.

(١) التفسير ٧/ ١٣٤ ، ١٣٥.

يقول ابن سعدى: (وكل مبطل يحتج بآية أو حديث صحيح على قوله الباطل فلابد أن يكون فيما احتج به حجة عليه)[1]، ولذلك كان في تفسيره للقرآن إذا مر بآية استدل بها الخوارج والمعتزلة على مذهبهم الباطل، بين أن في الآية المستدل بها حجة عليهم لا لهم[2].

ومن أمثلة ذلك استدلالهم بقوله تعالى: **﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين﴾**[3]

قال ابن سعدى: (ويدخل في اسم المعصية الكفر فما دونه من المعاصي، فلا يكون فيها شبهة للخوارج القائلين بكفر أهل المعاصي فإن الله تعالى رتب دخول الجنة على طاعته وطاعة رسوله ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب، ومن عصى الله ورسوله معصية تامة يدخل فيها الشرك فما دونه دخل النار وخلد فيها.

ومن اجتمع فيه معصية وطاعة كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية.

وقد دلت النصوص المتواترة على أن الموحدين الذين معهم طاعة التوحيد غير مخلدين في النار)[4].

ومن أمثلة ذلك أيضا استدلالهم بقوله تعالى: **﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**[5].

قال ابن سعدى: (في هذا أن الربا موجب لدخول النار والخلود فيها، وذلك لشناعته، ما لم يمنع من الخلود مانع الإيمان.

وهذا من جملة الأحكام التي تتوقف على وجود شروطها وانتفاء موانعها وليس فيها

---

(١) التفسير ١/١٠٣.

(٢) انظر التفسير ٧/٤٩٥، ٢/٣٦، ٧ ٢٣/١٢٩، ٥/٤٩٦، ١/٣٣٨، ١/١٠٣، والتنبيهات اللطيفة /٥١ وغيرها.

(٣) سورة النساء / الآية ١٤.

(٤) التفسير ٢/٣٦، ٣٧.

(٥) سورة البقرة / الآية ٢٧٥.

حجة للخوارج كغيرها من آيات الوعيد، فالواجب أن تصدق جميع نصوص الكتاب والسنة فيؤمن العبد بما تواترت به النصوص، من خروج من في قلبه أدنى مثقال حبة خردل من الإيمان من النار)[1].

وانظر بقية الأمثلة على ذلك في الصفحات المشار إليها آنفا بالهامش، تجد أن كل مبطل إذا استدل بنص صحيح على باطله يكون فيما استدل به حجة عليه.

وإنما هدى الله أهل السنة والجماعة للحق في ذلك لجمعهم بين النصوص وتوفيقهم بينها، لا كما يفعله المبطلة من الأخذ بطرف من النصوص وتركهم طرفا آخر لاشتمالِه على رد عليهم.

الجمع بين النصوص الواردة في خلود مرتكب الكبيرة في النار، وبين النصوص التي تدل على أنه لا يخلد في النار إلا المشرك:

قد يشكل على البعض ورود كثير من الآيات فيها ذكر خلود مرتكب الكبيرة في النار، وآيات أخرى فيها أنه لا يخلد في النار إلا المشرك.

وقد أورد ابن سعدى هذا الإشكال وأجاب عنه جواباً شافياً فقال: (ورد في القرآن عدة آيات فيها ذكر الخلود في النار على ذنوب كبائر ليست بكفر مثل قوله تعالى: ﴿**ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عله ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً**﴾[2].

وقوله: ﴿**ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين**﴾[3].

وقوله: ﴿**بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾[4].

فما الجمع بينها وبين النصوص المتواترة من الكتاب والسنة أنه لا يخلد في النار إلا الكفار، وأن جميع المؤمنين مهما عملوا من المعاصي التي دون الكفر فإنهم لابد أن يخرجوا منها؟

---

(١) التفسير ١/ ٣٣٩، ٣٣٩.

(٢) سورة النساء / الآية ٩٣.

(٣) سورة النساء / الآية ١٤.

(٤) سورة البقرة / الآية ٨١.

فهذه الآيات قد اتفق السلف على تأويلها وردها إلى هذا الأصل المجمع عليه بين سلف الأمة.

وأحسن ما يقال فيها إن ذكر الخلود على بعض الذنوب التي دون الشرك والكفر أنها من باب ذكر السبب، وأنها سبب للخلود في النار لشناعتها، وأنها بذاتها توجب الخلود اذا لم يمنع من الخلود مانع.

ومعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن الإيمان مانع من الخلود، فتنزل هذه النصوص على الأصل المشهور وهو أنه لا تتم الأحكام إلا بوجود شروطها وأسبابها وانتفاء موانعها، وهذا واضح ولله الحمد مع أن بعض الآيات المذكور فيها ما يدل على أن الخطيئة المراد بها الكفر، لأن قوله ﴿**وأحاطت به خطيئته**﴾ دليل على ذلك، لأن المعاصي التي دون الكفر لا تحيط بصاحبها، بل لابد أن يكون معه إيمان يمنع من احاطتها، وكذلك قوله: ﴿**ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها**﴾[1] فالمعصية تطلق على الكفر وعلى الكبائر وعلى الصغائر ومن المعلوم أنه إذا دخل فيها الكفر زال الإشكال)[2].

وبهذا التوفيق الذي ذكره ابن سعدى يزول هذا الإشكال ثم إن القاعدة في الذنوب عند السلف:

أنها إن كانت دون الشرك فهي تحت مشيئة الله إن شاء عذب فاعلها وإن شاء عفا عنه وإن عذبه فإنه لا يخلد في النار.

وأما إن كان في الذنوب إشراك بالله فصاحبها خالد مخلد في نار جهنم، دل على هذه القاعدة العظيمة قوله تعالى:

﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾[3].

وهذا آخر الحديث عن الإيمان وما يتعلق به، وبه نهاية الفصل الرابع من الباب الثاني والأخير،،

والحمد لله رب العالمين..

---

(١) سورة النساء / الآية ١٤.

(٢) الخلاصة / ١٨٨، وانظر ايضا التفسير ٢/١٢٩.

(٣) سورة النساء الآيتان ٤٨، ١١٦.

الخَاتمَة

الحمد لله الذي بحمده تتم الصالحات، أحمده على توفيقه، وأثنى عليه الخير كله، لا أحصى ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه.

وبعد: فقد تمت هذه الرسالة بحمد الله تعالى، وقد عنيت فيها ببيان جهود العلامة الشيخ عبدالرحمن بن سعدى العقدية، والتي تنمي عن حرصه الشديد وجهوده المكثفة لنصرة هذه العقيدة.

وعرضنا هذا لجهوده يبين لنا شدة عنايته بالعقيدة بجميع جوانبها، فكما تقدم في الرسالة كان حديثه عن العقيدة شاملاً لجوانب كثيرة وجزئيات متنوعة ونقاط متعددة من جوانب العقيدة، شاملاً أيضاً للردود على كل من خالف هذه العقيدة الصافية المأخوذة من الكتاب والسنة، والتي لا فلاح ولا نجاح ولا سعادة إلا بتحقيقها.

وكلامه في هذا كله مدعم بالأدلة النقلية، أدلة الكتاب والسنة، فهو في كل مسألة يبينها وينصرها، وفي كل شبهة يدحضها ويبين بطلانها وزيفها، يستدل على ذلك بأدلة صحيحة صريحة واضحة في الدلالة على المقصود، لا لبس فيها ولا غموض، بعيدة عن تكلفات الفلاسفة والمؤولة والمعطلة وغيرهم، فهو ينهج في تقريراته وردوده منهج السلف الصالح، يترسم خطاهم ويسير على نهجهم ويقتفي آثارهم، وقد استفاد كثيراً من كتب المتقدمين من علماء السلف وذلك لعنايته الشديدة بها.

كما تأثر رحمه الله بالعالمين الجليلين الذين خدما العقيدة خدمة جليلة، وهما شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن قيم الجوزية، فقد استفاد رحمه الله كثيراً من كتبهما واعتنى بها عناية شديدة فشرح بعضها واختصر بعضها واستخرج قواعد وضوابط من أكثرها، وكان يثني عليها ويحث طلابه على قراءتها وقد ظهر تأثره بهما في تقريراته وردوده في مؤلفاته.

كما عنيت في هذه الرسالة بدارسة شاملة لحياة ابن سعدى تناولت فيها جانبي حياته الشخصي والعلمي، وقد ظهر لنا فيها حرص الشيخ منذ نشأته على طلب العلم وتحصيله فقد امضى حياته وافنى جميع أوقاته في العلم حفظاً ودراسة وتحصيلاً وعملاً وتطبيقاً وتدريساً لا يصرفه عنه أى أمر من الأمور.

وفي الحقيقة إن الشيخ ابن سعدى يعد شخصية علمية بارزة، جديرة بالاهتمام من الباحثين، فقد أدى رحمه الله دوراً كبيراً في خدمة هذا الدين ونصرته، عن طريق المواعظ والخطب والدروس العلمية والمؤلفات النافعة وغير ذلك، فقد جلس للتدريس والتعليم أكثر من نصف قرن من الزمان حتى خرج أفواجاً كثيرة من طلاب العلم. كما أخرج رحمه الله من المؤلفات العلمية القيمة النافعة ما يربو على أربعين مؤلفاً تناول فيها العقيدة والتفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك، ومؤلفاته جميعها تمتاز بسهولة العبارة، وقرب المأخذ، والبعد عن التكلف وهي جديرة بالعناية من طلبة العلم.

وقد كان رحمه الله في حياته متصفاً بجملة من الصفات الكريمة، فكان متواضعاً كريماً بشوشاً، عطوفاً على الفقراء مساعداً لهم، محباً للخير مقدماً عليه، وكان محل إعجاب الناس وثنائهم، فلا يذكر إلا بكل خير ولا يوصف إلا بكل حميد، وكان محل ثناء العلماء، فحمدوا فيه سعة علمه وحسن خلقه، فرحمه الله وغفر له وأسكنه فسيح جناته.

هذا والله الكريم أسأل أن أكون قد وفقت فيما أردت بيانه في هذه الرسالة، وأن يقيل عثراتي ويجنبني الزلل، فهو حسبي ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم..

فهرس المراجع

مؤلفات ابن سعدى

١ ـ الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين، ط المعارف، الرياض، ١٤٠٢هـ.
٢ ـ انتصار الحق، ط الأولى، دار الثقافة. القاهرة، ١٣٩٨هـ.
٣ ـ الإرشاد إلى معرفة الأحكام، ط، المعارف، الرياض، ١٤٠٠هـ.
٤ ـ ارشاد أولي البصائر والألباب ط، المعارف، الرياض، ١٤٠٠ه. (وهو نفس الكتاب الذي قبله).
٥ ـ بهجة قلوب الأبرار، ط مطبعة الكيلاني، القاهرة، الناشر، السعيدية، الرياض.
٦ ـ التعليق وكشف النقاب على نظم قواعد الإعراب، مخطوطة.
٧ ـ توضيح الكافية الشافية، ط المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٦٨هـ.
٨ ـ التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، ط مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة.
٩ ـ التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة، ط مطبعة البيان، بيروت.
١٠ ـ تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله، ط دار احياء الكتب العربية.
١١ ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ط مطابع الدجوى: القاهرة الناشر المؤسسة السعيدية بالرياض.
١٢ ـ تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، ط، المعارف، الرياض ١٤٠٠هـ.
١٣ ـ الحق الواضح المبين، ط المطبعة السلفية القاهرة.
١٤ ـ حكم شرب الدخان، ط، المعارف، الرياض، ١٤٠٤هـ.
١٥ ـ الخطب المنبرية على المناسبات، ط المدني، القاهرة، ١٣٧٥هـ.
١٦ ـ الدرة البهية شرح القصيدة التائية، ط مطبعة المشهد الحسيني القاهر، ١٣٧٦هـ.
١٧ ـ الدرة المختصرة في محاسن الدين، ط مطبعة أنصار السنة المحمدية، القاهرة ١٣٦٦هـ.

١٨ - الدلائل القرآنية في أن العلوم والأعمال العصرية داخلة في الدين الإسلامي، ط، مطابع الرياض، ١٣٧٦هـ.

١٩ - الدين الصحيح يحل جميع المشاكل، ط مطبعة المدني، القاهرة.

٢٠ - رسالة في القواعد الفقهية - ضمن المجموع لمؤلفاته - ط، مطابع الدجوى، القاهرة، الناشر: السعيدية.

٢١ - رسالة لطيفة جامعة في أصول الفقه - ضمن المختارات الجلية - ، ط الأولى، مطبعة المدنى، القاهرة ١٣٧٨هـ.

٢٢ - الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة، ط الكيلاني، القاهرة، الناشر السعيدية.

٢٣ - سؤال وجواب في أهم المهمات، ط، مطبعة دمشق، ١٣٧٢هـ.

٢٤ - طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول، الكيلاني، القاهرة، الناشر السعيدية.

٢٥ - الفتاوي السعدية، ط مطبعة الكيلاني، الناشر السعيدية الرياض.

٢٦ - فوائد قرآنية، ط الثانية، المكتب الإسلامي، بيروت ١٣٩٤هـ.

٢٧ - فوائد مستنبطة من قصة يوسف (عليه السلام)، ط مطبعة العلم، القاهرة، ١٣٧٥هـ.

٢٨ - الفواكة الشهية في الخطب المنبرية، ط، مطبعة دمشق ١٣٧٢هـ.

٢٩ - القواعد الحسان لتفسير القرآن، ط المعارف، الرياض ١٤٠٠هـ.

٣٠ - القواعد والأصول الجامعة والفروق والتقاسيم البديعة النافعة، طبعة، المدني، القاهرة، ١٣٧٥هـ.

٣١ - القول السديد في مقاصد التوحيد، ط الثالثة، مؤسسة النور، الرياض، ١٣٩٠هـ.

٣٢ - مجموع الخطب في المواضيع النافعة، ط مطبعة أنصار السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٦٦هـ.

٣٣ - المختارات الجلية من المسائل الفقهية، ط مطابع الدجوى، القاهرة، الناشر السعيدية.

٣٤ - مختارات من الفتاوي - ضمن المختارات الجلية - ، ط مطابع الدجوى، القاهرة، الناشر السعيدية.

٣٥ - المواهب الربانية من الآيات القرآنية، ط، المعارف، الرياض، ١٤٠٢هـ.

٣٦ ـ المناظرات الفقهية ـ ضمن المختارات الجلية ـ، ط مطابع الدجوى، القاهرة، الناشر السعيدية.
٣٧ ـ منظومة في أحكام الفقه ـ ضمن المجموع لمؤلفاته ـ، ط مطابع الدجوى القاهرة، الناشر السعيدية.
٣٨ ـ منظومة في السير إلى الله والدار الأخرة ـ ضمن المجموع لمؤلفاته ـ، ط مطابع الدجوى، القاهرة، الناشر السعيدية.
٣٩ ـ منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين ـ ضمن المختارات الجلية، ط ١ مطبعة المدني، القاهرة، ١٣٧٨هـ.
٤٠ ـ واجب المسلمين، ط، الثانية، مؤسسة النور، الرياض، ١٣٨٩هـ.
٤١ ـ وجوب التعاون بين المسلمين، ط، المعارف، الرياض ١٤٠٢هـ.
٤٢ ـ الوسائل المفيدة للحياة السعيدة، ط الثانية مؤسسة النور، الرياض.

مؤلفـــات أخــــرى

٤٣ ـ الإبانة عن أصول الديانة، لأبي الحسن الأشعري، ط الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٩٧٥م.
٤٤ ـ أبو الحسن الأشعرى للشيخ حماد الأنصاري، طبع مؤسسة النور، بالرياض.
٤٥ ـ إتحاف الجماعة للشيخ حمود بن عبدالله التويجري، ط، الأولى، مطابع الرياض ١٣٩٤هـ.
٤٦ ـ اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم، ط مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.
٤٧ ـ الاحتجاج بالأثر للشيخ حمود التويجرى، ط الأولى الرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والارشاد ١٤٠٣هـ.
٤٨ ـ الآداب الشرعية، لابن مفلح، ط مطبعة المنار، ١٣٤٨هـ.
٤٩ ـ الاستقامة لابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، ط الأولى، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٤هـ.
٥٠ ـ أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، ط عالم الكتب، بيروت.
٥١ ـ الأعلام ـ لخير الدين الزركلي، ط السادسة، دار العالم للملايين بيروت. ١٩٨٤م.
٥٢ ـ الإكليل في المتشابه والتأويل ضمن مجموعة الرسائل الكبرى، لابن تيمية، ط، دار إحياء التراث بيروت.

٥٣ - الإمام ابن تيمية وقضية التأويل. للدكتور محمد السيد الجليند، ط الثالثة طبع شركة عكاظ للنشر والتوزيع، السعودية ١٤٠٣هـ.
٥٤ - الإيمان لابن تيمية، ط الثالثة، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٩هـ.
٥٥ - بصائر ذوى التمييز للفيروز أبادي، ط المكتبة العلمية، بيروت.
٥٦ - بيان الهدى من الضلال في الرد على صاحب الأغلال للشيخ السويح، ط المطبعة السلفية - القاهرة ١٣٦٩هـ.
٥٧ - تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، للصنعاني، ط، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٩٧٥م.
٥٨ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ط، دار المعرفة، بيروت ١٣٨٨.
٥٩ - التلخيص الحبير لابن حجر، ط المطبعة العربية باكستان، الناشر: إدارة البحوث الإسلامية. فيصل آباد.
٦٠ - تيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، ط الثالثة، المكتب الإسلامي، بيروت ١٣٩٧هـ.
٦١ - جامع البيان للطبرى، ط دار المعارف بمصر.
٦٢ - حلية الأولياء لأبي نعيم، ط الثانية دار الكتاب العربي، بيروت. ١٣٨٧هـ.
٦٣ - درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، ط الأولى، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٤هـ.
٦٤ - الدين - للدكتور محمد عبدالله، دار القلم الكويت، ١٤٠٠هـ.
٦٥ - الرد القويم على ملحد القصيم للشيخ عبدالله بن علي بن يابس، ط، الأولى، مطبعة الإمام، مصر.
٦٦ - الرسالة التدمرية، لابن تيمية، ط الثالثة، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٤٠٠هـ.
٦٧ - رسالة في الذب عن أبي الحسن الأشعري، لأبي القاسم عبدالملك بن عيسى بن درباس. تحقيق د / علي ناصر فقيهي، ط الأولى ١٤٠٤هـ.
٦٨ - الرسل والرسلات للدكتور عمر الأشقر، ط الثانية، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤٠٣هـ.
٦٩ - الروح لابن القيم، ط، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ.
٧٠ - روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين، للشيخ محمد بن عثمان القاضي، ط الأولى، مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٤٠٠هـ.
٧١ - زاد المعاد لابن القيم، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط ط الثالثة مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٢هـ.

٧٢ ـ الزهر النضر في نبأ الخضر، لابن حجر ضمن مجموعة الرسائل المنبرية. ط إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة.
٧٣ ـ السبعينية لابن تيمية، ضمن مجموعة الفتاوي المصرية، ط مطبعة كردستان العلمية، القاهرة، ١٣٢٩هـ.
٧٤ ـ سلسلة الاحاديث الصحيحة للألباني، ط، الثالثة، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٣هـ.
٧٥ ـ سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، ط دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٢هـ.
٧٦ ـ سنن أبي داود، ط دار إحياء السنة النبوية.
٧٧ ـ سنن الدارمي، ط مطبعة الاعتدال، دمشق، ١٣٤٩هـ.
٧٨ ـ سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط دار إحياء التراث الإسلامي بيروت.
٧٩ ـ سنن النسائي، ط الأولى، المطبعة المصرية، القاهرة، ١٣٤٨هـ.
٨٠ ـ السنة للمروزي، ط دار الثقافة والنشر، الرياض.
٨١ ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للحافظ الالكائي، ط الأولى. دار طيبة ـ الرياض.
٨٢ ـ شرح السنة للبغوي، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش ط الأولى، المكتب الإسلامي، بيروت ١٣٩٠هـ.
٨٣ ـ شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز، ط. مكتبة الدعوة الإسلامية.
٨٤ ـ شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد بن خليل الهراس، ط الرابعة، مؤسسة مكة للطباعة، توزيع الجامعة الإسلامية.
٨٥ ـ الشريعة للآجرى، تحقيق محمد حامد الفقي، ط الأولى، مطابع الأشرف، لاهور، باكستان، ١٤٠٣هـ.
٨٦ ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمه والتعليل لابن القيم. ط، دار المعرفة، بيروت.
٨٧ ـ الصحاح للجوهري، ط الثانية، القاهرة، ١٤٠٢هـ.
٨٨ ـ صحيح البخاري، ط المكتبة الإسلامية، استانبول، تركيا.
٨٩ ـ صحيح الجامع الصغير، للألباني، ط الثالثة، المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٢هـ.
٩٠ ـ صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، ط دار إحياء التراث العربي.
٩١ ـ طبقات الحنابلة للقاضي أبي الحسن محمد بن أبي يعلى، ط مطبعة السنة المحمدية.

- عارضة الأحوذى شرح سنن الترمذي لابن العربي، ط الأولى المطبعة المصرية بالأزهر، ١٣٥٠هـ.
- العقيدة في الله، للدكتور عمر سليمان الأشقر، ط الخامسة، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٨٤م.
- العقيدة الواسطية، لابن تيمية، ط الرابعة، طبعة الجامعة الإسلامية.
- علماء آل سليم وتلامذتهم للشيخ صالح السليمان العمري، ط الأولى مطابع الاشعاع، الرياض ١٤٠٥هـ.
- علماء نجد خلال ستة قرون للشيخ عبدالله بن عبدالرحمن البسام. ط الأولى، مؤسسة الخدمة الطباعية، بيروت. ١٣٩٨هـ.
- فتح البارى شرح صحيح البخاري، لابن حجره ط دار المعرفة، بيروت.
- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، للشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ ط، مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، ١٣٧٦هـ.
- فتح المعبود في الرد على بن محمود للشيخ حمود بن عبدالله التويجرى، ط الأولى، مطبعة المدينة ١٣٩٩هـ.
١ - الكشاف للزمخشري، ط ، دار المعرفة، بيروت.
١ - كشف الظنون لحاجي خليفة، ط دار الفكر، ١٤٠٢هـ.
١ - لمعة الاعتقاد لابن قدامه المقدسي، ط، الرابعة، المكتب الإسلامي، بيروت.
١ - لوامع الأنوار البهية للسفاريني، ط مطبعة المدني، القاهرة.
١ - مجمع الزوائد للهيثمي، ط الثالثة، بيروت، دار الكتاب العربي ١٤٠٢هـ.
١ - مجموع الفتاوى لابن تيمة، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن محمد قاسم بمساعدة ابنه، ط مكتبة المعارف، المغرب.
١ - مختصر الصواعق المرسله لمحمد بن الموصلي، ط دار الندوة الجديدة، بيروت ١٤٠٥هـ.
١ - مدارج السالكين لابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، ط دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٢هـ.
١ - معارج القبول للشيخ حافظ حكمي، ط المطبعة السلفية، القاهرة.
١ - معالم التنزيل للبغوي، ط الأولى دار المعرفة بيروت ١٤٠٦هـ.
١ - المستدرك للحاكم، ط مطابع النصر الحديثة. الرياض.
١ - المسند للإمام أحمد، ط الأولى، المكتب الإسلامي، بيروت ١٣٨٩هـ.

١١٢ ـ مشاهير علماء نجد وغيرهم للشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ ط الثانية، بإشراف دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٤هـ.
١١٣ ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، رتبه ونظمه لفيف من المستشرقين ط مكتبة بريل في مدينة ليدن.
١١٤ ـ معجم مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق عبدالسلام هارون، ط دار الكتب العلمية. إيران.
١١٥ ـ معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، ط دار إحياء التراث، بيروت.
١١٦ ـ مفتاح كنوز السنة، ط مطبعة معارف لاهور، باكستان، ١٣٩٧هـ.
١١٧ ـ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبي الحسن الأشعري، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١١٨ ـ مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي، تحقيق د. عبدالله التركي، ط الأولى، مكتبة الخانجي، مصر، ١٣٩٩هـ.
١١٩ ـ النبوات لابن تيمية، ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٢هـ.
١٢٠ ـ النعت الأكمل لأصحاب الإمام أحمد بن حنبل، للشيخ محمد كمال الدين العامري، ط دار الفكر، دمشق ١٤٠٢هـ.
١٢١ ـ نهاية البداية والنهاية، لابن كثير، ط الأولى، مكتبة النصر الحديثة، الرياض ١٩٨٦م.

المجلات

١٢٢ ـ مجلة الجامعة الإسلامية، عدد ٤، السنة الحادية عشرة، ص٢٠٥، مقال للدكتور عبدالرحمن العدوي.
١٢٣ ـ مجلة الجامعة الإسلامية، عدد ٩٩ السنة الخامسة عشرة، مقال للشيخ عبدالكريم مراد.
١٢٤ ـ مجلة العرب، عدد ربيع الأول / ١٣٩٣هـ، السنة السابعة ص٥٩٠ بعنوان: معجم المطبوعات العربية.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الباب الثاني
جهود الشيخ عبدالرحمن بن سعدى في توضيح العقيدة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحـة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة